

وليد إخلاصي



رواية



سمعت صوتاً هاتفاً

سمعتُ صوتاً هاتفاً

سمعت صوتاً هاتفاً «رواية»

تأليف: وليد إخلاصي

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 هاتف: 2134433 (11 - 963 +)

فاكس: 3314455 – 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الأولى: 2003 / 2000

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.furat.com

وليد إخلاصي

سمعتُ صوتاً هاتفاً

رواية

1 استيقظت في الغرفة البيضاء، فلم أمتلك فعل شيء سوى التأمل. كانت عيناي تنتقلان ببطء في فضاء المكان الغريب، الستائر تشفّ عن ولادة نور الصباح وجهاز التلفزيون المعلّق تعلن شاشته الرمادية عن غياب الصور التي لاحقت بعضها البارحة في فيلم يعرض حياة موسيقي أعمى، فعلمت أني مازلت مقيماً في المشفى. الجدران اللامعة تتنفس دهانها بهدوء حسبته يجثم على صدري، بينما زوجتي على السرير الآخر غارقة في نوم متعب بعد ليالي الانتظار القلقة. حسبت أن الأزمة مرّت واني أستطيع أن استوي في جلستي، لكن الخدر خرج عجزاً عن الكلام الذي حاولته شفتاي، فحاولت أن أنادي على زوجتي لكن عجزي ما لبث أن تجمّد ذعراً في نظراتي الزائغة. وحاولت أن أصل بذراعي إلى الجرس لاستدعاء الممرضة فلم أستطع. أغمضت ثم فتحت عيني بسرعة كما افعل احياناً عندما لا تستجيب (المسجلة) وفشلت محاولتي الثانية. تساءلت إن كنت حقاً فقدت القدرة على الحركة أو الكلام، ولكني ما لبثت أن استخدمت الذراع الأيسر فاستجاب لي وجعلت أضغط الزر بعصبية إلى أن فتح الباب وأطلت الممرضة السمراء بوجهها الذي يبدو انه تفتّح لصباح مبكّر، آنذاك هبّت زوجتي بذعر على صوت الباب الذي أرسل صريراً لا يليق ببناء حديث وباتت بقربي تمسح على وجهي بكفّها الحنون قبل أن تصل الممرضة إليّ. نظرت إليهما وكأني أدلي بتقرير صامت عن حالتي. كان نصفي الأيمن قد تعطّل.

ضجّت الغرفة بعد قليل بالطبيب المناوب يحيط به مساعدان، والممرضة تخرج مهرولة فتعود بجهاز وأداة حديدية. وكانت أصابع الطبيب التي تحمل المطرقة الحديدية تحاول أن تدعو ساقيّ إلى ردّة فعل فرفضت اليمنى أن تستجيب. كان بصري قد تعلّق بالشاشة الرمادية التي توهجت

فجأة، وخيّل إلي أني أسمع صوت مذيعة متصابية مؤهلة لأخبار الكوارث وهي تهتف:

- أفق خفيف الظلّ هذا السحَر، نادى دعِ النوم وناغِ الوتر.

همست ببطء مسموع وأنا أجرّ الكلمات إلى شفتي وكأني أسحب دلواً ثقيلاً من بئر عميقة:

- أهو وقت البثّ؟

فنظر الجميع إلى جهاز التلفزيون ثم إليّ ليقول الطبيب:

- الجهاز مقفل، والوقت مازال باكراً.

فقلت لنفسي وأنا أستسلم لوخز أبرة في قدمي:

- بدأ وقت التخيّل، ويبدو أني أمرّ بأزمة حقيقية.

كان ذاك الصباح المظلم بنوره بداية ليومي العاشر في المشفى الذي لا تتناسب أناقة بنائه الحجري مع جموع البشر الذين يملؤون مدخله فيحيلوه إلى سوق شعبية امتدت آثارها إلى الردهات لتعج بالقلق واللهفة والدموع المتحجرة والأزهار التي تبدو كحرّاسٍ للغرف الممتازة. وكانت البداية قد تمثلت في أزمة قلبية خاطفة كالشهقة فتوجتها بأمنية، رددتها بسرّي، في شعر الخيام «أولى بهذا القلب أن يخفقا»، فكانت كتميمة مباركة رافقت إجراءات المشفى في إعادة الاستقرّار إلى الصدر المستسلم، ثم حدث خطأ ما في تعامل ممرضة، غلب عليها النعاس، مع السيروم، فأصبحت على لعبة جديدة، كنت الكرة التي تتقاذفها الأقدار.

وفي تلك اللحظة التي استيقظت فيها على كسلٍ استوطن نصفي الأيمن الثقيل، وكأنه قدر اللعبة أن تستمر بعد هدوء أعلن عن تشدّده. الشلل! نكتة ثانية يرويها لي القدر في ذلك الصيف الحار وقد دهمت جيوشه البربرية المدينة بعد جفاف دام طويلاً. وكانت النكتة الأولى التي أتلقّى أثرها وأنا ألاعب حفيدي الصغير وقد حملته بين ذراعي سعيداً فشاركت أقدامه الملائكية فرحي وهي تثقل على صدري فاشتعل الإنذار بأن النظام الدقيق الذي يحكم حياتي قد اختلّ حقاً. فوجدت نفسي في المشفى مستسلماً لمعاملات طبّية تبارك خضوعي. (القثطرة) والإبر تدخل

وتخرج بحرية وكأن الجسد بات ملكاً لها، والسيروم والحبوب تخضع لأوامر مبرمجة ارتبط توقيت الزمن بها.

وبشّر ذلك الصباح بتغيرات جغرافية فانتقلت بي عربة إلى قبو البناء، وقد ظهرت لي قاعة فيه وكأنّها مختبر في مركز إطلاق الصواريخ، وكنت محشوراً في أسطوانة معدنية اتسعت لجسدي، فدام تخزيني في جوفها لفترة كانت كافية لإطلاق صور متلاحقة عن رأسي، ولم أشعر بالخوف من الأماكن الضيقة كعادتي، فقد خففت الخيالات المتدفقة من ذلك الخوف الأزلي. علمت أنّ الأمواج المغناطيسية تتجسس على رأسي ومحتوياته وهي تجوس في تلافيف الدماغ دون رقيب.

كان وليد الصغير، حفيدي، يركض كنقطة ضوء نجمية فتنفلش على صدري ليونته الرقيقة، فإذا به أنا كما كُنته هو ندور في حارة قديمة ارتفعت أسوار بيوتها الصماء تحاصرنا، فلا أعلم شيئاً عن الاتجاهات، ولا أشعر بالضياع، ونمضي. ورأيتني أهبط من الدرج الملتوي عائداً من زقاق لا بد أنه «عقبة الياسمين» الذي كان مرتعاً للطفولة، وانداحت أمامي الساحة التي ينتهي إليها خط (الترامواي) عند محطة خان الحرير. وقفت في الفسحة التي تفرعت شوارع ثلاثة منها، أحدها يقود إلى سوق المدينة العتيق، ويؤدّي ثانيها إلى الجامع الكبير بأسواره العالية وهي تزنّر ساحته المنفتحة على السماء تعكس صوت المؤذن ينادي بصوته العذب إلى صلاة الظهر فتقفل دكاكين أبوابها ليتجه أصحابها إلى (القبلية) التي تبدّد عتمتها آلاف الأضواء، ويصبح النور المنتشر في الداخل وفي صحن الجامع إشارة للعبادة التي تكسر إيقاع المعاملات التجارية. وسعيت إلى بائع التمر هندي الذي احتلّ ركنه على الرصيف الضيّق منذ أن وعيت، وجعلت أرقبه يخرج شرابه المبرد بأنبوبة نحاسية لامعة فيسيل لعابي مع الحر الذي يخالط قطع الثلج في الوعاء الزجاجي وهو يبرق بشرابه كتلٍ من الماس. لم يكن معي ما أملك لشراء كأس يطفئ الظمأ، فلحقت بالترامواي متعلّقاً ببابها الخارجي عائداً إلى البيت بأسلوبي المجّاني. كانت دارنا التي اهترأ خشب مشربيتها تطلّ على سوق

الخضار والضجة التي تبتدأ مع الفجر بأصوات الجمال التي تحضر البضائع من البساتين المنتشرة حول المدينة كحزام يعزلها عن الصحراء، وتنتهي مع النداءات المتواترة للبائعين المتنقلين على حميرهم وهم يروجون لبقايا الخضار. وحين يحلّ الغروب تعود السكينة ويصبح الشارع، الذي تخترقه الترامواي تونّسه في ليله القادم، شريطاً من الحجارة السود ترصفه بالهدوء ونحن نرقبه من النافذة وكأننا في انتظار ما يأتي، ويصبح فضاء المنزل مناسباً لدراسة أولاد العائلة ويمنحنا الفرصة في الإصغاء إلى تلاوات من القرآن الكريم يحملها إلى أرواحنا صوت والدي العميق وهو يؤمّ والدتي في صلاة العشاء أو في الفجر وهو يفتتح يوماً جديداً فنجتمع حول الطمأنينة كفراخ الطيور، وتتقارب أجساد الأولاد الثلاثة في الفراش الأرضي، بينما أختنا الصغيرة تنعم بأحضان الوالد في السرير الخشبي الذي كان كالعرش المرموق في الدار. وفي الفجر كانت الأناشيد العذبة للوالد الشيخ تدثّرنا بحنان فنستيقظ بتدرج كسول، وإذا ما انتهى من إعداد الإفطار نتجمّع حول (السماور) تدعونا إليه ابتسامته فيما يتابع ترنيماته التي ستسكن الروح أبداً، وتتحول الوالدة إلى مساعدة له وهي توزع علينا الأرغفة المقمّرة.

نجتمع في أيام الصيف والعطل، أنا مع رفاق لي من «عقبة الياسمين» و«الفرافرة» و«البياضة»، في الرواق الشمالي من صحن الجامع الكبير. هم زملائي في مدرسة «الحمدانية» الابتدائية فتبين لي ثلاثة من الوجوه فيهم، افترضت جاهداً أن أسماءهم هي مراد وعزمي ورضا وبات ذلك الافتراض لاصقاً بذاكرتي وكأنه الحقيقة. الفتيان الذين يتداولون في أحاديثهم الأحلام التي لا حدود لبعضها، هم الجانب المتيقظ من الطفولة التي أنعشتها الموجات المغناطيسية المتغلغلة في الدماغ المهادن.

اسم مدرستنا هو الذي فتح عقولنا على معرفة سيف الدولة الحمداني، فظلّت قاعة العرش في مدخل القلعة تحتفظ بذكراه. وعندما نتسلّق في أيام الربيع سفح القلعة الذي يحفل بالحشائش البرية

والحرادين الهاربة من ملاحقتنا بحثاً عن دمائها كي نخضب به أكفّنا تفادياً لألم عصا مدير المدرسة الصارم، الذي كان عقابه المعروف متمثلاً في عصا الطبل التي ينهال بها علينا إذا تخلفنا عن الدوام، أو عن إحضار كتاب ما كثيراً ما عجزنا عن شرائه، أو للتقصير في إعداد واجب مدرسي أنهكنا تواتره اليومي، فكان شبح العقاب واحداً من مخاوفنا المشتركة وهو الذي دفع بنا إلى التفنن في اصطياد الحرادين والتخطيط لإقامة سباق عام له بين طلاب المدارس المجاورة. وقد دفعنا تسلّق السفح إلى التفكير في زيارة قاعة العرش معتقدين أنّ الحمداني الأمير سيكون في انتظارنا على عرشه المرصع بالسيوف والرماح، يحدثنا عن خطته في التخلص من الجنود الفرنسيين الذين زرعوا في أدمغتنا صورة الاستعمار الأسود.

كان مراد ونحن نستعد لامتحان الصف الرابع عند أقدام العمود في الجامع، يقول بين صفحة وصفحة نراجعها معاً أنه سيهاجر يوماً كما تفعل الطيور، إلى أمريكة أو أوروبة مثلاً لأنّها بلاد يعرفها من السينما، وسيعود من الأغنياء فيحقق ما يريد وربما سيكون من أغنياء العالم، فيرد عليه عزمي أنه سيكون طياراً يرمي القنابل على رؤوس الجنود الذين احتلوا أرضنا وهدروا كرامتنا. ويبتسم رضا قائلاً بصوته الرفيع الهادئ أنه سيكون شيخاً لهذا الجامع وسيستمع إلى خطبه كل رجال المدينة ويصلّي بهم داعياً إلى تقوى الله. وكنت أعود إلى الدار مثقلاً بآراء الرفاق فأحس بالضياع والتشتت لألجأ إلى الكتب أقرأ فيها فعرفت الكثير عن «طرزان» و«أرسين لوبين»، وأهيم في أجواء لا علاقة لها بكل ما يحيط بي.

وهجم البرد في غير أوانه، فدهليز «السكانر» الذي يطوقني جعل يبثّ الرعشة في جسدي. ووجدتني أقاومه بالاقتراب من (منقل الدار) ونحن نتحلّق حوله في شتاءات المدينة المغلقة بالغيوم السود نشوي الكستناء ونصغي بذهول إلى حكاية تكملها جدتي لأمي، وكانت تحضنّني وأختي بحضنها فترسل مع أحداث الحكاية رائحة التمرحنّة التي تحفظ

ثوبها بأزهارها الصغيرة. ثم عادت الحرية الدافئة إلى وهم يخرجون جسدي من نفق الأسطوانة اللعينة، فعادت بي العربة إلى غرفتي بينما الذعر المستتر في عيون الأهل يرعاني بمودة ارتضيتها فغفوت.

كان الحلم كهفاً فسيح الأرجاء، تركض الطفولة في سراديبه التي تصب فيه، فيطلّ الوالد بابتسامته النبوية يمدّ لي ذراعيه فيلتقطني قبل أن تغوص أقدامي في طين بِرْكة كانت تفصلني عنه، ويضمّني إلى صدره بحنان رغيف ساخن فيظهر من خلفه «الليوتنانت» الفرنسي بسمرته المغربية يحرّك شفتيه بلكنة غريبة يدعو إلى إطفاء النور فبلاغ الجنرال واضح في تعليمات الحرب. وكانت حلب تعيش أيام التقنين في كل شيء، والظلاّم وطائرات (المحور) تحوم بالرعب في السماء. وامتلأ الكهف فجأة بجموع المتظاهرين يتدافعون بالمناكب وينادون بسقوط الاستعمار ويندّدون بالفقر، فيتناثر الرصاص في كل مكان وتتقدّم المصفحات الفرنسية من الحشود الغاضبة فتتطاير نقط الدم لتبدو في تساقطها على الأجساد والأرض كبراعم حديثة التفتح. وازداد تعلّقاً بوالدي، والتصق بجدتي أتنفس رائحتها وحكاياتها، وأسمع صوت أمي تقرا تميمتها التي عوّدتنا عليها أيام الحمى وقد تعلّمتها من والدي لتتلوها بآلية تدعو إلى الإغفاء.

كانت جدتي قد اختارت صهرها الشيخ لتقيم معنا معظم أيامها بعد أن أغمض جدي مستسلماً للموت الوديع الذي لا يُنسى، وقد نقلت معها إلينا حكايات ننام على تسلسلها المثير قبل أن تكتمل، وجلبت معها شجيرتين من التمرحنّة باتت عطر الدار المميز، وهي التي زرعت في غرفة أحفادها أخبار الجن والملوك والشطار والحيوانات الناطقة بالحكمة، وامتدّت بلسانها العذب في أعماقي لتخرج من بعد ذلك حكاياتي التي قضيت العمر في رعايتها وقد أصبحتْ عالماً حيوياً لم يهدأ غليانه لحظة.

وإذ تتناهى إلى سمعي همسات الأطباء الذين تكاثروا من حولي، وهي تتحدّث عن احتمالات خطورة الشلل الذي هبط عليّ دون ترحيب،

تابعت إغماضي الساكن وقد تيقظت رؤيتي فأقلّب تفكيري فيما يمكن أن يكون عليه الحال في الأيام الآتية، وأحاول أن أجد حلاً لكل احتمال كانوا يتكلّمون عنه، فتذكّرت صديقاً لوالدي كنا نزوره بين حين وآخر فيستقبلنا على كرسيه المتحرك وابتسامة صمته تحيرني، فأقضي وقتاً أفكّر في حاله كي لا أجد تفسيراً يقنعني. وهكذا استمرّ إغماضي إلى أن ساد الغرفة صمت يوشوش في أذني: «أفِق خفيف الظلّ».

2 مراد هو الضلع المذكّر في الأسرة الخماسية المؤنثة، وبالرغم من أنه آخر العنقود فقد كان مصدر الرزق المنتظم من أجرته كصبي في مخزن كبير للأقمشة، بينما البنات بقيادة الأم كنّ ينتظرن الحصول على الأجر بصعوبة من عمل (الأغباني) الذي تتكاثر عليه نساء المدينة الفقيرات لتطريز الأقمشة بالخيوط الذهبية التي لا تعرف من الذهب سوى لونه. وكان الأب الراحل قد استقرّ مع أسرته في المنزل الكبير بغرفه العديدة وحوشه المتسع وكأنه ثكنة تأوي عسكر الحروب الاجتماعية. أسر كثيرة في (عقبة الياسمين)، أولاد ورجال وزوجات ترمّل بعضهن، وكأن والد مراد قد انجب ابنه الأخير ليكون البديل له في حماية النساء. واحتلّ مراد مع أمه وأخواته غرفة وحيدة كانت نافذتها الوحيدة تطلّ على الحوش المشترك الذي يشهد يومياً ازدحاماً شبيهاً بسوق الجمعة، فكان السكان يتصارعون أحياناً على رفع الماء من البئر أو أنهم يلتفّون كقبيلة متحابّة في ليالي الصيف حول بساط واحد تنتشر عليه المقالي من البطاطا والباذنجان والفلافل، وكان اللحم القادم من المحسنين والجمعيات الخيرية يزين المائدة الكبيرة في مناسبات قليلة، وكان مراد أبطأ أهل الدار في تناول الطعام فبصره يتعلّق دوماً بالصبية زهرة التي تفتّح جمالها مبكراً بالرغم من أنّها لم تكن تكبره إلا بشهور قليلة، وكان قرص الفلافل يبدو بين أنامل زهرة كالحلوى التي تكتسب من شفتيها مزيداً من الحلاوة لتمسّ قلب مراد، الذي تعوّدت ضرباته على التسابق طالما يرى زهرة أو يسمع صوتها وهي تؤنّب الأولاد المشاغبين إذ ينشرون الماء والفوضى وفتات الخبز. ويُعزّيه قربها منه وقد تكرّر غيابه عن المدرسة ليصبح متقطّعاً وهو يلاحق عمله بنشاط في مخزن الأقمشة. زهرة التي تتفتّح يوماً فيوماً عند قدوم كل صباح، باتت أيضاً مثار

احلام الصحاب في لقاءاتهم التي بدأت تتقلّص مع مرّ السنين، وكان مراد يصف البهجة التي تعتريه من الأقمشة الناعمة في دكان معلمه كما تفعل زهرة وهي تسقي أحواض الزرع وقد تفتّحت براعم نباتاتها المتنوعة فينتقل اريج الأزهار إلى براعم الأنوثة على وجه زهرة وصدرها وجسدها وهو ينكشف أحياناً له في طرف ساق أو في ذراع تشرّب بحمرة النشاط فيما تغسل أرض الحوش يوم دورها في النظافة. كان مراد الأكثر التهاباً في التغني بجمال المرأة وهي تذكي حمّى شفيفة في أعماق الفتيان الذين تنمو اجسادهم في كافة الفصول، وكان قد ترك الدراسة نهائياً ليتفرغ لزيادة اجره، فكان الأصدقاء ينقلون إليه أحداث مدرسة التجهيز من مظاهرات ودروس فيبتسم بسخرية تخالطها الحسرة ويردد: «لكنّ الحياة تعلمني اكثر».

وكانت المظاهرات فيّ المدينة تنطلق دوماً من التجهيز الأولى، فيجتمع طلاب المدارس الحلبية لتكون هي طلقة المدفع التي تدفع بالجموع الهاتفة بسقوط الاستعمار، وبعد الاستقلال كانت الهتافات ضدّ (مشروع التابلاين) وتقسيم فلسطين. وكانت تجهيز البنات القريبة تثير خيالات الرفاق وهم يمرّون أمام مبناها الأثري فتطلّ من النوافذ وجوه الطالبات المشجّعات، فيعلّق مراد بتفاخر، وهو يستمع إلى ملاحظات أصدقائه، لأنهم لن يستطيعوا أن يعرفوا فتاة تعادل في جمالها سحر زهرة البري، فساد ظنٌّ أن مراداً سيكون شاعراً يطلق عليه لقب «مجنون زهرة».

وظلّت «عقبة الياسمين» في السنوات القليلة المتعاقبة مكاناً يشعّ بالألفة بين الصحاب وهم يجتمعون على الدرجات الأولى من مدخلها، يتسامرون ويتبارزون في (لعبة مذاكرة الأنفاس) إذ يبتدئ بيت الشعر بحرف انتهى إليه بيت سابق، ويرسمون خطّة الأسبوع لمتابعة الأفلام التي ستشاهد تباعاً. ولم يرافقني أحدٌ إلى دار الكتب الوطنية وهي تستقطب معظم أوقاتي فكانت بعض المساءات تتحوّل إلى استعارة آخر كتاب قرأته فلا تستثيرهم سوى قصص الحب أو أن الفتى القوي مراد يتداخل بأحاديثه عن الهجرة إلى أي مكان في العالم ليجمع ثروة يحقق بها أمنية حبّه بامتلاك الصبية

زهـرة ليجعل منها سيّدة لحلب فنهتف آنذاك بحياة ملكة حلب، وكثيراً مـا ينتـاب الأصدقـاء شـعور بالأسـى تجـاه الأحـلام المخفقـة لأفقـر فـرد فـي المجموعة، فتعلّمنا الموافقة الكاذبة.

وخرجت من المشفى بسند ٍ خشبي في العصا التي لم أتخيّل يوماً من أيام حيويتي أن ألجأ إليها، وتابعتُ في البيت علاجاً فيزيائياً قاسياً متخذاً قرار عدم الاستسلام للعجز، ولكنّ معاينتي للأوراق البيض التي كانت طيّعة لقلمـي بـاتت تدفعنـي للاسـتمرار فـي القسـوة علـى عضلاتـي الكسـول، وساعدني تأمّل أرفف المكتبات المنتشرة على الجدران بكتبها ومجلاتها تفتح صدرها لي بالقراءة التي تحاول أن تسدّ لهفتي التي لم يوقفها شيء.

وفجأة خرج لي من خزانة الذكريات عالم رفاق الطفولة بعد انقطاع عشرات السنين، وكأنّها دعوة إلى استعادة الزمن ليتربّع على عرش أمكنته السابقة. الموسيقا تملأ أذني والحروف تملأ عيني والكتابة الضائعة تسخر منـي. وعـادت الحيـاة المنزليـة إلـى إيقاعـها مـع زوجتـي والأولاد والأحفـاد، فاستيقظ حلم يدور حول رغبتي في زيارة أهمّ الأماكن والمحطّات التي مرّ بها قطار العمر، مدرسة الحمدانية الابتدائية التي فتحت لنا أبواب المدينة القديمة، ثانوية التجهيز الأولـى قلعـة الحداثـة آنـذاك والنشـاط السياسـي المتنوّع كمعروضات بائع الفاكهة الصيفية والتي رمت بـي فـي نهايتـها إلـى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط لأنابع الدراسة في جامعة الإسكندرية. أماكن باقية وأخرى اختفت، المقاهي التي جمعت رفاق مراحل متعددة من الحياة، المقابر التي فتحت سـواعدها للـترحيب بالأحبـاب والأصدقـاء، دور السينما التي فرّخت في ظلماتها خيالات وأوهام اصطبغت بألوان الطيف، أزقّة المدينة الضيقة توحي لك بالانغلاق ثم ما تلبث أن تنفتح على ساحات تدرّبك على شيء من الأمل الذي بتُّ الآن متعلّقاً به أكثر من أي وقت مضى، عقبة الياسمين التي تسلّقت تلّة لا يُعرف لها تاريخ وقد فرضت نفسها على شاشة تفكيري الغائمة وكأنّها تريد أن تكون مؤهلة لتصبح مركز انطلاق حكاية أو حكايات أتمنى أن أجد لها مكاناً على الورق.

رميت بالعصـا بعيـداً وأنـا أتحسـس عضـلات سـاقي، فعلمـت أن

التمارين المستمرّة بدأت تعطي ثمارها، وبات المشي رياضة يومية فتواتر الأفكار مع تسارع خطواتها يوماً فيوماً، بعد أن كانت في بداياتها أشبه بالزحف البطيء فتحوّلت إلى نظام يتوافق مع عقارب الساعة.

ويدور الزمن إلى الخلف بجنون. الأيام الحلبية تحتلّ روزنامة الحياة السابقة لتلتقط الطفولة. الأسواق القديمة التي تحوّلت عقبة الياسمين إلى حارس يدلّ عليها وتجتذب الغرباء إليها فتتحوّل معظم دورها إلى مخازن للألبسة والأقمشة، ويعجّ درجها المتكسر بالطالعين والنازلين فتفقد الكثير من خصوصيتها الأهلية الوادعة بالرغم من ضجة الأولاد. كانت العقبة في الماضي مقفلة على تعب أهلها، فتشهد عودة رجالها في المساء للاحتماء بها، وكانت مسرحاً لعواطف تأكل صدر من يحملها، وأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب والقدود الحلبية تنطلق من أجهزة الراديو التي اقتصرت على عدة بيوت منها وهي التي تتوقف عادة في مواعيد الأذان تبثه مئذنة الجامع الكبير كتوقيت للتأمل الروحي يخيم على ساحة تمتد من عقبة الياسمين إلى دهليز سوق المدينة المتشعبة كجذور شجرة هرمة.

احتلت مكتبة دكانين وقد تعودنا أن نحصل على القرطاسية منها، فتحولت مع الأيام إلى مخزن كبير للأقمشة المستوردة. وكان الرصيف الممتد امامها يواجه مدخل العقبة هو واحد من المراكز التي يتجمع فيها رفاق مدارس مختلفة يتسامرون في أحاديث عن الاشتراكية والحب، ويلتحق بعض منهم برضا وهو يذكّرهم بموعد الصلاة، ويتابع آخرون أخبار الأشواق المشتعلة في قلب مراد، ويراقب قلّة منهم نمو عضلات عزمي على ضوء شرحه لأصول تدريبه الشاق الذي يعتبره شرطاً لقوة البلد.

وابتدأت أولى خطوات الامتحان لقدرتي في توجهي نحو المدينة القديمة ماشياً كمستكشف للأماكن التي أبحث عن رائحتها التي افتقدتها ايام المشفى. بطيئاً كنت لا يرافقني أحد، أعيد التأمل في عالم خلت أني افتقده. كانت الزحمة في الساحة التي تقود إلى الجامع الكبير تتسبب بها مئات السيارات وقد اصطفت وكأنّها في صلاة دائمة لا تبتّل فيها، فتابعت السير امام الجامع تجرّ خطواتي صور الماضي. شاحنات نقل الجنود ظهرت

مكان السيارات ينزل منها رجال مدججون بالأسلحة السريعة والطاسات الحديدية تتوج رؤوسهم الحليقة وقد لمعت وجوه الجنود بحبات العرق تتكاثر مع انتشارهم السريع وهم يلاحقون المصلين الخارجين من صلاة الجمعة وكأنه وقت القطاف، فتمتلئ الشاحنات بكل أنواع الرجال. وكان رجل قد نادى على المصلين بعد انتهاء الصلاة للاستماع إلى متحدث شاب وقف في الجموع يحدثهم عن فظائع (الشيشكلي) الذي تحولت أيامه الأخيرة في الحكم إلى مسرح ينشط فيه الغضب الشعبي العارم.

وأطلّت القلعة عليّ بخندقها الذي مازال جانب من سفحه مغطى بالحجارة بعد أن اقتلع معظمها في الماضي ليستخدم في بناء المشفى الوطني الكبير بعد أن توقف عن استقبال المرضى منذ سنين ليتحول إلى مدرسة للتمريض، وبات الدوران حول القلعة في الحلقة التي تحيط بها امتحاناً للخطوات المنتظمة لساقي وقد أسهمت القلعة في استمرارها، وكأني استمدّ القوة من تراكم الزمن على تلّتها المهيبة فازدادت حكمة تمنحني تفاؤلاً بتجاوز محنتي بشكل قاطع. وانتعشت الذاكرة وهي تسابق خطواتي في العودة إلى الماضي الذي أمست أيامه قريبة مني وكأنّها تجري لتوها. قلت لنفسي أنّها مجرد ستة عقود من العمر وقد حاول حمض الزمن أن يذيبها، فبقيت القلعة شامخة ومازلت أقاوم ملاحقته لي وكأني أنا الذي يسرق بهاء فعاليته.

استراحت الحكومة في المبنى الصلب الذي لم يستطع في مواجهته للقلعة أن يتحداها، وكأنه يريد أن يكون نداً للماضي الرابض على قمتها وهو يطلّ على السهول وبساتين الفستق الحلبي وحقول الشعير واسطحة المباني ومآذن الجوامع وأبراج الكنائس والشوارع العريضة التي شقّت حديثاً والحواري والأزقة الضيقة في المدينة القديمة التي مازال نسيجها يتنفس بحيوية.

ما أجمله من تعب حمله إليّ خريف حلب بعد غضبة الجسد الغادرة!

وعدت من الجولة الطويلة الأولى، بعد استعادة القدرة على الحركة الحرة، إلى الكرسي القش في المقهى المنتشر على الرصيف المواجه لمدخل

القلعة. وكان طعم الشاي يختلط برائحة الماضي وهو يخرج من عباءة التاريخ الطويل للقلعة. سيدة حلب الجميلة تسخر من جحافل الغرباء يهددون وقارها، والخندق الذي كان يمتلئ بالماء يسوّرها بالأمان تسانده الأبراج وهي تعلن عن قوة القلعة التي لم تعرف الشيخوخة بعد.

سمعتها تأتي من بعيد. الأصوات تبتدئ همهمة وتصبح مع الثواني المتواترة إيقاعات تشتد مع اقترابها من سمعي. أناشيد ترقب التدريب ليوم الاحتفال الأكبر. الربيع على غير عادته فقد جاء نيسان بلهيب الاستقلال وغبار الفرح، واجتمع طلاب المدارس في الساحة التي ستحمل بعد ذلك اسم (سعد الله الجابري) وجعلوا ينشدون لعيد الجلاء، وقد تحولت أصواتهم بعد ذلك إلى هتافات تنبئ عن رجولة قادمة.

«تعيش سورية الحرة»

بعد أن كانت تُبح وهي تصرخ بسقوط فرنسا المحتلة. نيسان يشتعل بالبهجة ويتألق بالأعلام والمسكات الهندية نؤدي بها رقصات الفرح الإيقاعية.

و«بلاد العرب أوطاني»

ورأيت بأم العين الأعلام الوطنية ترتفع على أحجار القلعة كفراشات مقيدة تنشد الانطلاق في الفضاء الذي أحسسنا أنه يخصنا لأول مرّة منذ وعينا، ثم صحوت خلسة لأرى السور العالي وقد فقد بعضاً من حجارته ليبدو كفم عجوز فقد شيئاً من أسنانه وهو يبتسم، فاستعدت صور الماضي من جديد.

إيقاعات ترتفع في فضاء الربيع. زغاريد النسوة تحرّر الفوارق بين الجنسين. جنون العيون يلمع. الرفاق ينمون كالحشائش الشيطانية تغطي وجه أرض الذكريات، والصبايا تختال في الشوارع وكأنّها خرجت لتوها من البساتين المزهرة. الأحاديث في المقاهي والتجمعات تدور حول الاستقلال والأحزاب في محاولة للإعلان عن وجودها من أجل الوطن. انقلابات عسكرية تعلن عن القلق العميق في بلد يريد أن يجدد شبابه. حكايات فلسطينية تُروى عن غرباء استيقظت شهوتهم في إخافة أهل الدار الذين

سيعودون بعد هجرة قصيرة. نتائج الامتحانات تحمل بشائر النجاح والأحلام تركض كالغزلان. قررت فجأة أن أعود إلى بيتي وأن أضع توقيت النهاية لامتحان الوجود الذي مررت به. كان الشوق يشدني إلى الأوراق التي حزنت لغياب القلم عن التفاعل مع بياضها الجميل.

3 اعتمر رضا العِمّة البيضاء ليبدو فيها مع الجبّة الفضية تلفّ جسده كمشروع شيخ يتابع سيرة والده إمام مسجد صغير، وقد انتقل إلى (الخسروية) المدرسة الدينية ليعيش فيها يومه طالباً ومقيماً، ثم ليتابع غيابه وقد قرر أن يكمل دراسته في الأزهر. وقُبِل عزمي في كلية الطيران القريبة من المدينة، فبات غيابه عن الرفاق متقطعاً وقد اختلط فخره بلباسه الخاكي بتلميحات عن حبّه لابنة خالته. ولم يقم مراد بوداع أحد قبل أن يستقل الباخرة إلى مارسيليا، وقد زفّت محبوبته زهرة إلى نجار يعمل مع والدها في ورشة صغيرة فأعماه القهر عن قبول دعوة إلى وداعه الذي لم يعلن عن تاريخه. سمعناه في آخر لقاء يتمتم كالملسوع:

لو أنّها انتظرت قليلاً لقدّمت لها السعادة.

وابتعدت عقبة الياسمين كالصورة الفوتوغرافية المائية تبهت ظلالها ببطء يفسر معنى الغياب لكل شيء يبتعد. وبات الدرج الملتوي المؤدي إليها كالسرّ وأنا أمرّ بها أحياناً فألقي نظرة كالتحية الآلية وأمضي. الرؤية باتت غائمة وكأن الأشباح الهلامية هي التي تسكن عقبة الياسمين.

كنت قد استجبت لرغبة والدي الذي أرادني طبيباً كواحد من أجدادنا، فتقدمت بأوراقي إلى جامعة دمشق الوحيدة في سورية. كانت علاماتي في البكالوريا تؤهلني لأكون طالباً في كلية الطب، وكان رفاق من المدرسة في حلب قد سبقوني إليها فدفعهم الفخر إلى دعوة لزيارة المشرحة فيها، وعند المدخل في الصالة الكبيرة التي كانت في الماضي تخصّ الجيش العثماني، زكمت أنفي رائحة الفورمول، وإذ أطلّ على المشرحة تقافزت الجثث أمام وجهي فتراجعت مذعوراً ترافقني سخرية الرفاق. تجسدت أمامي صور موتى رأيتهم في طفولتي عراة على المغتسل الخشبي، فاكتشفت أي كائن ضعيف كنته، وتهاويت أمام حقيقة لا بد منها.

«أهي نهاية الحياة، من غصن ليّن إلى قطعة خشب جامدة!»

وانقلبت على عقبي متجهاً إلى مركز التسجيل في الجامعة لأطلب الدراسة في كلية الآداب يلاحقني استغراب الزملاء القدامى من قرار غبي كهذا، واكتشفت أنّ ما حدث لي كان دافعاً لعودتي إلى الرغبة الطبيعية لنفسي، وأنّ حادثة المشرحة كانت المصادفة السعيدة كي أحقق حلمي في دراسة أمور لها علاقة بعلم النفس أولاً وتاريخ الآداب ثانياً، وهي الأمور التي اصبت بمسّها منذ أيام اليفاعة، وكنت أتصور أنّها المساعد لي في قص الحكايا المخترعة. وابتدأ عندي مرض التعلق بالأساطير والآداب مبكراً، فكنت أشتري الكتب من مصروفي الشهري الذي كان الوالد يخصني به أو من ارباحي التي أجنيها من تخصصي في بيع كل ما هو قديم يخصّ الأقارب فأحصل على حصتي كوسيط شريف، ولا أنكر أني بتّ بعد ذلك غير قادر على المساومة التجارية التي كنت قد برعت فيها سابقاً، فهل تغيرت عندي جملة المفاهيم ومنها المالية لتصبح عندي مفاهيم جديدة أصبحت مفاتيح الحياة، وهل ستتغير تلك إلى غيرها وهكذا ...

وظلّ هم الثقافة متوارياً وراء دراسة الرياضيات والكيمياء في المرحلة الثانوية، ليطلّ ببطء متدرج على اللحظات الحاسمة وقد خامرني شعور ما يلبث أن يصبح مزمناً وهو أن أرضية البناء الثقافي ترتكز بقوة على العلوم الأساسية وما يتفرع عنها كالكيمياء والرياضيات وما يتفرع عنهما من منطق وفلسفة وموسيقا. وقلت لنفسي عند نقطة التحول تلك من دراسة الطب إلى كلية الآداب التي لن تمنع متابعتي في التعامل مع العلوم الأساسية وكنت أزداد إيماناً بأنّها ستسهم في اتساع الرؤية. وقد ظلّ انتسابي لتلك الكلية سراً أخفيته عن والدي خشية غضبه، وقد وقر في ذهنه أنني مكلّف بإحياء نشاط الأجداد وقد برع شيخ منهم في الطب واشتهر به حتى إنه كتب مؤلفاً قيل إنه من الكتب القيمة.

وقد كشفت عن السر إذ أستجيب لإغراء أخي الأوسط الذي كان يتابع دراسة العمارة في الإسكندرية، ولا أنكر أن استجابتي كانت بسبب ما استهواني من الحياة الفكرية والشعبية لمصر ولحبي لأغاني اسمهان وأم

كلثوم وعبد الوهاب، فانتسبت إلى كلية الزراعة بدلاً من الهندسة التي دعاني أخي إليها. كنت أبيت النية الخبيثة في أني لا بد سأفشل في دراسة الزراعة التي لا أعرف عنها شيئاً فيكون لي المبرر في الانتقال إلى كلية الآداب أدرس الفلسفة أو علم النفس. إلا أن المصادفة وحدها هي التي قدّمت لي النجاح السهل لأنتقل إلى السنة الثانية فلا أجد غضاضة في متابعة الدراسة الزراعية.

وجدت أن الحياة المصرية على فقرها غنية بحياة الطلاب الحرة، وأن مختبرات الكلية العلمية قدّمت لي الميكروسكوب الذي سيسمح لي بالإطلال على جانب من أسرار الطبيعة، وأتاحت لي فرصة تأمّل السوائل التي إذا ما تمازجت في معمل الكيمياء كشفت لي عن معنى التحوّل. ودفعني حبي للعيش في الإسكندرية إلى متابعة الدراسات العليا في الكلية نفسها بعد أن كنت لا أتصور يوماً أني سأغوص في عالم النبات والحيوان والحشرات وما يلحق به من مبادئ اقتصادية أسهمت في غرس الاقتصاد اللغوي في طريقة تفكيري وكتابتي. ثم ابتدأت حياتي الوظيفية بعد عودتي لأدرِّس في كلية الزراعة المحدثة في حلب ولأتابع بعد ذلك العمل في مؤسسة اقتصادية زراعية.

«عجباً من كل ما حدث من مصادفات وتحوّلات!».

ولا أنكر أني في متابعتي الدؤوبة للكتابة قد أفدت من تلك الطريق التي سلكتها كما لم أفد من أي شيء آخر.

وها أنا أمر في التاكسي بساعة باب الفرج كعلامة على قدرة الحجارة الحلبية في انتصاب برج تزيّنه الزخرفة، وكانت عقارب الساعات الأربع قد توقّفت منذ أيام الطفولة فتساءلت إن كان زمني قد توقف أيضاً دون أن أدري، إلا أن العقل مازال يعمل فالحياة مستمرة. وكان الزحام في قلب المدينة مثقلاً بالفوضى واجهتها بسكينة تعلّمتها بعد مخاوف العجز التي تسلّت بي شهوراً عديدة. وما لبث هواء الخريف أن أثار سؤالاً:

مَن بقي من رفاق الطفولة والصبا والشباب والكهولة التي تمضي قدماً؟

وصحبني التساؤل إلى الدار. كنت أحاول أن أجمع شتات الذاكرة فلا يظهر على شاشتها سوى أسماء متفرقة يغيب عني اسمها الأول أحياناً أو الكنية. الفوضوي فلان، الذكي الأسمر، الثرثار الظريف، الطموح الأقرع، المتجهم السوداوي، البدين الشره.. فكانت الصفات أبداً حاضرة وأتعثر كثيراً في المطابقة مع الاسم الحقيقي. هل تمددت الذاكرة أيضاً أم أن التاريخ يحب الغياب، وهل الفناء الحقيقي الذي يلحق بنا يعني احتراق تلك الشاشة التي تربطنا بالماضي؟

وها هي صور باهتة تتجمع كنقط الزيت على سطح الماء تبدأ في الظهور. تتفتح وتلمع ثم تشتعل بالكآبة القاسية، فجسد الوالد يطفو في بركة الأحزان، وها هو الموت الفاجع الأول في حياتي يستعيد نفسه، وبالرغم من أن جانباً كبيراً من علاقة الأب الشيخ بنا كانت تؤكد على أن الإيمان السوي يجعل من موت الجسد انتقالاً إلى حياة أفضل، لكن ابتسامته الوادعة في نومه الأخير لم تستطع أن تخفف من الفراغ الذي ابتلع أعماقي في الظلمة التي ضخمتها ساعة الحائط وكأنّها تعلن لحظة النهاية أو ترسم علامة الصفر. وكنّا قد تعودنا على إيقاعاتها الجميلة وهي تعلن عن استمرار الزمن الذي حسبت توقيته استمراراً للسعادة في الأسرة المطمئنة. استدعيت على عجل إلى بيت الأهل، فعرفت من نشيج أمي وأختي المتداخل مع نسيج الليل الذي انتصف أن أمراً قد حدث فلم أحتمل تأويله. خلفت الدرج ورائي بجنون وتقدمت بخطوات مذعورة من الجسد الذي غدرت به الحياة وطُعنت في حاجتي إليه وإلى محبته وحكمته. وها هو غياب الأحبة قد أعلن عن سباقه الوحشي لتتساقط بعد ذلك أجنحة الأسرة الصغيرة واحداً فواحداً، وبعد ذلك بقيت وحيداً يتداخل الاستسلام مع نسيج الروح.

وفي يوم البدر الذي جاء بضياء صيفي يبثه فجر غير عادي اختتم ليلة لم أعرف فيها نوماً، أقفلت على نفسي باب الغرفة البعيدة لأسبح في بحر الدموع التي لم أعرف مثلها يوم فراق الشيخ. أخفيت ضعفي لأيام فإذا بي عاجز عن احتجاز الدموع المختزنة فتهدّم السدّ وتحررت المياه المالحة. الطفولة تبكي فيّ، والحاضر يبتل، فماذا عن المستقبل؟

اغتسلت ومضيت في جولة طويلة ربطت حلب الجديدة، وكأني استلهم السكينة من المدينة التي شهدت مولد عشرات الأجداد ورحيلهم، ووجدت نفسي أقف أمام الباب المقفل للتكية الإخلاصية التي ينتهي عندها سوق النجارين، والتي ذكر والدي أن جدنا الكبير قد اعتكف بها متصوفاً منذ أكثر من أربعة قرون. وكان المبنى الذي يمتد مع بيوت عربية يمهد لدخول (البياضة) التي ولد فيها والدي وبعض من أخوتي، فتابعت السير عبر القلعة والشارع المتفرع عنها لأصل إلى مشارف (الصالحين) التي يرقد فيها الجد المتصوف وقد تحوّل قبره إلى شاهدتين غاطستين تنمو عليهما الفطور لتخفي عدداً من الكلمات النافرة، وهو الذي حافظت عليه مديرية الآثار مع قبور قليلة أخرى. وقفت عنده ينمو إدراكي بأن جذوري تمتد في خط يصل صخب الحياة التي أعيشها بالتربة التي أقف عليها، وقد لعب الزمن بذراتها الناعمة لتصبح متماسكة كطين متحجر يشبه السكون الأبدي. وانزلقت بي الأعشاب التي نمت بين القبور لأقف أمام مرقد والدي كطفل مذنب يقدّم دفاعه بحثاً عن البراءة. شغلتني الحياة عن إظهار كامل محبتي لك، فلم أردّ لك ما تستحق أبوّتك الحنونة الحكيمة واسعة الأفق كأرض تنبت كلّ شيء، والتي سبقت زمنك، وكنت أبحث عن قدرة في فعل ما صنعت. قلت له: ما نفع الركض في هذا السباق والمشوار معروف سلفاً ويمتدّ عبر خطّ مستقيم ما بين هضبتين، وهم الأم الذي يُعِدّنا للحركة، وحفرة القبر التي تفرش لنا السكون. قلت له: إن حلمه الذي ابتدأ بعد يوم من إحالته على التقاعد في إنجاز كتاب يسجّل فيه خبراته عبر سنوات الحياة المنقلبة من يتم الأب والأم ومن دراسة عرفت التقتير والجهد في (الخسروية) ومن هم في الأزهر ومن زواج يحمّلك مسؤولية أسرة سعيت إلى تعليم أولادها الأربعة وإعدادهم لمواجهة الزمن الذي ما عاد يؤمن إلا بالمعرفة كما خيّل لك طوال عمرك. هل ابتلع الثرى أحلامك مع جسدك، أم أنّ بذور المعرفة تحمل من الحيوية ما يجعلها تنبت بقوّة مهما قست عليها الأنواء؟. قلت له: هل كتب عليّ أن أحمل مسؤولية الكتابة التي لم تنجزها، أم أنّ مشروع الكتابة خلق ليكون مفتوحاً أمام الأجيال المتعاقبة؟.

وكان الصمت الذي خيّم على البرية التي تنبت القبور والأعشاب، قد اهتز في الصباح الذي مازال مبكّراً فتوجهت بعيني إلى تجمع قريب يمزق بكاء أهله ذلك الصمت. امرأة اتشحت بالسواد يلتف حولها أولاد صغار رابعهم فتى ينظر بقسوة إلى القبر الجديد، وكان رجال معممون يتلون الآيات بوتيرة وكأنهم فريق مدرسي يغطي صوتهم كل النحيب بين لحظة وأخرى، فعلمت أن الدموع التي ما عادت تخرج من عيني تزيد من الحرقة، وأن الموت هو القاسم المشترك بين الناس وكأنه العدل القاسي الذي يملك وحده زمام الأمور بيديه. وسمعت صوتاً يقول لي:

لِمَ الحزن يا ولدي والحياة قصيرة؟

وعدت أدراجي إلى مكتب الوظيفة، فاستغرقتني الأرقام والاتصالات المتكررة عبر الهاتف، فلم يمنعني ذلك من استسلامي في البيت للكتابة المسائية، وكانت الأوراق تفتح ذراعيها لي بعد أسابيع من الخواء، فوجدت أن الأفكار تتزاحم والصور تتقافز أمام فرحي بالقلم وهو يستعيد سيولته. آنذاك ابتدأ العزاء الحقيقي في عودتي إلى الكتابة وهي تعيدني إلى نهر الحياة اليومية أسبح فيه بنشاط.

4 حطّت في مطار حلب مساء يوم خريفي طائرة قادمة من باريس. وكان أول الخارجين منها رجل ممتلئ بشيخوخة طفت عليها ملامح شباب متماسك قوي، ولمعت أناقته تحت أضواء صالة الترانزيت فتحولت إليه أنظار رجال الشرطة والأمن والجمارك، وبات نجم قاعة الاستقبال.

كانت القاعة تغلي بالمستقبلين، فتقدّم ثلاثة رجال كانوا قد اصطفوا باحترام يحمل رئيسهم صورة فوتوغرافية، وما إن تبين له مطابقتها للرجل المهيب القادم بثقة حتى هتف (هو ذا المعلم)، فاندفع الآخران وراءه بلهفة تليق برجل ذي أهمية استثنائية، فأحاطوا به مرحبين، ليسير ركبهم نحو قلب المدينة.

أربعة عقود تقريباً من الغياب، وها هو مراد زكريا الصامت كأمير يقلّب النظر في أطراف ملكه، ترتسم على وجهه علائم الدهشة تارة ويقطب تارة وكأنه يسجل احتجاجاً على مشهد لا يليق. وكانت نهاية المطاف شقة فسيحة أطلّ فيها من وراء الزجاج على (الحديقة العامة) كجندي أنهكه الانتصار، فغدت نظراته وحيداً تساعد روحه على الهدوء بعد معارك طويلة، ليكتشف أن أرباحه المتراكمة ككومات القمح في أرض لا حدود لها، لا تعادل اللحظة التي يقف فيها بعيداً عن أعماله المتشعبة في أكثر من مكان من جغرافيته المتناثرة. وكانت الأشجار التي تعرّى بعضها تتفتح خيالات متلاحقة تستعيد الماضي، ولمح النافورة التي تتوسط الحديقة الكبرى تبدو وكأنّها جعلت لتدفع المياه في الفضاء وكأنّها الذكريات، لا تلبث أن تعيد بعد حين فصلاً آخر من أحداث الماضي، فينشد إليها مراد متمسكاً بفيض الزمن القديم.

الحديقة في خريفها تعيد الخضرة الضائعة إلى حلب من جديد بعد أن جفّ (قويق) وتوارى مجراه تحت غطاء من الإسمنت، وكان جريانه سابقاً

رمزاً لفرح المدينة. وفي الربيع كانت مياهه المتدفقة تغرق البساتين التي طالما صفقت له مرحبة، كما كانت تملأ الأقبية في بعض الأحيان بالذعر تذكّر بالكوارث التي تهاجمها من وقت لآخر.

خريف حلب أم خريف العمر؟

أهي الحكاية التي تتراءى للعائد من خلف الزجاج، أم أنّها التي تدور في أرجاء المكان يحملها راو لا يعرف كيف يكون الصمت لحظة للتأمّل؟

الأوراق الباقية على الأغصان هي الذكريات، وتلك التي أسقطتها الريح هي ما يحسه مراد زكريا الآن، فتحسس تجاعيد رقبته وبقايا شعر رأسه. إلا أنه ما لبث أن أشعل بقية سيجاره فملأ سطح الزجاج بالدخان لتختفي الحديقة وقد باتت عتمتها ظلاماً لا يدرك.

كانت الشقة الممتدة على مساحة العمارة الحديثة، قد أعدّها له رجله في المكتب المحلي منذ سنوات قليلة استعداداً لقدومه غازياً، وكانت مشاغله تمنعه إلى أن اتخذ قراره الحاسم، وها هو الآن يجول في أرجاء البيت كغريب يعيد تقويم الإحساس، فأحس بالرضا. كان كل شيء قد أعدّ في مكانه بما يليق برجل الأعمال الكبير. تفحّص اللوحات الفنية التي تغطي جدران الصالة الكبيرة وكان معظمها لفنانين سوريين استعادوا بألوانهم جوانب من أبرز الآثار في الوطن، وها هي قلعة حلب تتصدّر المكان والضوء المنصب عليها يفيض منها، فتشعّ الذكريات وكأن الأهل والرفاق يقفون معه حولها منشدين إلى امرأة وقفت على سورها تجتذب الهواء إلى ثوبها الهفهاف وقد ولّت وجهها الأفق البعيد فظهرت أبصارها الساهمة وكأنّها تنتظر أحداً يسعى إليها مع الغمام. ها هي (زهرة) الذي تفتح شموخها في وقفة التحدي، فأطرق كمن يستعيد زخارف الماضي دون أمل.

كان الحنين يسري في العروق المتيقظة، واشتعل جسد مراد فرمى به على الأريكة التي غطست به كغمامة في سماء الأيام المتقلّبة. حلب.. ايام باريس الأولى.. المدن التي شهدت سعيه المجنون في البحث عن النجاح. وعلى الحائط المقابل عُلقت صورة أخرى لحلب، فوتوغراف بالأبيض والأسود يظهر المدينة القديمة بأحجارها الشهب وأسطح الدور الواطئة

بخضوع مستسلم للزمن، فكانت كالمعلّقة الشعرية على سطح مقدّس. صورة كالتي عُلّقت مثيلاتها في معظم المدن التي يرتادها، يملّي النظر فيها كلّما ضغطت الأعمال عليه فيجد فيها العزاء.

ابتدأ مراد عملاً بعد قهر وضياع في المطاعم الفرنسية الشعبية. يغسل الصحون، أو في أعمال أخرى كحارس في ورشة بناء وقد علّمته الوحدة القاسية معنى المراقبة ككلب مدرب. الغريب في البلاد التي تهدده دوماً بالابتلاع، ينكب على تعلّم اللغة ليخفف عنه آلام الغربة، ويحس دوماً أن عليه أن يتذكر حرق المركب الذي قذف به على الشاطئ الأوروبي ليحافظ على قسمه ألا يعود إلى الوطن بشيء سوى الانتصار.

كان ليل باريس في السنة الأولى ظلاماً، فلم يستطع نورها الذي أدخل البهر إلى قلب العالم أن يغزو قلب مراد الذي مازال يستنير بأحلام الأيام الحلبية وطموحاتها. الحب الأول لزهرة، اليأس الذي غمره يوم زواجها التعس وارتباطها بالغريم الذي يشفق عليه لفقره ويحقد عليه لحظة في الاستحواذ على أجمل صبية ولدتها حلب. بات الحصول على المال هو الهدف الذي يسعى إليه في تخبطه اليومي وقد ضخمته الأيام الباريسية فبات محروماً من متعة المدينة الساحرة.

وظهرت له السيدة كنجمة الصبح تدل على الطريق.

هل للأمل دليل في الظلمة الساحقة؟

وكان قد تعوّد الالتقاء بامرأة اجتذبته بأمومة طاغية تلعب المصادفة في إثارة الاحترام نحوها. وباتت محطة المترو مسرحاً لتبادل النظرات أكثر من مرة في الأسبوع الواحد. ابتسم لها فردت بود حملته ابتسامتها الحنون. وصار رصيف الانتظار يجمع الشاب والعجوز كرفيقي سفر متباعدين، ثم تحولت الابتسامة إلى تحية، لتثمر عن حديث قصير ما لبث أن بات حواراً في مقاعد المترو فلا ينهيه سوى مغادرتها له على أمل التلاقي من جديد.

كانت السيدة تحتفظ بجمال قديم أعطى شيخوختها وداعة أم توزع التوق حناناً، فتختلط في ملامحها أنوثة مستكينة بكثير من التعاطف، فبات لمراد زكريا رفقة هي الأولى في غربته.

ظهرت له السيدة التي حافظت على أناقة كملاك يحيي الأمل في نفوس المحبطين، وكانت قد فقدت زوجها في حرب المقاومة أيام الغزو الألماني في الحرب العالمية الثانية، كما أن ابنها الوحيد ضاع في الشمال الأفريقي لتستدل على فقده بعد سنوات، فباتت وحيدة تعلم الموسيقا متنقلة بين الطلاب في البيوت الثرية. وها هي الآن تستقر في قصر تعطي فيه دروس البيانو لصبية هي الوحيدة لأبيها اللبناني.

وبات اللقاء معها شبه يومي، تبدي فيه مدام كوليت اهتماماً يتزايد مع الزمن بالشاب السوري الغريب، فأحس أن وحدته ما عادت قاتلة. وأثمرت أحاديث المترو عن صداقة مستمرة لا يخشى عليها ضياعاً. وتستضيف المدام الشاب الذي يعيد إليها حضور ابنها، ويجمعهما بيتها الصغير وقد امتلأ بصور الذكريات. وهكذا تحولت باريس عند مراد إلى فضاء تظلله أجنحة ملاك عطوف اسمه السيدة كوليت.

لم تغب عنه أمه، ولكن رقة السيدة بدأت تتمكن من القلب تشارك في إحياء الأمومة الغائبة. قالت السيدة ذات يوم إن عليه إيجاد عمل أفضل من الحراسة في الأبنية الموحشة ومن غسل الصحون في المطاعم الفقيرة، وذكرت له وهما يشربان زهوراتها المفضلة أنّها التقت بالسيد كريم والد طالبتها هدى، وحدثته عنه وقد فوجئت به يعطيها بطاقته كي يراجعه شخصياً في مقر الشركة الرئيسي. وقالت مدام كوليت إنّها الفرصة التي عليه أن يحرص عليها.

كان حديث السيدة أول انفجار في قلب مراد يشعل الدهشة والفرح والامتنان في روحه، أهي البشرى تحملها النيازك من متاهة الفضاء، أم إنذار بالتحول في مسار الحياة!. ولم يعرف النوم تلك الليلة وهو يستعيد كلمات كوليت «هي الفرصة فاحرص عليها» كتميمة يرددها مستبعداً خطورة الشك فيها.

كان يستلقي على الفراش الحديدي يتأمل السقف الواطئ ثم لا يلبث أن يتخلص من ضغطه فيستوي واقفاً ويجول في المساحة الضيقة للغرفة المنسية آخر درج العمارة التي نسيها الدمار في الحرب السابقة. يشعل سيجارة باقية من علبة يقنن استخدامها ويفكر وكأنه في دهاليز المتاهة التي

يتفنن الرسامون في امتحان ذكاء القراء بالتحرك فيها للوصول إلى الهدف، فلا يحصل إلا على القلق الذي ينوس بين الشك والأمل. عينان متيقظتان واحلام تتصارع مع نفسها.

جاء الصبح بعد مخاض الليل المتعثر. وفي شارع ضيق تفرَّع عن (بولفار هوسمان) كان المبنى الجليل بقدمه المعتق بدخان المدينة، يشغل بطبقاته الأربع مكاتب المؤسسة التي توجه إليها مراد بخوف. وإذ يضع قدمه على بلاط المدخل اللامع يدفع بالبطاقة إلى الحارس الذي بدا كجنرال حبس في سجن زجاجي، فأشار إلى غرفة في صدر المدخل، وهناك تلقته سكرتيرة وكأنّها مسؤولة حوّلتها أناقتها إلى كهولة متصابية وخففت عنه ابتسامتها المصطنعة وقد شذت حداثة ملابسها عن الأثاث العريق وهو يعلن عن هيبة المكان، فازدادت المخاوف. وانتظر انتهاء مكالمتها الهاتفية التي اجرتها وهي تنقل بصرها من البطاقة إلى المراجع الذي أحسّ أنه لا يليق بمكان كهذا وهو يضيق بالرخام الأسود الذي يزحف على الأرض كأفعى تتمطى. جاءه الفرج وهو يلتقط كلماتها الآمرة برقة.

- تفضلّ بالانتقال إلى الدور الأول.

فشاركت عيناه الامتنان الذي هتف به بصوت مخنوق، وتحول إلى المدخل من جديد ليضع قدمه على أول درجات السلم الذي يقود إلى أعلى. ولم تفارقه عيناها وهما تفلّيان لباسه الذي تمنى أن يكون له غيره في تلك اللحظات من امتحان قاس كان يمر فيه دون علمه. ولم يكن لمراد، الذي حاول أن يرتدي أفضل ما عنده، الفرصة في أن يكون لائقاً بالمكان الذي انكشفت له أناقة بذخه حالة من التحدي لا قدرة له في تصورها.

وفي غرفة تسري فيها القواعد نفسها من جلال السكينة والعظمة، دعاه رجل في متوسط العمر إلى الجلوس بلكنة، وقد كشف مراد عن نفسه بـــ«شكراً» عربية، إلى اكتشاف لبنانيته فدخلت الطمأنينة قلبه، وكرر الشكر بعد قليل ليزداد تآلف خفي قام بينهما بالرغم من انشغال الرجل عنه.

وطال صمت الانتظار فعاد القلق إلى قلب مراد وحسب أن حلم

المقابلة لن يتحقق في تلك السنة. وتبين من خلال مكالمات هاتفية عديدة يقوم بها الرجل أنه مدير لمكتب الرئيس العام للمؤسسة وأنه ذا شأن في المبنى، وفجأة حضر رجل يتمايل في مشيته لسمنة مفرطة، فقاده إلى باب نمت عليه الزخارف وكأنّها جعلت لإثارة الرهبة في قلب من يتخطاه، ونقر على خشبه الرنان مشيراً إلى مراد أن يتفضل منسحباً بهدوء.

وجد نفسه في غرفة فسيحة كملعب لكرة السلة، انتشر فيها عدد من المقاعد الحديثة ويتصدرها مكتب زجاجي كالشفافية لا تلوثها الأوراق وقد خرج منها رجل ببياض حولته الأنوار الخفية إلى كتلة تسرق الأنظار وتشكل ابتسامته الجادة هيبة انفرست في قلب مراد طويلاً. دعي إلى الجلوس قريباً من منصة الرئاسة فلمح إطارين من خشب نادر يحيطان بصورتين لسيدتين إحداهما لصبية ضاحكة، تعكسان نور السطح الزجاجي للمكتب الذي بدا كصفحة السماء في مساء مشرق. قال الرجل الممتلئ صحة وقد لمع راسه ناعماً كالزجاج:

- أنت الشاب الشامي الذي حدثتني عنه مدام كوليت!

فرد مراد باستحياء:

- من حلب يا سيدي.

فضحك الرجل المربوع وهو يلف بكرسيه في نصف دائرة، قال:

- بلاد الشام كبيرة أيها الشاب، ولا بد أن حلب جميلة مثلها!

فاستأنس مراد من حديث الرئيس، ففاجأه كريم من تقدمه نحوه وهو يعيد السيجار إلى فمه وقد خبت جمرته فقرب بعود الكبريت الطويل منه، وقال من بين سحب الدخان التي نفثها مع كلماته:

- هل تتقن الفرنسية؟

فرد مراد بصوت خفيض وهو يدقق في اختيار الكلمات الفرنسية:

- أبذل جهداً في إتقانها يا سيدي.

فعلّق كريم بجدية حلّت مكان الابتسامة:

- لفظك لا بأس به، وسيكون أفضل.

وتابع قوله وهو يعود إلى كرسيه:

- أهل الشام سريعون في إتقان اللغات.

وسحب ورقة بيضاء من خزانة مكشوفة قربه وجعل يكتب عليها، وما لبث أن تساءل:

- لا بد أن تكون جاداً في عملك أيها الشاب.

ومن ثم دفع بالورقة إلى مراد الذي تقدم لاستلامها. قال رئيس المؤسسة:

- أعط هذه الرسالة إلى مدير المكتب. أرجو لك التوفيق في تجربتك معنا.

واستدار بكرسيه إلى واحد من الهواتف عن يساره، فتمتم مراد بكلمات شكر وأقفل خارجاً.

كانت العودة إلى مدير المكتب تفرش الأرض أمامه بثقة أكبر جعلت خطواته مطمئنة. وما إن قرأ الرجل الرسالة حتى ظهرت على وجهه علائم ترحيب وكأنه صديق قديم، وجعل يسطر ورقة يسلمها له ويقول:

- تجد هنا عنوان مكتب فرعي لنا، ويمكن لك أن تبدأ العمل منذ الغد.

ماذا فعلت هذه السيدة العظيمة لك؟ فتحت لك الأبواب بسحر لا تعرف مثله إلا الحكايات. أية مصادفة كريمة ستنقلك بها إلى عالم جديد قد لا يحققه الحلم؟ ألم تكن الهجرة هي الأمل، وها هي البداية الصحيحة للطريق أمامه. ألم يمنحك الفشل في الحب شعلة المستقبل؟ هتف في سره:

- لتذهب خيبات الأمل في عقبة الياسمين إلى جهنم.

وهكذا كان يردد في طريقه فتزداد قوته. وكانت باريس في احتفال به بشوارعها وأبنيتها الرمادية وهي تتضح بأشعة ترافق أفكار مراد وهو يتابع السير على الأقدام لا يحس بالبرد الذي تحصنت الأجساد المتحركة في صقيعه بالمعاطف الثقيلة، فيبدو كمكتشف لجمال لم يميزه من قبل.

كان يبدو كطائر طليق ترفرف أجنحته بفرح يلفت الأنظار إليه. وتحولت لآلئ المطر المباغت، كعادته في المدينة المفتوحة للسماء المتقلبة، إلى براعم من نور يضيء أيامه القادمات وقد بات يتخيلها سعادة تملأ حفرة

اليأس والتشاؤم فتطرد ما عداها. وصار الطموح الذي عاش فيه منذ أيام اليفاعة حقيقة واقعة يستطيع أن يسبح في بحيرته المنعشة فيسجل أول رقم فائز بالسباق المأمول.

وفي تلك الليلة كان الاحتفال. في بيت السيدة كوليت التي غمر كفها بقبل الامتنان، رفعت الكؤوس التي توالت متواترة. نخب الأمومة التي تغمر العالم بالحنان. نخب الأقدار التي جمعت التائه بالنجمة الملائكية وهي تنير الطريق، نخب الدفء الباريسي الذي طرد البرودة. كأسا الكريستال التشيكي النادرتان خرجتا من خزانة السيدة لأول مرة منذ التحاق ابنها المفقود بالقوة المحتلة للجزائر، امتلأتا بالنبيذ المعتق الذي استنزف جانباً من مدخراته، والذي كان الفاتحة الأولى في تعامله مع وسائل تنقله إلى عالم البهجة.

تقبّلت مدام كوليت الشال الصوفي الذي اشتراه مراد من بائع إسباني، وكان يتمنى لو أنه قدم مثله لأمه، وأحسّ وهو يدثرها به أنه يولد من جديد في المدينة التي شعر فجأة أنه ينتمي إليها، وأن باريس باتت تخصه أكثر من أي مكان في هذا العالم. وغمرته قبلة الجبين التي طبعتها السيدة، فكان الحنان الحقيقي وقد افتقده منذ أيام عقبة الياسمين. خيّل إلى مراد أن أبنية اللوفر، التي لم يعرفها إلا بعد حين، أهم أثر في التاريخ ويفوق قلعة حلب التي كانت تمثل له مركز التاريخ في الكون. وخيل إليه أن آدم وحواء قد خلقا على ضفاف (السين) وأن البداية الحقيقية لعمره قد كتبت في سجلات باريس. كانت ليلة الاحتفال واحدة من المحطات الكبرى التي يمر بها قطاره وهو يمضي بحلمه إلى البعيد.

5 استلم عزمي الفارس لأول مرة في حياته رسالة تأتيه من خارج البلاد. فتأمل الطابع الفرنسي وما لبث أن هتف فرحاً:

- أخيراً تذكرت أصدقاء العمر يا مراد ابن زكريا!

وكان بانتظار تخرجه من كلية الطيران عندما قرأ أشواق مراد إلى الرفاق والأيام المفعمة بالخيال، فابتسم لنجاح صديق الطفولة المتمرد على كل شيء ولعمله في مؤسسة كبرى تنتمي إليها شركات كثيرة ويملكها لبناني مغترب لم يفقد انتماءه لأهله فأعطاه فرصة لا يحلم بمثلها، وقد بات مسؤولاً عن متابعة المصاريف والأعمال المالية. ويتساءل مراد في رسالته الطويلة بلغة فقدت الكثير من صلتها بالفصحى إن كان عزمي قد حقق حلمه في التحليق بطائرة في السماء، وإن كان بقية الرفاق يمضون قدماً في الوصول إلى الأهداف التي وضعوها لأنفسهم. وصف مراد أول معطف يرتديه في حياته فيبدو كأوربي حديث. تحدث عن سيدة ملائكية احتضنته كابن لها وعن رجل الأعمال الكبير الذي انتشرت نشاطاته المتنوعة في أرجاء القارة الأوربية وأماكن أخرى وكيف كان الملاك الذي منحه الفرصة لتحقيق ذاته كما كانت السيدة كوليت هي التي حملته بأجنحتها إليه. كتب مراد أن تحقيق الحلم بحاجة إلى الشجاعة في الارتحال وقد كان هو ذلك الشجاع، ويتمنى لعزمي أن يمضي قدماً في تحقيق حبه للطيور ليسابقها في الفضاء.

وكتب مراد على البطاقة التي أرفقت بالرسالة تحمل صورة برج إيفل، أن الصعود إلى ذروة هذا الوحش الحديدي الجميل يبتدأ بركوب المصعد في المرحلة الأولى، وهاأنذا أحس بنشوة الارتقاء إلى المرحلة الثانية فالثالثة التي توصلني إلى قمة البرج لأشرف منها على عالم لا بد إنه بسحره سيصيب بدوار الفتنة. وسيدهشك صاحبك مراد يوم يعود إلى عقبة الياسمين بانتصار يجعلها تفغر فاها إعجاباً، بل أنه سيعود إلى حلب التي ستصفق

لنجاح الولد الفقير الذي كاد أن يضيع في حواريها الضيقة. الشوارع هنا تتمدد بلا توقف في جسد باريس وهي تفتح صدرها لي، وكانت الأزقة الحلبية قد أقفلت في وجهي. اختتم الرسالة يقول: إنك يا عزمي ستسمع الكثير عن صديقك مراد، فاستعد أيها العزيز لتلقي الأخبار.

وكان عزمي في تلك الأيام يذهب بعيداً في حبه لابنة خالته سلمى التي أقسم لها أنه سيحلق بطائرته على بيتها يوم يعلق النجمة الأولى على كتفه. وكتب لمراد جواباً للرسالة يتمنى فيه له تحليقاً عالياً في سماء طموحاته، أمّا عن نفسي فليس بعد الطيران سوى عشّ الزوجية يجمعني وسلمى التي لا أرغب بنجمة غيرها تنير لي طريق الحياة. الا يكفيني يا صديقي أن يتحقق هذا الحلم؟ هو أمل عشت له سنوات، أن يكون لي فضاء أحلق فيه ومطار واحد هو أرض الحب أهبط فيه، وما بين السماء والأرض تتحرك أشواق صديقك عزمي، افلا ترضيه تلك المساحة؟

أمّا رسالة مراد إلى رضا فلم تقرأ إلا أثناء زيارة قصيرة إلى حلب عائداً بعدها إلى القاهرة ليتابع دراسته في الأزهر. تحدثت الرسالة القصيرة عن الانقلاب الذي غيّر رؤيته للحياة، فحركة الناس الساعية إلى الرزق والتقدم جعلت للطموح معنى وغاية، وأنا الآن أركض بعد أن كنت أزحف ببطء دودة. وكان رد رضا يتعلق بوصاياه الا ينسى ربه في غربته وأن يتجنب غواية النساء فيها، ويدعو الله أن يعود مراد موفقاً وقد حقق أمنياته في توفير المال لرعاية أسرته وبناء مستقبله في وطنه فالبلد هو الملاذ الأخير للمؤمن الصالح. وكتب رضا لرفيق الصبا أنه سيتابع اكتساب العلوم كي يفيد الناس ويعظهم في دنياهم من أجل آخرتهم فالعاقبة لمن اتقى، وإذا ما وهبني الله نعمة «شهادة العالمية» ستكون أحلامي قد تحققت. وفي رسالة ثانية جاءته إلى الأزهر تأمل رضا الصورة التي أرسلها مراد محاطاً بفتيات المكتب وقد التصقت به شقراء، أغمض رضا باستياء وقرر أن ينقطع عن التخاطب مع رفيق الطفولة.

وكان نجاح مراد في المهمة التي أوفد فيها إلى (الهافر) سبباً في تثبيت أقدامه في مملكة كريم، فبإشرافه الطارئ على المكتب البحري هناك،

بدائم التصدير إلى دول إفريقية، أتاح له قدرة على أداء مميز سينتقل صداه إلى رب العمل الكبير فيأمر بمكافأة مالية ورسالة شكر، وقد كان لذلك النجاح أثره في وجود اسمه بعد ذلك طي سجل المدعوين إلى الحفل السنوي الذي تقيمه المؤسسة، فوجد مراد نفسه بين أهم الموظفين ومدراء الفروع في أوربا وغيرها، والذي يقام في الصالة الكبرى لفندق (جورج الخامس) الذي لم يكن ليتصور ذات يوم أنه سيطأ مدخله.

بذل جهده بمساعدة مدام كوليت في اختيار أحدث الملابس، وقضى وقتاً في امتحان هيئته التي آل إليها وكأنه شاب باريسي من عالم المال، وتفحصته المدام بإعجاب وهي تهتف بنشوة غابت عنها طويلاً:

- يا إلهي.. أنت شاب أوروبي معاصر حقاً!

وأعقبت وهي تزين صدره بوردة حمراء:

- يبدو أن سحرك الشرقي ينضج بسرعة في سماء باريس.

كان المطر رذاذاً وهو يتحاشاه قافزاً من التاكسي ليحتمي بمظلة المدخل، فتوقف تحتها متهيباً، ثم ما لبث أن انضم إلى مجموعة من المدعوين ليصبح داخل البهو الأنيق متجهاً إلى الصالة بثقة أفضل. خيّل إليه أن بعض العيون قد انصبت عليه متفحصة فتماسك مبتلعاً ريقه بصعوبة وهو يشعر بجفاف من المهابة التي انكشفت له في مئات من الذين يحملون الكؤوس المشعة ببريق الشمبانيا ويتحدثون بهمس سعيد. قرر في وقفته وحيداً أن يظهر قدرة على الانتماء إلى عالم لم يألف مثله من قبل مكتسباً مقاييس غريبة من الأناقة والسلوك المحسوب بمقياس، فبدا مراد بتحفظه من القيام بأي فعل ينبئ عن ماضيه كمن يتقن التعايش مع مناسبات كهذه، فجعل يستعيد أبطالاً من السينما الأميركية التي أدمن مشاهدتها ليؤدي دور الرجل الواثق من نفسه. وعندما تقدم من صدر القاعة انحنى أمام الرئيس كريم الذي أحاطت به زوجه وابنته الشابة، وقد تبينهما من الصور التي أبرزتها هيبة مكتب كريم. كانت الأسرة تقدم الترحيب كشركاء ثلاثة في جمعية الود والتكريم. وخصّ مراد في البداية الأم المتخفية بترهلها وراء معرض مجوهرات براقة ملأت

يديها ورأسها وصدرها، كما منعت عينيه من التعبير عن الامتنان على الدعوة بشكل أفضل. وانتقل إلى الزوج صاحب الفضل والدعوة، فكانت كلماته العربية سبباً في بريق وجهي الأم وابنتها وكأنه يوقظ الحنين فيهما للماضي اللبناني. وحافظ على الخجل الشرقي وهو يخص الصبية بانحناءة صامتة لم تمنعه من معاينة خاطفة للملامح الرقيقة تخرج السمرة من مسامها بعذوبة، وقد شعر بأذنيها تصغيان إلى كلماته التي وجهها إلى كريم الذي أخفت ابتسامته جانباً من تعاليه:

- أحس يا سيدي أن الوطن الذي انتقل إلى باريس المدهشة قد زادها جمالاً.

وصافح الرئيس من جديد قبل أن يغادر العائلة المضيفة قائلاً بخجل:

- أنا مدين لك حتى أموت يا سيدي.

فربّت كريم على كتفه ودعاه إلى المائدة المفتوحة والاستمتاع بهذه الليلة السنوية:

- استمتع أيها الشاب فأنت أهل لهذا.

دفعه الثناء المفاجئ الذي منحه إياه الرئيس تلك الليلة إلى اتخاذ خطوات جديدة، فانتسب إلى مدرسة ليلية تزيده معرفة بالتجارة والمصارف وإدارة الأعمال، وبات قارئاً يومياً لجريدة (اللوموند) كواجب يرمم به نقص المعلومات في السياسة والأعمال الاقتصادية والآداب والفنون. واكتشف مراد أنه بازدياد معارفه سيعرف ما خفي عنه في المدينة التي لم تبخل عليه في الانكشاف له.

في السنة الثانية من عمله بات مسؤولاً حقيقياً يشارك في أعمال التصدير متنقلاً بين الموانئ، فكان يرتحل إلى مرسيليا وما يلبث أن يسافر إلى بلجيكا وألمانيا، ويتم استدعاؤه في كثير من المشاكل الصعبة. واضطر إلى تعلم الإنكليزية، فالأعمال في إنكلترا كانت تستوجب منه ذلك. وباتت السنوات الثلاث الأولى من عمله لدى المؤسسة الشرقية للإعمار الاقتصادي فرصة له في توسع اطلاعه على نشاطاتها من تجارة وبناء وإدارة فنادق، ومطاعم منتشرة في مدن كثيرة كأعمال مساندة لإمبراطورية المؤسسة.

وعرض له في تجواله أن يكون شريكاً صغيراً في المال لفندق صغير في إحدى الضواحي يملكه يهودي مغربي قرر أن يستقر في «إسرائيل». وأصبح اسمه الذي أطلقه عليه بعض من زملاء العمل محبباً لنفسه، فالحلبي كاد أن يدل على كنيته، فلم يستنكر استبعاد (زكريا) من اسمه. وكانت الحاء في اسمه قد تحولت إلى هاء عند غير العرب فنادوه بالهلبي الذي أسعد الإنكليز منهم واعتبره اسماً على مسمى، وكان يعني عندهم (المساعد أو المنجد في الأزمات)، وكأن مراداً بات بنشاطه وسرعة اتخاذه الخطوات العملية مؤهلاً لفكّ العقد التي تلازم عادة الأعمال في المرافئ والمصارف وغيرها.

ولم تتوقف مدام كوليت يوماً عن مده بالنصائح والأفكار كمصدر للحنان والإلهام:

- كن أول الحاضرين في عملك، وآخر من يتركه.

- افترض أن العمل الذي تكلف به يخصك أنت وحدك.

- الأبراج كثيرة. يقولون إن مواليد برج كذا يربحون ويخسر من يكون في برج آخر. من يسعد في الحب هو من مواليد أبراج معينة، وهكذا.. فليكن لك برجك لوحدك فأنت الذي تصنعه بيديك وتطلق عليه اسم (النجاح)، وليكن إذا أردت اسمه (برج مراد).

ولم ينقطع عنها يوماً إلا في غيابه، فلم تكن مجالستها مهما قصرت لتبتعد عن أهمية الدثار للمقرور. كانت مدام كوليت، بالرغم من معارفه الذين اتسعت رقعتهم، الصديقة الوحيدة في غربته التي لم يستطع تقدمه في العمل أن يزيل كامل غبارها عن الروح أو تنسيه الأشواق إلى الأهل والبلد أو تخفف من القلق عبر ليالي التفكير في المستقبل، فكانت كوليت المخدر الذي يحتاج إليه بانتظام في الأوجاع المتواترة.

ويخترق سقفه طائر الشؤم كنيزك حارق. أهو وقت انكسار بلورة الأمل السحرية؟ أم أنه الإنذار بأن ممر النجاح قد سدّته الحجارة الثقيلة؟

وانطفأت العينان اللتان تمنحان الحب المشع بالأمومة. وانقلت عليه الظلمة بحزنه الدامي وهو يمسك بيد مدام كوليت في المشفى وهي تغالب الموت فتستسلم له مكرهة. صرخ بصوت خنقته الدموع:

- هذا هو الغدر، الآن عرفتك.

وعرف، وهم يسحبون كفها من يده، معنى الفراق.

وستلتقي به هدى ابنة كريم في المقبرة التي منحتها الأشجار العالية ظلال الكآبة. وتتقابل الدموع في عيونهما فتفيض الملوحة، وكأن تلك الأشجار المتناثرة هناك لا ترتوي إلا بها. كانت مقبرة الضاحية القريبة تصغي إلى نشيج هدى الرقيقة وكأنه من لحن (الصبا)، فتطفى غزارته على أحزان المشيعين الذين اقتصر وجودهم على عدد من موظفي الشركة وهم يشاركون مع أكاليل الأزهار النادرة يحملونها بتوجيه من الرئيس. ووجد مراد كفيه تمسكان بذراعي هدى معزياً وهو يعبر عن مشاركتها الحزن الذي فتت قلبه، فشهقت من جديد وهي تقول:

- كانت أماً لكل الناس.

وتحولت هدى مع مراد إلى قبول التعازي من الآخرين، وكأنهما العائلة الوحيدة للراحلة. قالت وقد باتا وحيدين عند القبر كعلامتي حزن:

- كانت صديقة حقيقية، مرشدة وأمينة على الأسرار. معلمة حولت الموسيقا إلى إيمان.

قال مخنوقاً بدموع لم يفرج عنها:

- كانت كالأم الحقيقية، بل هي المنارة ترشد بنورها من ضلّ الطريق.

وهتفت هدى وهي ترمي بوردة حمراء على تراب القبر:

- أود لو أحقد عليها لأنّها أخفت المرض عني.

- أخفت آلامها بصمت. أعمتني محبتها عن سماع زحف المرض اللعين.

وقالت:

- سأظل احتفظ لها بالحب دوماً في القلب.

وقالت:

- كانت خير معلمة فكيف سأنظر إلى البيانو بعد الآن وقد لامسته أصابعها!

وتساءلت بوجوم يفوق ثوبها الأسود:
لماذا يرحل الأحبة والأصدقاء دون إنذار؟
كانت الكلمات تتدفق من هدى وهما يغادران المكان الذي بات موحشاً، فاشعلت في قلب مراد مشاعر مبهمة لكنها متأججة زادت من اسارعه، فباتت خطواته تساير خطوات هدى المتقدمة من سيارة رياضية شكّل لونها الأحمر خلفية لثوبها الأسود، فأشرق له وجهها العاري من أي زينة فبدت له كملاك الحزن يواسيه. قالت له وهي تدخل السيارة:
- طالما حدثتني المدام عن صداقتكما، وأنك تعوضها عن ابنها المفقود كما انا اعوضها عن الابنة التي كانت تتمنى أن ترزق بها.
وتساءلت وهي تشعل المحرك مودعة:
- لا بد أن سيارتك قريبة.
وحيداً عند المدخل يفكر بذاك اللقاء مع السيدة الصغيرة. أي فضل قدمته له السيدة الراحلة في حياتها وموتها! وهل كان لكوليت أن تموت لتجمعه لحظة الفراق بنعمة اللقاء؟
ودهمته جيوش الكآبة وهو يودع السيارة الحمراء بأنظار مشوشة، فابتلعت عطفة الطريق المشجر عينيه التائهتين، وبات المنظر لوحة تمثل الفراغ. هل سيتكرر مثل هذا اللقاء من جديد، أم أنه حلم يضيع مع الزمن؟. وخرجت زهرة من أعطاف الذاكرة، حيوية بابتسامتها ترشقه بها دون حساب، فتطابقت صورها المتلاحقة مع هدى وهي تذرف الدموع وترمي بقبضة تراب على الصندوق وهو يستقر في جوف الأرض.
طويلاً، سعت سيارة الستروين بحصانيها القديمين دون هدف، وإذا بمراد يجد نفسه الهائمة عند مدخل غابة بولونيا. كانت حرارة الكف الذي مدته إليه هدى تذيب الماضي الذي اعتاد الهجوم بين حين وآخر، وسيطر وجهها على المساحات الخضر التي تتعاقب عليه وهو يدخل الغابة، وتعاقب سواد ثوبها المشرق على أغصان الأشجار كأعلام ترفرف وهي تعلن عن جاذبية أنوثة متفتحة. وجلس على شاطئ البحيرة الصغيرة ساهماً في متابعة جموع البط والإوز السابحة بطمأنينة لم يجدها في روحه، وكان

سواد الثوب ينتشر على الريش الأبيض للطيور، فإذا بكريم يخرج من عمق الماء كوحش أسطوري ويصرخ بصوت يهز سكون البحيرة:

– من أنت أيها الشامي الفقير حتى تفكر بابنتي الوحيدة؟

فرمى مراد بحصى صغيرة في البحيرة وكأنه يطرد الكابوس الذي هز الكيان، فانداحت دوائر على سطح الماء فلم يتأثر طير سابح فيها، وهمس لنفسه:

– لا يمكن لك أن تذهب بعيداً يا مراد الحلبي.

وقرر أن في العودة السلامة.

في المكتب، يغرق في بحيرة العمل اليومي، والأيام المتعاقبة تربطه أكثر فأكثر بأفق التقدم. في البيت يحاول أن يطرد أوهامه من نافذة السقف التي تعوّد نقر حبات المطر عليها. وذات يوم، وخلال الأسابيع القليلة التي مرت عليه من غير لقاء مع مدام كوليت، وصله مغلف يضم بطاقة بالعربية كتب عليها باليد فكان الحبر الصيني يظهر كرقعة قديمة. كانت دعوة لإحياء ذكرى مدام كوليت في قصر صاحب المؤسسة كريم بمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيلها. ما من توقيع أو إشارة لمرسلها، فغصّ ريقه وانتعشت آماله بلقاء هدى من جديد.

في غرفته الوحيدة، قلقاً يدور على نفسه. يطفئ سيجارة أشعلها لتوه، يملأ كأساً فيرشف جرعة ماء ويرمي بالبقية في أصيص نبتة أهدتها له مدام كوليت. هل تتاح له الفرصة حقاً؟ أيمكن لموظف صغير مثله أن يقابل من جديد فتاة في مكانة هدى؟

هناك شيء يحدث له علاقة بالعجائب!.

6 كان جسدي يستيقظ بهمة أيضاً في ذلك المساء، يلازم نشاط العقل النهم الذي دعي إلى مائدة الكتابة، فأحسست بشيء من القوة التي لم أعهد مثلها من قبل، تدفق ماء الاحتراق في أعضائي المرئية والمخفية، فظهر لي شبابي وكأنّها قيامته الثانية، وكأن الحيوية قد استكملت مرونتها بعد أن عرفت سعادة خاصة في استعادة الجسد كما كان قبل أن يداهمه العجز. كنت قد قطعت مرحلة في الكتابة. لكن اليوم كان له شأن خاص.

تذكرت والدي الشيخ في انتصاب هامته يقف بين يدي الله بتقوى الروح وقد تجسدت قوة في قامته. وكان ثوبه الناصع في بياضه يرفرف كحمامة على إيقاع ترتيله الجميل في السور القصيرة التي يحبها. سورة الرحمن التي يتلوها مرة على الأقل في الصلوات الخمس، استعدتها كنشيد كوني ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان﴾، أتذكر إيقاعها عليّ في الفجر يدفعني إلى التفتح بعد نوم عميق. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وتردد جدران الدار صداها فكأن معناها طلاء يجددها. وحين كان المستيقظون أو الحاضرون منا وهم يلتحقون به في ركبه، كانت الرعشة تتملكني فأخشى بعد الركوع ألا أستوي واقفاً من جديد.

واستقبلت الصفحة البيضاء من جديد الكلمات كنقش محفور فكانت تستجيب للقلم ينغرز فيها فلا تلبث أن تقوده إلى نقش آخر ليمتلئ بالخيال المشتعل. وينضح لي صدر الكلمات وهي تعلن عن معناها بفرح غامر وكأنني أداة في يد السحر الذي تلبسني لينكشف لي ما تجهله الكلمات نفسها.

توقفت فجأة، كعادتي القديمة، أتامل ثراء الكتب المنتشرة على الأرفف وهي تغطي الجدران، فكانت كفريق من المشجعين كي أعود إلى الكتابة. وأصغيت من جديد إلى همهمات الذكريات التي تقلب أحياناً على

واقعي اليومي، فتداخلت مع الخيال الذي تمتطيه الكتابة وهو ينازعها على مكانتها، فتنلب الذكريات أحياناً.

وضاق بي نور الأباجورة وهو يضيء بؤرة الكتابة، فينتشر الظلّ في مساحة الغرفة التي غزتها جحافل الشعور بالوحدة فيمتص النور وأنا أستعيد الأهل. الرحيل يسجل أرقامه القياسية. الأب والأم ومن قبلهم جدتي الحكواتية كانوا أول الراحلين، ولحق بهم الأخوة كلهم، نزار الذي اختار الاستلقاء في حفرة هولندية، وهند التي لم تستيقظ في غرفة الإنعاش، وعدنان وهو يغدر بي مستسلماً لإنذار مفاجئ لم يمهله. تمزقت لوحة العائلة وانكسر إطار الألفة، فهربت إلى أسرتي التي بنيتها بروح المحبة المتوارثة أحتمي بها وأستظل، فانتعشت باستدعاء أحفادي إلى حجرة المستقبل أرحب بهم كأزهار تزين دار الحاضر. وقاومت الوحدة الموحشة تجثم على صدري بأنفاس الصغار يلهبون المخيلة. واستعادت غرفتي نظام الطمأنينة بدخول زوجتي علي بالشاي وهي تكمل حديثاً سابقاً عن ابننا الذي تنمو أسرته كتعويض عن غياب العائلة، بينما الثاني يلتصق بالكومبيوتر في عزلته المجاورة لمكتبي. إذاً فالأسرة الجديدة التي تشعبت أيضاً تحل مكان العائلة الغائبة، فبأي آلاء الرحيل والحضور تكذب!.

القلم يتمسك بأصابع يمناي التي رحبت به، ويجرني كطفل مطيع إلى سطور جديدة تحضر في بياض الصفحة أشلاء الحكاية التي أستجمعها من الزوايا المهملة. وكانت الأوراق تعاود إظهار جوعها إلى الكلمات، وهي الآن تلتهم أفكاري فتنتظمها في وشم الأحداث، فأي عزاء فعال تقدمه لي الكتابة في ترجمتها لنشاط المخيلة التي بدأ الجسد يحثها على التدفق.

أول كتابة جدية مارستها في حياتي، كانت رسالة قضيت الليل في تحريرها، وكنت في منتصف العقد الثاني وقد لازمني شعور اليقظة فلم يكن للنوم أهمية عندي. هي لهفة حب لكنها باتت حكاية حياة في جولة واسعة لقراءاتي في الكتب التي استهوتني في السنوات السابقة. أساطير الحب القديمة وآراء جان جاك روسو وملاحظات أبي حيان التوحيدي وتفاسير فرويد للأحلام ورحلة أبي العلاء المعري في عوالم أخرى، وحشود متزاحمة

من الأفكار والصور لمفكرين وكتاب احتلوا مساحة عقلي. وكان من المفترض في تلك الليلة أن تكون الرسالة بوحاً لصبية نمت أنوثتها أمام عيني فيما تحمل كتبها في الطريق إلى المدرسة، فتحولت سطورها إلى استعراض لمكتسبات المعرفة التي كنت أحصل عليها بنهم مراهق وأود نقلها إلى من أظنّ أنّها ستقدّر في الفتى المحبّ سعة الأفق، إلا أن رداً ما أو إشارة لم تكن قد وصلتني على الرسالة التي احتلت خمسين صفحة. ودام الانتظار طويلاً، فما لبثت أحاسيس جديدة لفتاة أخرى أن طوت المرحلة السابقة. ثم أغلق ملف الإعجاب الحلبي وأنا أضع قدمي في مدينة الإسكندرية أتابع الدراسة في جامعتها.

وكما حدث لذكريات الجنود الفرنسيين يختالون في أحياء حلب، وقد طواهم النسيان مع الأخبار التي اخترقت المشاعر مع إعلان دولة إسرائيل، وتعالت أصوات المظاهرات تصطدم بأبنية الشوارع تخترق المدينة فتتساقط على رؤوسنا ألماً لا يداويه شيء سوى الرغبة في الموت من أجل فلسطين. وكما حدث كذلك أيام الحرب في مصر تواجه العدوان الثلاثي، لتطفو صفحة الحاضر بليغة يزيدها حرارة ذاك التصدي الفعّال لعدوان إسرائيل وفرنسا وإنجلترا، فباتت البنادق التشيكية بين أيدينا وقد وزعت على الفيلق الجامعي لتأخذ مكان الكتب والقلم الذي كنت قد قررت استخدامه في الكتابة بعد أن قررت جاداً اللجوء إليها يومياً. وآمنت أن الفرصة باتت سانحة كي يحقق العدوان شيئاً فعلياً لعواطفي الوطنية. لقد كان الدفاع عن الأرض العربية هو الفعل الذي يلهب روحي مع مئات الشباب من مصريين وأردنيين وفلسطينيين وسوريين وسودانيين وآخرين من دول عربية جاءوا لتلقي العلم فرضوا استبدال المعسكر بالمحاضرات. ومع أيام التدريب والانتظار لخوض المعركة في السويس تبين لي أن ضراوة الأيام العربية تسهم في تكبيل القدرة على الكتابة في اللحظة التي تذكي فيها لهيب الأفكار المتزاحمة على بوابة الروح.

في شبابي الأول سحرتني موجات المبادئ الوافدة من ماركسية ووجودية وعدمية حبلت بها فظائع التقلبات والحروب في الغرب، وجاءت الهجمة الصهيونية المدعومة منه ضربة على الرأس ساندتها الهجمة على

اليقظة العربية الحديثة، لأتخذ موقفاً جديداً لا ينفصل عن تعلقي ببيئتي التي نشأت فيها وبالأرض العربية الممتدة من حروف النفي والرفض إلى الواقع الذي يحاصرنا بكل عيوبه وحسناته. أهو القدر الذي كتب عليَّ أن اكون شاهداً على حياتنا، فيفقدني الحب أمانة الشهادة؟

إلا أن لهيب الرصاصة التي اخترقت جسد المعقول في الخامس من حزيران أيقظ أمراً، فحقنة اليأس التي جاءت مع الرصاصة أيقظت التاريخ نهماً أصابني في استعادته، فكانت القراءة فيه لتصحيح مسار العقل هي العزاء الذي استكملته بالكتابة. لقد كانت (الطعنة) أو (النكسة) كما يحلو لهم تسمية الفترة الحزيرانية الكئيبة تلك، هي شرارة الفعل المجدي الذي جعلني أستقبل حرب تشرين بعد سنوات ببهجة رممّت خروق الانكسار السابق، واعتدل المسار.

هل يكون غليان الأيام العربية، نبعاً تشرب الكتابة من مائه؟

شخصيات روائية ومسرحية، قصص وحكايات، أوهام وأحلام، هي التي ترافق مسيرتي في الحياة، وهي تفتح بذورها في البحيرة السياسية، تدفعها إلى النمو أمواج الواقعية التي تهب عليها بالهموم والآمال والطموحات الصغيرة.

شخصيات تأتي من الواقع مباشرة، أو أن المخيلة تصنعها في المختبر الذي تتوافد عليه الأحداث بثقلها أو برهافتها، فتكون هي المادة الأولية للكتابة او أنّها العجينة الخام.

أسبح في البحيرة بثقة الوصول إلى الشاطئ، أو بخوف الغرق. أتعلم من مئات البشر الذين يساهمون من حولي في صناعة تفاصيل الحياة أو اني أحمّلهم موقفي من الأمور. وكنت كلما ابتعدت عن فكرة الانتماء إلى تنظيم سياسي، اقتربت من السياسة، فكأنما الهواء الذي نتنفسه في زماننا هذا هو الهواء المعروف بتركيبه المعروف إنما تتداخل مع ذراته الأحداث المحلية والعالمية والأفعال الفردية والجماعية، ويتحول الفضاء إلى شبكة عنكبوتية غير مرئية، تقيدك وترسم لك الخطوات كمهندس فوضوي يعرف ما يريد.

لم أكن بقادر على تحديد موقفي، أهو واقعي صرف أم أن التخييل الجامح هو الذي يقوده. هل تتحقق كليتي في الكتابة؟ وهل يتحقق الطموح في أن أكون شاهداً على العصر؟ وهل تؤدي الشهادة إلى حلم بمستقبل أفضل؟ أم أني أتقن فن المراوغة كي أحصل على الرضى، أو أن الشجاعة العمياء هي التي تقود خطواتي في مسيرة الكتابة؟ كنت لا أجد الجواب، فهل يقين المتابعة هو الذي يحكم أي حركة؟

الإنجاز هو الهدف، ففيه العزاء.

وتتسارع حمى سباق التتابع. طويل إلا أنه لا يتوقف، الواحد تلو الآخر. إنهم يرحلون كأنما الطريق يستهويهم فيمضون في السعي إليه والتقدم فيه. رحل الكثير من رفاق الصبا والشباب، ومن الأهل كذلك. ولد أطفال كثيرون منهم أولادي وأحفادي وأبناء أقاربي ومعارفي، اكتشفت ببطء المسحور سر الزوال والتجدد، إذ كلما ضاع أحدهم احتل مكانه أكثر من كائن جديد، فهل يعلمنا طوفان التزايد معنى ما للحياة؟

كنت قد رأيت بأم العين، وأنا طفل، أول ميت وقد سجي على خشب المغتسل، فكان سكون الجسد العاري يثير الهلع فكأنما الجمود يفقد الحياة بهجتها. وعندما استقبلت طفلي الأول ببكائه واستجابة اللحم الطري للحركة، انكسرت في روحي صفائح الجمود وانتشرت في أحشائي متعة الفرح، وتذكرت آنذاك اللقاء القديم مع الموت فكان عقلي ينوس ما بين ذكريات التعاسة وأحلام السعادة. وما بين قبول الواقع ورفضه، كنت كمن يغطس في حفرة النار لينتقل فجأة إلى بحيرة الجنة، فبات مبدأ التناوب بين المشاعر هو الإيقاع الذي يدفع بالزمن دوماً إلى الأمام.

هل كتب علينا التناقض في مشوارنا، ظلمة يعقبها نور وجوع يلغيه شبع وحزن يليه فرح، أم أنه السر الذي لا ندركه إلا في تبدل الأحوال، كي نمسك بجوهرة السعادة التي نبحث عنها منذ أيام الطفولة إلى رحلة الشيخوخة دون توقف؟

وباتت الكتابة التي تهاجم الورق الأبيض نوعاً من البحث عن تلك

السعادة في أكوام التعاسة التي تحاصر المسيرة، فتتواضع للعثور على السعادة في استمرار الكتابة الدائب بلا كلل؟

ولم تكن الحاجة أو الفاقة التي تلمحها في الناس، هي من أسباب تعاستك وحسب، بل التعسف والطمع والأنانية والسوقية، والحب البائس بين شاب وصبية. فتكون الكتابة في أحايين كثيرة هي العزاء الذي يخفف من التعاسة.

لقد منَّ الله عليّ بنعم لا تحصى كان أهمها القدرة على استخدام الكلمات للتعبير عما تغلي به النفس من حروف، فإذا بها تلتقط المعاني المناسبة فتمسك بها لتصبح الصور المتعاقبة في ألوان اللوحة وخطوطها وهي تأخذ شكل الحكاية في رواية او قصة أو مسرحية، أو أنّها تصبح أفكاراً لمقالة أو بحث تنتقل إلى قارئ ما فيعمل التفكير بها رفضاً او قبولاً. أليست هي السعادة!

وها أنا الآن في هذه اللحظات، والنور يغمر الأوراق، أتابع مسيرة رفاق الذاكرة وهم يتفرقون في أبعاد الأرض والروح بحثاً عن وجود يحقق لهم البقاء.

7 شارع «فوش» العريض المتفرع من ساحة «الإتوال» بقوس نصرها العظيم ورؤوس النجمة وهي تذهب في أبعاد الشوارع المتفرعة عنها، كان أشبه بممر مترامي الأطراف لا أفق له، تحدد مساره أشجار تخفي القصور المتباعدة وتقف كالحراس أمام بعض من الأبنية الشامخة، وبدا المنظر أمام مراد كمساحة أشبه بجنة غير موصوفة تظللها سحابة من ضباب فضي يقتلع الشارع بأسره من مدينة باريس ليضعه في فضاء من الحلم يغلف العقل البشري بأملٍ في اكتشاف فردوس مفقود.

أحس مراد في لحظات تقدمه في الشارع بسيارته الصغيرة أن ضوضاء حصانيها تخدش السكينة الوادعة في الجو الذي لا حدود لاستسلامه لطبيعة لم يعرفها من قبل، وشعر بضعفه ككائن يدخل في غابة من الجمال فلا يملك سوى الدهشة. وتوقف خجلاً من الصندوق الحديدي القديم الذي يدعى سيارته، أمام البوابة المشغلة بحديد قاتم تزينه شعارات نحاسية كابية لم يستطع أن يجد له معنى. وشكل القصر له مهابة وقف يتأملها من خلال القضبان، فيخرج بطاقة الدعوة يعاين بها حقيقة قدومه.

كان يبحث عن وسيلة للدخول فاكتشف جهازاً صغيراً التصق بالعمود الحجري، ففتح أمره، الذي أطلقه في ثقب الجهاز، مصراعي البوابة الهائلة فعبر منها مسرعاً خوف الانغلاق المفاجئ المحتمل. كان يمشي بحذر متحاشياً المرج الأخضر الذي شقته أحجار متفرقة وكأنّها ترسم للمشاة طريقها وتعطي للحشائش قدسية سجادة في معبد. ولم يسمح لعينيه أن تتأملا أحواض النباتات والشجيرات التي تبدو كتماثيل لأولاد يستريحون من مباراة، وكان صمت يغلف القصر الذي سقف طابقه الثاني بقرميد أحمر استكملت مهابته بطراز ريفي آسر. تساءل عند المدخل المحروس بتمثالين

إغريقيين إن كان أحد من المدعوين قد حضر، وإن كانت الطالبة الوفية لمعلمتها هي التي وجهت الدعوة له! آنذاك انفرج الباب الذي استمد خشبه من شجرة جوز عتيقة، فهدأت تساؤلاته وقال لنفسه:

- يبدو أنني أعامل جيداً.

استقبلته خادم آسيوية ظهرت في ثوبها الأبيض كممرضة أنيقة فانحنت له، ثم برزت أخرى من خلفها أهم قدراً لتقوده مرحبة بلكنة لبنانية إلى صالة استلبته بفخامتها، فاستقرّ على أول مقعد مذهب وقد خيل له أنه يعفيه من التردد في اختيار واحد من الأركان التي انتشرت في المكان حلقات متباعدة. كانت حلقته الرباعية من المقاعد كجلسة أصدقاء في المقهى الذي لم يقصده سواه. الدقائق تمر كالساعات، منكمش في جلسته يراقب الزمن.

وحيداً يكرمه هدوء المكان الملكي وتعاقبه وساوس نفسه القلقة، فخيل إليه أن أميراً فرنسياً يخرج عليه من أنوار النوافذ التي تكشف الحديقة الخلفية، فاشتدت الرهبة عليه فأغضى مطرقاً يراقب الرسوم الفارسية للسجادة التي كانت تتمدد في كل اتجاه لتغطي أرضية الصالة الهائلة، فظهرت الألوان والأشكال وكأنّها معرض رسوم لأطفال تمدهم السماء بموهبة خارقة. واتسع المكان ليحس بنفسه كقشة تطفو على ماء بحر لا شواطئ له.

وكانت لوحة زيتية كبيرة، بدت عن بعد وكأن فناناً من عصر النهضة قد رسمها، تتصدر الحائط المقابل وقد زينه الورق المذهب فكانت الخطوط الطولانية تحدد مساحته وتحيط بإطار اللوحة المحفور بإتقان وهو يجعل من منظر اللوحة طبيعة نافرة. كانت اللوحة التي تجرأ مراد على معاينة تفاصيلها بالرغم من بعدها عنه تمثل عائلة ريفية تتحرك أمام كوخ هائل، فتفرس في تفاصيلها الغائمة ليدرك أنّها شيء من جبل لبنان الذي لا يعرف عنه شيئاً إلا من الصور، فانتعشت مطامحه وهو يقول لنفسه أنه سيضع في بيت المستقبل لوحة فيها حلب، فالأقوياء يستعيدون عادة مواطنهم وماضيهم لتتأكد قوة حاضرهم.

وقطع عليه تأمله صوت يرحب به. كانت هدى تتقدم منه بثوبها

الأ... الطويل تكشف الدانتيلا فيه عن بياض الرقبة والكتفين فتظهر ... تخرج من سديم ساحر. هدى تقترب وهو يتقدم بخجل العاجز عن ... أصول التحية، فإذا هي تأخذ بيده إلى حلقة أخرى من المقاعد قرب ... الحديقة وتتساءل:

- ما رأيك في جبل لبنان يرسمه فنان فرنسي؟

وتضيف وهي تجلسه على مقعد لتحتل واحداً قربه:

- أقام الفنان شهراً في القرية، ثم عاد ليرسم هذه اللوحة. هل أعجبتك؟

تمتم بصوت خجول استمعت إليه باهتمام:

- الارتباط بالأصول يعني نبل المشاعر يا سيدتي.

فقالت بابتسامة مشرقة:

- كلام جميل، وأنا أحب هذه اللوحة وإن كنت لم أعرف بعد قرية بابا التي جاء منها.

أنفاسه هي الحركة الوحيدة التي يشعر بها مراد في وحدته مع مضيفته. وخفّت حدة روعته وهو يتشرب رويداً رويداً الألفة التي تغمره بها هدى، ثم ظهر لها وكأنه يريد أن يتساءل في أمر يشغل باله، فهتفت وهما يشربان الشاي لتغمره بالجواب المطلوب:

- أربعون يوماً على رحيل الصديقة والمعلمة، ووجودك معي يعني أن الاحتفال قد بدأ فعلاً.

وقالت هدى وهي تسوي فصّ القرآن الذهبي عند رقبتها:

- مدام كوليت كانت تحبني وأحبها، ولا تنسى أنّها كانت تحبك. لم يكن لها غيرنا من أصدقاء حقيقيين!

وامتلأت روح مراد بفرح غامر، فالإشارة إلى التقارب بينه وبين هدى كانت واضحة. ووجدها تهب واقفة وهي تتجه إلى البيانو لتكشف غطاءه فتجلس أمامه استعداداً للعزف. قالت قبل أن تبدأ:

- تحية لها أقدم هذه المقطوعة. سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن كانت آخر دروس العزيزة كوليت.

كانت عيناه تخترقان ظهر القوام النحيل وهو يتمايل كالموج البطيء، مع بداية اللحن الجنيني الذي أعلنت عنه هدى. وبدت ضربات الموسيقا الأولى وكأنّها ترحب بذوبان الثلج بين شريكين يفرق بينهما الوضع الاجتماعي ويقربهما الالتفاف حول ذكرى الراحلة. وتصاعد اللحن فخيل لمراد أنه يسمع الموسيقا عبر جسد الصبية، فاختلطت مع الضوء المتدفق من النافذة نشوة هدى المتماوجة مع السوناتا، وما لبثت صور متعاقبة لزهرة، وهي تتمايل في أرض الحوش كشجرة تفاح تحمل الثمر للمرة الأولى فتهتز نشوى عند أول هواء جبلي عليل، أن وجدت لها مكاناً في فيض الضوء المرتمي على هدى، فأصبحت الصورة أمام مراد كمسرح يلتهب على خشبته صراع الأضداد ووفاق الأصدقاء.

وتصاعدت عذوبة بيتهوفن في فضاء أحلام مراد، فشدّ قامته في جلسته الصفية بكل جوارحه، وغرق في تكوين هدى يعاين أنوثتها وكأنّها تشق الثوب الأسود تتحرر منه لتملأ المسافة بينهما فيتواصل مع الحرارة المشعة منها وهي تواكب اللحن. وإذا ما انقضى زمن النشوة نقم مراد على توقف السوناتا وهي تدق جرس نهايتها، ويسود سكون فيستجيب ضوء السماء ليميل إلى عتمة قادمة بتدرج، وكأن توقف هدى كان بداية لتشييع المتعة. هدى لا تتحرك، يتملكها الانفعال فتظل كما هي، جذعها منتصب وأصابعها على المفاتيح جامدة، فكانت كتمثال نُحت في لحظة محسوبة، فلم يجد مراد فعلاً يقوم به أو كلاماً يرمي به في بحر الصمت، فلبث بانتظار شيء ما يحدث. واستدارت هدى إليه فجأة وهي تقول:

- الآن دورك. في احتفالنا بذكرى مدام كوليت. كلمتك يا سيد مراد.

وهتفت مصححة:

- كلمتك يا مراد.

فأسقط في يده في اللحظة التي أسعدته هدى برفع الكلفة. وكان الخوف يتملكه من طلب كهذا وهو الذي لم يمر في تجربة مماثلة من قبل. عاودت الطلب واتخذت موقع المصغية باهتمام وعيناها تبرقان بإلحاح يزيد من تردده. قالت هدى بإصرار حميم:

- كلمتك ضرورة لا بد منها يا مراد.

فتأثر بدعوتها التي تفوق حرارة الأصدقاء، وانطلق قائلاً يسقط بين جملة وأخرى في حفرة التعثر:

- لا بد أنّ رقة القمر.. التي جاءت على يديك.. تشبه كثيراً العزيزة الأم كوليت.. سيدتنا كوليت.

ثم تماسك وهو يتابع:

- لنعترف بأن عزفك الجميل، لمقطوعة قدمتها لك مدام كوليت، فيه وفاء يدل عليك.

ثم وجد نفسه قد ابتدأ بالسيطرة على كلماته:

- أدين لها بفضل لن أنساه ما حييت. يجب أن اتذكر دوماً أنّها هي التي أشعلت القنديل أمام طريقي. كنت ضائعاً، وكنت تائهاً. فقدمتني إليكم، وعرفتك ياسيدتي.

هتفت هدى معترضة:

- تستطيع أن تناديني باسمي، كما فعلت أنا.

فقال بخجل:

- لك ما تريدين يا سيدتي.

فعلقت بصوت فيه الكثير من الحنان:

- ألسنا نشترك بمحبة واحدة؟

وأضافت معاتبة:

- اسمي هدى.. ألا يعجبك أن أكون هدى؟

فقاوم خجله وهتف:

- لا يمكن إلا أن تكوني هدى. وسأظل مديناً لمدام كوليت أنّها منحتني فرصة العمر في معرفة إنسانة مثلك أيتها الآنسة هدى.

فظهر غضب معاتب على وجهها وهي تقول:

- ما هي حكاية الحواجز التي تقيمها يا مراد؟

فأطرق وكأنه يخاطب السجادة:

- اغفري لي فأنا ما زلت مأخوذاً بالموسيقا.

عادت هدى إلى مقعدها المجاور له، وكأن الفصل الأول من الاحتفال قد انتهى. كان يعطيها سمعه وهي تقول:

- والآن.. أريد أن أعرف شيئاً عن هواياتك!

ففاجأته من جديد بدفعه إلى الزاوية وهي تحاصر عجزه، فبحث عن مخرج ليقول:

- العمل. هوايتي العمل.

فهزت برأسها كمن يسلم بالجواب، لكنها تساءلت:

- وماذا بعد العمل؟

استجمع أفكاره المشتتة وقال:

- قضيت السنوات الأولى في باريس باحثاً عن نفسي..

فقاطعته معلقة بتأييد واضح:

- هواية جميلة، أهي جديدة؟ قلّة من الناس من يبحث عن نفسه!

ثم ما لبثت أن اقتربت بجذعها من مقعده وتساءلت:

- هل وجدتها؟ هل وجدت نفسك؟

أجابها وهو يتحاشى النظر إلى عينيها المتفحصتين:

- يبدو أن الحظ قد قدمني إلى بعض الناس، فساعدني بشكل لم أتوقعه. وكان لقائي بهم اختصاراً لزمن الضياع.

ابتسمت هدى وهي تهب واقفة بحيوية، وأمسكت به من ذراعه لتقوده إلى الانتقال إلى مكان آخر.

كان مراد يمشي من خلف هدى دون إرادة، ليجد نفسه وراء باب خشبي كبير فتحته لهما خادم جديدة، وقد امتدت مائدة الطعام الكبرى كحديقة مزهرة في القاعة التي لا تقل فخامة عن الصالة التي شتتت أبصاره. كانت المائدة تحفل بأنواع الفاكهة والحلوى لتبدو كلوحة فنية متقنة. ودعته هدى ليأخذ رأس الطاولة لتحتل الآخر المقابل وهي تقول ببهجة لم تفقد المناسبة هيبتها:

- بالرغم من البعد الذي يفصلنا عن بعضنا بعضاً، فإن الذي يقربنا هو إحياء ذكرى السيدة العظيمة.

وقالت وهي تشير إلى الخادم أن يبدأ:

- هذه المائدة الرمزية تحية لمدام كوليت واحتفالاً بمشاركتك في إحياء ذكراها.

وما لبثت أن رفعت كأس التمر هندي، ففعل مثلها مصغياً إليها:

- نخب المرأة التي جمعتنا على حبها.

ثم أضافت قائلة:

- الوالدان مسافران إلى «كازابلانكا»، وكنت أتمنى أن يشاركانا في هذه المناسبة.

وتوقفا عن الجرعة الأولى. وابتسمت هدى وهي تقول:

- كانت المدام تحب هذا الشراب الذي اكتشفته منذ الدرس الأول. ألنت عليه، لذا سنشرب نخب حبها للشرق الساحر كما كانت تردد دوماً.

فرفع مراد كأسه من جديد مستجمعاً كلماته:

- نخب السيدة التي تجاوز فضلها حدود الموسيقا ليصل إلى خلق مناسبة اللقاء هذا. لن ننساها.

فشاركته هدى النخب واقفة باحترام تتطاير منه الأنوثة.

حدثته عن باريس التي ولدت فيها، فلم تعرف عن الوطن الأم إلا القليل وهي مازالت تتوق إلى معرفته أكثر. باريس قارة من السحر ولكنني أحب القرية في لبنان أيضاً. تساءلت هدى:

- هل بلادكم جميلة أيضاً؟

فصمت مراد وكأنه يبحث عن وصف دقيق فلم يجد شيئاً سوى ما يقول:

- الذكريات جعلت من حلب مدينة جميلة.

فهتفت هدى فجأة:

- لا بد أنّها مدينة جميلة. أراهن أنّها مدينة هامة فالمجلات ذكرتها أكثر من مرة.

وقالت وكأنّها تستجيب لنزوة عصفت بها:

- كنت أتمنى أن يكون احتفالنا بمدام كوليت في مطعم ريفي يطل على (السين).

ولكنها قالت كمن يراجع نفسه:

- ذكرياتها مازالت عالقة بذرات الهواء في هذا البيت.

ومع اقتراب النهار من نهاية مشواره، قادته إلى الحديقة الخلفية وكأنّها تريده أن يطلع على سر عائلي. وقفا أمام شجيرة انتصبت على تلة اصطناعية من تراب مرصع بحصى ملونة، فتتفرد من دون الأشجار والعرائش والأحواض بمقام مميز. قالت هدى وهي تقترب من الشجيرة:

- هذا ما يحيرني وقد حير والدي أيضاً، فشجرة الأرز هذه تزرع من جديد وللمرة الرابعة، ولا تنمو كما يجب. وبالرغم من عناية البستاني الذي كان يخصها بها، فأنّها لم تستمر في الحياة. وها نحن ننتظر هذه أن تتأقلم. اليس الأمر محيراً يا مراد!

قال وهو يدور حول الشجيرة وكأنه يحاول أن يكون خبيراً:

- الإنسان على ما يبدو أكثر قدرة على التأقلم.

فتساءلت هدى ببراءة:

- أهي ملاحظة حقيقية يا مراد؟

فلبث صامتاً يفكر في جدية ما قاله. أنقذت حيرته وهي تشير بيدها إلى أرجاء الحديقة التي بدا فيها التنظيم وكأنّها مشروع هندسي متكامل. قالت هدى:

- استجابت الأزهار والأشجار لعناية البستاني، وتمردت شجيرة الأرز هذه.

وعلق مراد قائلاً:

- كنت أتمنى أن يتحقق حلم السيد الوالد في أرزته.

عندما ابتدأت العتمة المبكرة تنزّ كهلام أغبر يتساقط من السماء، عادت هدى بضيفها إلى الداخل صامتين، وكانت تتمتم بكلمات غير مفهومة فلم يجرؤ على الاستفسار منها، فإذا هي تقول وكأنّها تعيد الوضوح إلى همهماتها:

- كئيبة هي الحياة دون تحقيق أحلامنا.

فقال لنفسه:

- إذا كانت هي الشاكية فيجب أن أكون الباكي!

وقالت هدى وهو يستأذنها في الانصراف:

- أتطلع باهتمام إلى تحقيق أحلامك، فأنت جدير بالنجاح.

فاتسمت روحه في فضاء من سعادة لا يمكن له تقديرها، واعتبر كلماتها أثمن ما تلقاه في غربته، وأنّها ستساعده دون ريب على رؤية الاستقرار الذي كان يتطلع إليه.

لم يحس بضآلته وهو يقود السيارة العتيقة التي ساعدته في استجابتها له على الامتلاء فخراً. كان يتمنى أن تكون هناك مناسبات أخرى تجمعه بهدى. فتوجه مسرعاً إلى المعهد الليلي الذي يتلقى فيه دروساً مختلفة في إدارة الأعمال، وقد توالد في داخله إحساس بالنصر في معركته. وعندما مر بقوس النصر الهائل خيل إليه أنه يدور حول قلعة حلب وهي تفتح ذراعيها له.

8 في بداية الفترة الأخيرة من دراسته، قال أستاذ رضا الدسوقي وشيخه الذي اصطفاه من دون طلاب العلم الآخرين:

- اسمك يدل على أصولك المصرية. وأجدادك يا رضا لا بد أنهم خرجوا من (دسوق) إلى بلاد الشام.

واعقب وهو يدعوه إلى الشاي في زاوية الأزهرية:

- هل تعتقد أنهم كانوا يحاربون مع إبراهيم باشا؟ لا بد أن أجدادك ساندوه في غزواته!

فلبث رضا صامتاً لا يملك غير الإنصات والتصديق الذي تمناه أن يكون هو الحقيقة تقرباً إلى الشيخ الذي غمره بعطفه، ومنحه شرف الجلوس بين يديه وحده فسقاه الشاي المبارك. كانت سعادته كبيرة وحكاية تروى لصغار المشايخ أمثاله، فالتقرب إلى شيخ جليل بركة لا ينالها إلا من كان مرضياً. وكان يحب فيه معرفته الواسعة في أمور الفقه، وتسحره الطيبة التي تشع من عينيه فيظهر له أحياناً كولي من أولياء الله. سأله الشيخ:

- كيف حال معيشتك في قاهرة المعزّ يا ولدي؟

وإذا ما عرف الشيخ أنه يعيش في غرفة واحدة مع ثلاثة من طلاب العلم، وأن الشمس لا تدخلها إلا بصعوبة في مدينة هي للشمس والنور أصلاً، هتف متعجباً:

- وكيف تعيش بعيداً عن الشمس التي تمنح السمرة للجسد وتساعد العقل على التشبع بالإيمان؟

فاستكان رضا للتساؤل دون أن يرد بكلمة، فانتفض الشيخ غاضباً برفق وصاح:

- لا يليق بعلمك أيها الشامي المبشر بالخير أن يكون لك سكن مثل ذاك المزدحم المظلم!

فأطرق رضا برأسه وتمتم بضعف:

- للعلم ضريبة يا مولانا!

في اليوم التالي انتقل رضا إلى بيت الشيخ حيث خصصت له غرفة مستقلة في حوش الدار التي تشرف عليها من الطابق الأعلى غرف ومشربيات يقيم فيها الشيخ وأهل بيته. وكانت الغرفة قد أعدت لكبار الضيوف من العلماء الذين يترددون على الأزهر من حين لآخر قادمين إليه من أطراف الدنيا. واحس رضا الدسوقي بأهمية ما أصبح عليه وبالشرف الذي مُنح، فخرّ راكعاً لله شكراً وامتناناً، وشعر بأن قاهرة جديدة قد فتحت له ذراعيها، وتبين له أنه بات في رعاية سادن حقيقي في معبد العلم لوجه الله، وأن احتواءه له في منزله نعمة لا تقدر بثمن، وتفضيله على من مثله حدثٌ دخل تاريخه. ووجد رضا نفسه في جناح يخصه استقلالاً لم ينعم بمثله من قبل. وكان في إقامته دين للشيخ لم يجد طريقة لتسديده سوى الجهد المضاعف في الدراسة.

كان يسمع الأقاويل عن المدينة التي لا تنام، إلا أنه لم يخرج عن دائرة القاهرة الفاطمية، فلم يعرف أي شيء عن الآثار الفرعونية أو مطارح الطرب ومسارح التمثيل، فكانت علاقته بأماكن كالحسين والغورية والقلعة هي التي تعني عنده القاهرة. عاهد رضا نفسه منذ البداية أن يكتسب زمنه من الأزهر الشريف، وحولته رعاية شيخه إلى جندي ملتزم بالعلم ولا شيء غيره. وكانت نهاية أيام الزحمة وتكدس الأنفاس في السكن المشترك القديم قد نقلته إلى طمأنينة منحته نكهة جديدة في المجلدات والكراريس التي جعل يلتهمها بروح أخرى. وعندما طُرق باب الغرفة عليه في يومه الثاني امتدت نحوه ذراعان تقدمان له طبقاً من القش الملون امتلأ بصحون الطعام، فلمح مع انفراج الباب ابتسامة الخادم النوبية وكأنّها تقدم له الاحترام في العينين المؤهلتين، فعلم أنه بات مقبولاً من أهل البيت، وأن تلك الضيافة تنبئ عن كرم العائلة، فتخيل السعادة وهي تشاركه فضاء الغرفة التي كانت قد اكتملت بسرير نحاسي لم يحلم بمثله وبمكتب خشبي يفتح أمامه مساحة لكتبه وأوراقه. وكان المطبخ الصغير الذي ألحق به حمام قد منح المكان شرعية سكن لم يجرؤ أن يفكر بمثله من قبل. كانت البساطة نقية في المكان

،ومه طمأنينة الاستقلال، فبدا له كل شيء وكأنه قد انتقل من جناح قصر الدار الدارسين إلى دار الشيخ الوادعة.

كان لمذاق الطعام متعة خاصة يتلذذ رضا بها وهو يتسلم طبق القش من حين لآخر، فكأنه يذكر عند أهل الدار في مناسبات الطعام الخاصة، وما أكثرها. وبالرغم من أن الفول الذي اعتاد أن يشتريه صباحاً من العربة المستوطنة عند أول (الحسين)، فإن طبق الفول الذي قدمته صبية يشع وجهها بحيوية صباح ربيعي أنساه كل طعم من قبله. وإذا ما عرف لاحقاً أن الصبية هي صغرى بنات الشيخ وأنّها جاءته بالفطور بنفسها، أدرك ذاهلاً مدى علو مقامه الذي حصل عليه في فترة قصيرة فشعر بالفخر وازداد تعلقاً بشيخه الذي آمن أنه لم يكن له المرشد في العلم بل في الحياة أيضاً، فكانت ابتهالاته بعد كل صلاة تقترن دوماً بالدعاء لمولاه الشيخ.

وابتدأ رضا، بعد عودته من دروس الأزهر، يلحظ أن الغرفة قد نظفت وأعدّ السرير وأزيل الغبار وكأنه يدخل شقته لأول مرة، فيملأ رئتيه برائحة البخور الجاوي. يجد إبريق الشاي الذي يستخدمه في ساعات السهر الطويلة قد جهز بماء نظيف وغطيت الكأس اللامعة بمنديل مطرز، وقد استوى على المكتب وعاء زجاجي أنيق تفوح من مائه رائحة زهر الليمون، فكأن المكان قد تحول إلى روضة حقيقية أعدتها أنامل رقيقة كي ينعم جسده بالراحة ويستعد عقله للتفتح. وتلمع عينا رضا بالدهشة الحذرة وهو يشاهد ذات مرة قرنفلة بيضاء تألقت في تفتحها وقد ارتمت على المخدة التي ضم طرفاها الساتان الوردي، فظهرت القرنفلة وكأنّها فاصلة بين جملتين متكاملتين في معنى الود الذي تتبادلانه مع الزهرة الفواحة. وخفق قلب رضا وقد أدرك بغريزته أن ما يراه ليس من فعل الخادم النوبية، ولا بد أنه من فعل الصبية الصغيرة (صفية) التي شعت عيناها الفحميتان ببريق علوي يوم امتدت ذراعاها بالطبق الذي حمل طعام الجنة إليه.

سحابة من فتنة غائمة أحاطت به، فجلس على طرف السرير بحرص على الفلة أن تهتز فتطير مختفية. ظل يراقبها وكأنّها محبوبته نائمة في بحيرة الأحلام. لم يكن له أي ذكرى حب لامرأة في حلب أو في أيام الأزهر

السابقة، فامتدت يمناه إلى الزهرة المضيئة وهو يردد اسم الله بخشوع، ليرفعها إلى وجهه يتشممها برفق ويعيدها بهدوء إلى مرقدها، فلا يلبث أن يسبح في سحابة الفتنة التي تملكته، وهو يسبّح باسم صفية. هتف بحرقة:

- أعنّي يا الله على الفتنة الغادرة!

وكان شيخه يتطلع إليه معاتباً، فأغمض خوف استمرار الملامة في عينيه.

وتسلل إلى سمعه صوت الراديو وهو يرفع آذان المغرب بعذوبة، فكأن الشيخ (محمد رفعت) يدعوه من عالمه الآخر ويخصه بجلال الكلمات، ثم اختلط صوته مع المؤذنين الأحياء المنتشرة مساجدهم في أطراف الحي القديم، فانتفض رضا وهو يضمّ القرنفلة من جديد إلى وجنتيه المبللتين بدموع هاربة، وهبّ واقفاً يستسلم لمتعة الحس بالجمال وهيبة النداء إلى الصلاة. ولاحقت عيناه ضياء الكلس الذي يكسو الحائط أمامه وقد تجلى فيه وجه صفية وكأنّها تنافس بسمرتها بياض الطلاء. وارتفع بصره إلى السقف فرأى الصبية تتمايل كخيط من نور في أرجاء صحن الجامع الأزهر، تنتقل من عامود إلى آخر كريشة، فيشد ميسانها النوراني أبصار الشيوخ الصغار والكبار وتلاحقها الأنفاس المتعثرة، وتنبض النظرات وكأنّها الغيرة المشتعلة من الحلبي الذي يجاور الصبية الحسناء. وينسدل عنه فجأة الرداء الذي ظهر وكأنه نسج من حرير، فرأى نفسه يلاحق صفية الطائرة كفراشة ليلفها به حماية من الصراخ الذي تعالى في الفضاء «الله.. الله». ورأى في صورة السقف ذراعيه المرتعشتين تضمان إلى صدره الفراشة ليعود بالأنوثة المحلقة إلى بلاط الحوش بينما الأنظار تلتصق بهما كعاريين سقط عنهما الحجاب، فجمعت بينهما قشرة رقيقة من الوجد الذي توحّد في الكيان الواحد.

وتوقف رضا عن الدوران في الغرفة ليتمتم:

- أستغفر الله العظيم.. من كل ذنب عظيم.

وقرأ من الآيات القصار ما يدخل الهدوء إلى زحمة الاضطراب في نفسه، فلم يفلح، وهرع إلى الحمام يلجأ إلى الماء يطفئ به لهيب رأسه فابتل حتى الرسغين، ووقف أمام فتحة يدخل منها الهواء فاستقبله بترحيب وقد

غلبت النسمات على حريق الجسد ليبدأ الإحساس بالطمأنينة. وعاد رضا إلى سريره لا يجرؤ على الاقتراب منه وهو يردد:

- أهو الحب.. أم أنّها الرغبة المحرمة؟

وقال بصوت خفيض يخاطب نفسه:

هل يستحق الشيخ مثل هذا الخيال الخائن؟

وتلاحقت أنفاسه من جديد بتتابع يلد الإرهاق، وفكّر:

أيجوز لي أن أطعن مرشدي وولي هذه النعمة في ظهره؟

ولم يقم إلى صلاة المغرب كعادته في الالتزام بالمواعيد المحددة، ولم تمتد يده إلى كتاب؛ رضا يحلم بصفية توأماً للروح تاركاً جسده في عذاب، ثم ينتهي إلى تساؤل وهو يفترش ألوان البساط الحادة:

- أيمكن للصبية أن تكون بداية النهاية لعلوم الإيمان!

ويتساءل بخوف:

- هل الخيالات التي امتطت ضعفه، فيها القضاء على العفة التي قضى شبابه في الحفاظ عليها؟

وكان يجاهد نفسه في التحصن من غواية المصريات السمراوات في مشيتهن المتهادية وهن يشعلن الغواية في عيون المبصرين، فتمتلئ حواسه بفتنة الأجساد الرجراجة، فلا يلبث عند أي لحظة ضعف أن يمضي بعيداً وهو يغضّ الطرف هارباً إلى سجادة الصلاة أو زاوية في المسجد يتبتل قراءة أو سجوداً، إلا أنه مع زهرة الفل يقع في المحظور.. رضا لا يمتلك القدرة على إبعاد صفية عن مخيلته.

وامتلأ سريره ببراعم الفل، وكأن الزهرة الأم تتكاثر بحرارة الشهوة المتفتحة. وتتفتح البراعم ككلمات سر تفصح عن مكنونها، وتتصاعد الروائح في أنفه فيسكره الأريج، فيخلع عنه ثوب الصبر ويرد إلى جسده القفطان والعمامة، وينفلت خارجاً كهائم على نفسه يمشي في الأزقة، ليحط به المطاف في مقهى (الفيشاوي) يسبح في دخان النراجيل، وهو الذي كان يخشى ارتياده من قبل. انزوى في ركن بعيد تحاصره الخشية من العودة إلى الدار خوف عودة الأحلام المحرمة إليه.

وفي الأيام المتعاقبة لم يستطع أن يبعد صفية عن تفكيره، وزهرة الفل تتجدد بانتظام. وكان إذا ما توجه إلى غرفته عبر صحن الدار، يأخذ نفساً عميقاً يجتذب به إلى صدره رائحة عطرها التي لا بد أنّها تنشره عادة في مرورها، والذي لا بد أنه كان خلاصة الفل في حاضرة القاهرة، بحدائقها وأهراماتها التي قيل إن (أبو الهول) يقودها، كما تفعل قلعة حلب منادية على أحجار البيوت من حولها تصفق لها كراقصة قدمت من عمق التاريخ فلا تفقدها فتنتها شموخها الآسر، فهل تحولت صفية عند رضا إلى تلك الراقصة؟

وتداخلت صفية مع سطور الكتب التي يقضي معظم الليل في دراستها، فكانت تظهر في واو العطف في صفحة للإمام الشافعي، وتتجلى في حرف نفي من كتاب عن أحكام الميراث، وتبدو كواحة في وصف من تاريخ ابن الأثير، وتعطي ليونة لواحدة من فتاوى الإمام ابن حنبل، وكثيراً ما تظهر كجلد ناعم يحفظ أوراقاً يقلبها. وكانت ليلة الفل الأولى، وقد عاد من جولته الهاربة متعباً فأغمض وراسه تجاور كرة الفل البيضاء. وفي الصباح احتفظ بها في كتاب لأشعار ابن الفارض، ففوجئ ببديل لها في المساء، وكأن الإشارة التي وجد لها معنى في قلبه لا تكف عن تكرار نفسها. وبعد ذلك استمرّت الأزهار فتكاثر الفل المصبر بين الأشعار، فلم يلهه التكاثر عن استجابة روحه لتفسيره لصالح أحلامه. ولم تكن لرضا من وسيلة على الصبر سوى الدعاء في صلاة الفجر يرفع فيها ذراعيه إلى السماء أن يهديه الله إلى فعل عاقل يكشف به الستر عن حبه المتفجر ويحفظ لشيخه كرامته كي لا يظن في مريده أي سوء.

واشتعلت مصر بأخبار العدوان عليها، فتأميم قناة السويس ولد حرباً حقيقية، وحبلت السماء الصافية بالغضب، واضطربت الحياة في الأزهر بالرغم من وقاره، وساد الشوارع هياج عارم، ونبتت أغاني المقاومة كالحشائش البرية تطغى على ما غيرها. وغزلت سيرة العدوان على أسياخ الألحان الجميلة والنداءات الملتهبة. لم تتوقف الإذاعة عن الدعوة إلى الجهاد، فتنادت جموع من أهل الأزهر إلى الاستجابة بكل ما

يملكون، فالعدو يقصف بور سعيد ومصر المحروسة تواجه عدوان ثلاث دول.

كان ذبول الفلة ذاك اليوم الشتائي مبكراً، فأطرق رضا مفكراً.

«أيماين قلقه ويندب عجزه في اتخاذ موقف واضح من حب غمر قلبه ووجدانه؟».

«أم يفكر في المؤامرة على شعب طيب يحسّ أنه بات واحداً من أهله؟».

وارتجت مشاعره يتقاذفها قطبان، صفية من طرف، والأرض العربية من طرف، بعد أن كان الامتداد الإسلامي في فسحة الكون الكبيرة يستأثر بمشاعره كلها دون اهتمام بأي شيء غيره. وهجم كيان إسرائيل على تفكيره، فشعر بخطورة التعصب الذي بني عليه ذلك الكيان، وأحسّ بأهمية الحب في بنية أفكار مرحلته الجديدة، فاستنكر اليهود المعتدين في تعصبهم. جعل يردد في سره:

- الحمد لله رب العالمين.. الله هو رب العالمين.

وخرجت من مخزون الذاكرة القديم شخصية (سليمان الحلبي) ذلك الطالب الأزهري وهو يطعن (كليبر) بخنجره، فتمنى لو أنه يطعن المسؤول عن هذا الهجوم البربري على مصر، فقد يعيد إلى مدينة حلب مأثرتها في عقاب المعتدين، ولكنه لم يستطع أن يحدد شخص من يقدم بالاعتداء على مصر بلد صفية. ودبت في أوصاله شجاعة الوقوف في وجه العدوان الثلاثي، فهتف بحرارة في صومعة الحب المؤجل:

- متى تكون لي الشجاعة في البوح بما يخبئه هذا القلب من حب لصفية؟

وجلس رضا بين يدي أستاذه صامتاً، فقال الشيخ:

- صمتك يا ولدي يخفي أمراً تريدني أن أسمعه منك!

فتفجر صوت رضا قائلاً:

- أريد يا مولانا أن أكون في عداد المقاتلين.

وأضاف بلهفة:

- ان أكون من الذين يحاربون العدو، فمصر باتت بلدي.

فرد الشيخ وهو يربت كتفه بحنان:

- أنت تحارب العدو حقاً يا ولدي. أليس العلم معركة!

ومسح على وجه رضا الذي بللته الدموع بكفه وقال:

- لم تتوقف يوماً عن مقاومة الشر يا ولدي، ألا ترى إلى تاريخ الأزهر؟

وتابع بصوت يزداد عمقاً:

- لقد منَّ الله عليك بالعلم، فتابع الطريق يا رضا، فهو جهاد أيضاً في سبيل الله!

فلم ينبس رضا بكلمة، وتكوم داخل نفسه يقلب الأمر على أكثر من وجه، ومضى في الطرقات المزدحمة يشق مساراً لا يعرف له نهاية -«والله زمان يا سلاحي»-، «دع سمائي».. وأغنيات كثيرة تتجمع في دهاليز أعماقه، فإذا بصوت (عبد الناصر) يصبح عصا سحرية تقود تردده إلى قرار حاسم، فاستقرّ رأي رضا على الالتحاق بكتيبة في المقاومة الشعبية التي انتشرت في كل مكان.

وستلمحه صفية بلباسه العسكري والسلاح بيده، يتسلل إلى غرفته هارباً من نور الظهيرة، فتهرع من شرفتها غير عابئة بشيء لتلحق به في غرفته التي تدخلها للمرة الأولى في حضوره فتناديه باسمه ليسقط في يده وهو يجدها قد أصبحت قريبة منه فيلبث واقفاً تملكته دهشة لم تحدث له ذات يوم. قالت بحزن يشوب الابتسامة الغامضة:

- لا أستطيع أن أقول شيئاً سوى إني فخورة بك.

فارتعش قلبه يحارُ في موقفه الذي قد يكون محرماً عليه ويشعر بفخر لدخولها عليه بتأييد يشد من عزمه. تمتم بخجل:

- أنبأني قلبي أنك تباركين قراري.

فهتفت بحرارة وهي تنفلت عائدة:

- حافظ على نفسك يا رضا.

هي تنطق باسمه من جديد وكأن فمها هو الذي اخترعه، فتخاذلت ركبتاه إلا أنه تماسك وهو يقول:

- «الله خيرٌ حافظاً».

فهتفت صفية قبل ان تمرق كالسهم في صحن الدار:

- الله معنا دوماً.

ولم يملك أمراً سوى ان يردد مستنداً إلى سريره:

- الله معك يا صفية.. الله معنا.

وجعلت زيارة صفية، الخاطفة كحلم مستحيل، منه مندفعاً في التدريب الذي خصصت له الساحة الكبرى لجامع الحسين. وكان قائد الكتيبة ينظر إليه منذ الأيام الأولى على أنه الأكثر حيوية واستجابة للأوامر والتعلم السريع وكأن رضا يستعجل لحظة اللقاء بالأعداء. وبات اسمه بين أفراد المجموعة مقروناً بسليمان الحلبي فيزداد انهماكاً في التدريب مهما كانت مشاقه. وكان في لحظات الاستراحة يردد لنفسه القرار الحاسم إذا ما شارك في النصر على الأعداء وعاد سالماً، أن يقول لصفية بملء صوته إنّ رسالة الفل وصلته وإنه يرجوها قبول حبه مدى الحياة. كان اللباس العسكري خلال أيام التدريب القليلة زاحفاً تحت الأسلاك الشائكة أو ماضياً في الرتل يمشي ساعات طويلة عبر شعاب جبل (المقطم)، قد انساه وقار الجبة والعمامة الشامية وهو يحافظ عليها بين العمائم المصرية، ووقر في ذهنه أن لباس الشهادة والجهاد هو الخاكي. وأعلن المسؤول عن المقاومة الشعبية في حي الحسين أن الكتيبة التي تشكلت من طلاب الأزهر ورجال الأحياء المجاورة، قد باتت مستعدة للتحرك إلى القناة، وهي تنتظر أوامر القيادة العليا، فهلل المتطوعون استبشاراً، وكان الخبر هذا من نصيب صفية أيضاً وهي تتلقاه في أول لقاء علني مع رضا عند أول الدرج المؤدي إلى سكن الشيخ، وإذا بها تحاول أن تخفي تجهمها الذي جمع عينيها في إغماضة تقود تقاسيم الوجه الطفولي إلى حزن عجزت عن تخطيه، وارتعشت شفتاها استجابة لبكاء تكاد دموعه أن تجرف سد تماسكها، إلا أن محاولة رضا في التحرك باتجاه سكنه وقد تناهت إلى سمعه حركة من أعلى الدار، دفعت بصفية إلى الإشراق من جديد فهتفت هامسة:

- سيفرح أهل مصر بك، وإن كان فراقك سيحزن بعضهم.

وارتدت إلى أعلى تختزل الدرجات الخشبية بسرعة غزالة هاربة وهي تحدث قرقعة بقبقابها، وسُمع لخطواته وقع أقدام متعبة.

كانت صفية قد تركت المدرسة مبكراً قبل أن تكمل تعليمها وتبتدئ أنوثتها بالتفتح، فمستقبل البنت في بيت زوجها كما يؤمن الشيخ والدها. وكان رضا أول شاب من بين الكهول والشيوخ تستضيفهم الدار على مر سنوات وعيها ومراقبتها لهم كهواية باتت لصيقة بها، فاستهوتها فيه حيوية الرجولة المرتوية لتكمل عفته الواضحة صورة الفارس الذي يلازم خيالها. وجعلت تترقب إشارة منه رداً على فلتها التي ترويها الأشواق المتزايدة يوماً فيوماً فيصبح الحب الذي سمعت به ولم تعرفه جارفاً يُخشى من أن يفضحها. انشغل وجودها بصورته تتمثل لها في صحوها ومنامها، شاردة أو أنّها لا تسمع نداء أمها لها إلا في تكراره المستمر، وتغمر بالقبلات وجنات أولاد أختها في زيارتها الدورية، فكانت تحتضنهم بقوة وكأنّها تضمّ إلى صدرها مستقبل حبها فيكون خوفها من أن يفلت منها سبباً في تململ الأولاد من عنفها. وها هي اليوم تبكي بدموع ساخنة تفكر في الخطر الذي قد يصيب رضا، وتندب حظها أنّها لم تحظ بكلمة أو وعد منه أن يعود سالماً إليها وحدها، واستوت جالسة في سريرها تصلي أعماقها من أجل أن تنتهي الحرب فجأة بالنصر فلا يضطر رضا إلى الالتحاق بالمعركة، وتوجهت إلى النافذة تخاطب السماء أن تستجيب لصلاتها، ولكنها انتفضت بعد قليل قائمة لتتوجه بحرص شديد إلى غرفته، فحمتها العتمة التي غمرت صحن الدار. هناك في الظلمة تحسست مخدته وتشممت رائحته المتداخلة مع أريج الفل الغائب، وملأت فضاء المكان بحركتها المشتتة تدور فيه، تقلب الكتب والأوراق وكأنّها تبحث عن آثار أصابعه فيها. تضم إلى صدرها كتاباً في الفقه وتقبّل آخر في التشريع، وكأنّها تقرب أنامله من جسدها المتعطش. ووقع بصرها على ديوان ابن الفارض الذي سمعت والدها مرة يتحدث عنه كواحد من أعلى درجات الحب الإلهي، ففوجئت به وهي تجتذبه إلى وجهها أنه يصدر خشخشة فإذا بأزهار الفل الذابلة واليابسة تتساقط من بين صفحاته

بدنانير جرة مكسورة، فجمدت أوصالها ونشف ريقها والتمعت عيناها، وهتفت بصوت جريح:

- إذاً فقد وصلت رسائلك يا صفية!

وقالت بغضب شفيف وهي تقلب الصفحات بحثاً عن الأزهار:

لم أخفيت عني سرك يا رضا؟

وكان رضا قد استجاب لحيرته المضطربة يفكر في قول صفية عند الدرج، فيقف عند كل كلمة فيه يبحث عن المعنى المختبئ وراءها، «فراقك سيحزن بعضهم». كان غوصه وراء أسرار المعاني يزيده ضياعاً. واتجه إلى مقهى شعبي قريب ليحتل كرسياً فيه، وكان صبيه الذي عرفه ماراً أمام المقهى قد دهش لجلوسه عندهم وهو الذي لم يفعل ذلك من قبل، وصاح من فرح:

- أهلاً بشيخنا المحارب.

وهرع إليه صاحب المقهى متدحرجاً وهو يحييه بحرارة:

- زارنا النبي.. الشاي للجميع على شرف الشيخ.

وأحدث رضا بلباسه العسكري ضجة بين الزبائن، فانهالت عليه كؤوس القرفة والحلبة والشاي، وتوافد عليه الرجال يشدّون على يده، فلم يكن ليفرق بين التحايا إن كانت لانتسابه إلى المقاومة الشعبية أم لحسن اختيار قلبه لابنة الشيخ، ثم غلبت عليه ابتسامة خاطفة وكأنه يسخر من نفسه لظنها أن عواطفه باتت مقروءة كصفحة مكشوفة. وازداد تأثراً بتكاثر عواطف الناس في سماء الحي، فتأكد له أن ارتباطه بمصر كان أمراً مقضياً. ولم تطل إقامته في المقهى فألقى التحية على جميع من فيه، فكان كإمام الفجر يفتتح مع المصلين يوماً جديداً فيصافح كل فرد منهم على حدة.

كان (شيخ المقاومة) أو (رضا الحلبي) تيمناً بسلفه سليمان الحلبي، من الألقاب التي انهالت عليه من رجال الأسواق وأهل الحي، فكان يتلقى أحياناً الهدايا منهم، ورقة بردي أو ثمرة مانجو أو كأساً من عصير القصب، فيتلقاها سعيداً، وتزداد نشوته بمديح لأهل الشام أو لرجال حلب ويمتلئ فخراً بانتسابه إلى سليمان الحلبي الذي مازالت الأجيال تذكره، وتتكامل في

مخيلته صورة التواصل بين أجزاء الجغرافيا العربية فيشعر بمتعة هذا الاكتشاف الجديد.

وتحدث المفاجأة، فكتيبتهم التي استكملت استعدادها لن تنتقل إلى ساحة المعركة، إذ يُعلن عن انكسار جيوش الغزو وإعلان النصر عليهم، فكأن رايات الانتصار تصبح وثيقة تعلن عن عودة رضا إلى صفية، وأن أغاني الحرب التي ملأت السماء والأرواح بالعزيمة تشارك الفرح الخفي الذي احتفظ كل من المحبين به بأمل التواصل. وتحولت أم كلثوم في أغنيتها المحاربة «والله زمان يا سلاحي» إلى صديقة تكتم الأسرار وهو يتخيلها تقول «والله زمان يا صفية»، فأدرك رضا منذ الساعات الأولى لوقف المعارك أن الغناء والأزهار والحب والجهاد وكتب العلم هي من مستلزمات الوجود كي يسبح برب الوجود. وكان يردد وهو يقف متأملاً تمدد النيل في جريانه الأبدي:

- آن أوان الاعتراف بالحب يا رضا!

حينما دخل غرفته للمرة الأخيرة بلباسه العسكري، ووجد الباب موارباً، هاجمه خيال تمنى لو أنه يحدث، ولكن زهرة الفل كانت الوحيدة في الغرفة وقد تفتحت كجوهرة مشعة تستلقي على المخدة بانتظار من يعانقها، فاقترب بخطوات تتحكم فيها قوتان، قدسية صاحبة الزهرة وأشواق جسد ملتهب. وتسمرت قدماه في موقعهما وهو يسمع صوتها يملأ الفضاء بضعفه الآسر:

- مبروك لك النصر يا رضا.. مبروك لنا.

كانت صفية تتقدم من المطبخ لتقف على مسافة منه، حسبها وادياً سحيقاً يفصله عنها، فتقدم خطوة ولكنه ما لبث أن تجمد كمئذنة بانتظار الأذان، وهتف مسحوراً:

- صفية!

فتقدمت خطوة وقد أمسكت بكأس يبدو أنّها انتهت لتوها من غسله، قالت:

- حمداً لله على عودتك إلينا سالماً.

فقال باستحياء:

- ولكنني لم أحارب.

فقالت ابتسامتها بدلال:

- ألم تكن النية صادقة!

كانت ثنيات جسدها تنضح بخدر العطر، فأطرق رضا وقد اتخذ قراراً بالمجازفة ليقول مضطرباً:

- ترى هل يقبل شيخي وأستاذي، والدك، بي؟ تلميذ مثلي زوجاً لابنته!

فلمع الفحم في عينيها، وغلبت أنوثتها على رائحة الفل المتسللة إلى جسده، وانسرقت كشهاب من قربه نحو الخارج، وكانت تقول:

- ترى هل تعارض ابنته؟

فأقعده الدلال الذي خلفته صفية وراءها، فلم يأت في جلوسه بحركة. اختتمت شبكة العنكبوت خيمة الحب.

9 استيقظت باريس، ولكن الأعمال في كل مكان توقفت ساعات لتعاود دورانها المعتاد، وكان خبر العدوان الثلاثي على مصر قد انتشر في مكاتب الشركة، فتحول ذهول الدقائق الأولى إلى حوارات شارك فيها العاملون ولبث مراد في صمت. كان ثمّة من يقول إن مصر سلبت فرنسا حقها في القناة، ومن يقول إن عبد الناصر لا يملك الحق في السيطرة على مياه دولية وإنه لا يملك رجالاً يتقنون فن الإدارة، وكان هناك من يتعاطف مع شعوب الشرق الأوسط في امتلاك استقلالها. وأبدت فئة كبيرة تخوفها من أي حرب تقوم في منطقة من العالم، فذكريات الحرب العالمية الثانية مازالت كالجراح غير الملتئمة في أرواح الناجين منها.

وعادت الحياة إلى هواتف الشركة وآلاتها الطابعة، وتحولت النقاشات من جديد إلى العمل، بينما توجست الأعمال مع الشرق الأوسط شراً تنتظر نهاية الفوضى التي خلفتها العمليات الحربية المتواصلة. وكان مراد قد أصيب بإحباط لعجزه عن اتخاذ موقف من كل ما يتمخض عنه ذلك العدوان الثلاثي، فاختبأت مشاعره الوطنية خلف تعلقه بالعمل الذي أثبت تقدماً فيه، فلم يشارك بأي حوار حول الحرب ولم يبد تعاطفاً مع مصر كما لم يهاجم أطراف العدوان. وبالرغم من مقالات متفرقة في الجرائد الفرنسية وقفت ضد ما يجري ونددت بأسلوب السلاح في حل النزاع، كان يقول لنفسه:

– هم من عظام الرقبة، أما أنا فمازلت غريباً قد أتعرض للمضايقة أو الطرد!

ويشارك أحلامه قائلاً:

– لن يكون هناك أي احتمال في عودتي إلى حلب قبل أن أحقق شيئاً كبيراً له قيمة!

وبات الحرص قانونه، فاخترع حقلاً من الألغام يتعلم السير فيه، هذا خطر وذاك قد يثير الريبة وتلك مسألة ليست من اختصاصه. وكانت سكرتيرة من موظفي المكتب، من أهل الشمال تزداد أناقة وفتنة، قد دأبت على التقرب منه. نَمَّش وجهها أخذ من شعرها الأشقر إثارة تستفزه فيكبح جاذبيتها بمغالاة في التعامل الجديّ معها، ولم يستسلم للتودد الساخن الذي يكاد يقع في فخه أحياناً فيتذكر احتمال اتهامه بخلط الأوراق بين العمل والنزوة فيتمسك بالحرص. وبالرغم من علاقات نسائية محدودة خارج العمل، فإن المرأة مازالت تشكل عائقاً أمام أحلام مراد التي تعلقت بالنجاح دون غيره. وكان حرصه على الادخار والتوفير في أي مصروف ينبع من خوفه أن يعود إلى أيام باريس الأولى، يعرف للجوع معنى. كانت أفكاره تتجه دوماً إلى مفاجأة بطلتها امرأة تعينه على استكمال ضربة الحظ الأولى التي وفرتها له مدام كوليت.

وكانت حبات المطر تضرب زجاج النافذة في مكتبه، وقد اكفهر صباح ماطر في شتاء باريس المتقلب فاستيقظ الحنين إلى شمس حلب فتوالت صور السماء الصافية التي أوقفها رنين الهاتف الذي اعتبره المباغتة الحقيقية لمسيرة الأيام المتناوبة بين العمل في المكتب والسفر والالتحاق بالمعاهد الليلية. كان صوت هدى يحيل السماعة إلى فسحة من نعومة المتعة المتراقصة في سمعه:

- مراد.. كيف حالك؟

وجاءت الكلمات لتذيب ترقبه القلق بعد اللقاء الأخير في منزلها وهما يحّييان ذكرى الراحلة كوليت.

- مراد.. هل تسمعني؟

فاتسعت سماعة الهاتف لتلتهم أذنه المتوقدة. هتف بفرح مستتر:

- أهلاً هدى.. اسمعك دوماً.

ما الذي يحدث حقاً! وهل يستحق مثل هذا العطف الإلهي؟ تمتم لنفسه أنه رضا الوالدين عليه، وتساءل إن كان الحظ السماوي لا يأتي إلا بغتة كاتصال هدى به. كان نداؤها «مراد» الذي اجتاح الروح وزلزل الكيان كمخدر امسك بلسانه مقيداً، فأنقذته باستكمال حديثها:

- كيف تجري الأمور وقد قامت الحرب؟
انذاك وجد نفسه يقول:
- شكراً لله على سماعي صوتك يا سيدتي.
فهتفت بدلال:
- من هي سيدتي هذه! هل تحادث عادة فتاة غير هدى؟
فلم يستطع ملاحقتها بردّ مناسب، فإذا هي تقول من جديد بخبث
احبه:
- هل كنت تتوقع أحداً اسمه سيدتي؟
فتحشرج صوته وهو يتمتم:
- لم أتوقع ما حدث.
فقالت بمرح يثير الشوق:
- لم تكن تتوقع الحرب؟ ومن كان يتصور!
واضافت بجدية:
- زرت مرة الأقصر واسوان، أرجو الا تصل حرب مصر إلى الآثار
العظيمة.
قال بجرأة مقيدة:
- يبدو أن الحرب قد جمعتنا من جديد.
فقالت بسخرية معاتبة:
- ولكن الحرب بعيدة عنا، فكيف يجمعنا ما هو بعيد؟
فلم يملك سوى أن يقول:
- يبدو أن للحرب فضلاً في سماعي صوتك. سأذكر هذا دوماً.
- هل ستذكر الحرب فقط؟
فسارع بالقول وكأنه يرد تهمة عن نفسه:
- بل سأذكر مكالمتك هذه دوماً.
وساد صمت قصير أحياه من جديد وهو يقول متسائلاً عن وجودها
على الطرف الآخر:
- هدى!

فاستجابت لندائه بغنج دفع بوجهه إلى الاحمرار، وهي تقول:

– هل تفضل الحديث عبر الأسلاك، أم أنك تفضله وجهاً لوجه؟

ولم تترك له فرصة في إجابة، قالت مقررة:

– المونمارتر. هل يناسبك اللقاء في المونمارتر؟

– ومن يجرؤ على الاعتراض. ولكن متى؟

قالت وكأنّها تملي رسالة:

– السبت هو الغد. في مقهى الرسامين، لا بد أنك تعرفه. الثالثة ظهراً.

هتف مراد دون وعي منه:

– كل الساعات مناسبة.. كل الأيام.. كل الأماكن.

فهتفت تنهي الحديث فجأة مودعة:

– مراد. سلام!

سلاماً لك، وعليك، ومنك. وتمددت الأحلام في عروقه وكأنه دنّ من النبيذ الفرنسي المعتق يخالطه دمه، وصاح وهو يردّ السماعة إلى مكانها:

– يا إلهي.. كن معي!

فهرعت إليه موظفتان إحداهما السكرتيرة ذات الأناقة المتجددة، فوجدتاه ينوس على كرسيه الدوار بوجهٍ يتهلل بِشْراً لتتوقفا حائرتين، قالت الوقورة:

– هل هناك خطب يا سيد مراد؟

فرد ومازال يدور على محوره:

– وهل في السلام خطب ما؟

فتبادلت المرأتان النظرات المتسائلة لتتراجعا بعد ذلك يتملكهما العجب من وضعه الغريب الذي لم يشاهد في مثله من قبل:

أهي المكالمة/ الجوهرة التي تتوج المرحلة الباريسية؟ أم أنّها المقدمة لاكتمال العقد الثمين الذي يَعِد به؟

أفكار تدلل عقله، وقد وقف محشوراً بين الأجساد وجدار النفق المظلم يركض أمام عينيه المتيقظتين. وكان المترو يمر بالمحطات التي يتناقص

...ها في اتجاهه إلى الهدف. المونمارتر هدف ثمين. وبدا له ظلام النفق عنق زجاجة طويل سرعان ما سيخرجه إلى الفضاء الفسيح فيطير متحرراً من امام الإحباط والعواطف المقهورة والأحلام الحائرة. باريس الآن، بل اوروبا نفسها تتحول إلى مساحة هائلة لملعب يركض فيه اللاعب بكرته نحو الهدف البعيد إلا انه حقيقي وأكيد. اللعبة باتت هي الحياة التي فتحت ذراعيها له. وتساءل وهو في طريقه إلى هدى:

– أكان احتضان رجل الأعمال الكبير له، ومن بعده أسرته التي تشكل الصبية هدى تاجها، هو المرج الأخضر الذي يفسح له اللعب بمتعة وتصميم؟

كانت المونمارتر تلة من الكبرياء تتعالى على ما حولها. كنيستها ببياض كالطهر، والفرسان المشردون يحملون ريش الرسم كالرماح تخترق اقمشة اللوحات المتناثرة كمهرجان، والشباب من الجنسين يعلنون عن حبهم للحياة واللحظة التي يتآلفون معها فيتحولون بحيواتهم إلى عشب يكلل التلة المتشامخة. وكان مراد يلهث من عشرات الدرجات التي قطعها فوقف باحثاً. لمح هدى تجلس في المقهى وقد حوّلها الزجاج الوردي إلى قديسة هالتُها قبعة مستديرة احتضنت شعرها الذي لم ينسَ سواده الساحر، فأسرع وهو يتفقد ساعته التي تجاوز عقرباها الموعد بدقائق، وحين دخل المقهى كانت أبصارها متوقدة وكأنّها تستعد للعتاب، إلا أن ابتسامتها سبقت ذراعيها وقد امتدتا بالترحيب. وجمع وقفتهما لقاء حار أعطى للصمت معنى. وتحولت الطاولة المستديرة على صغرها إلى مساحة يحددها قطبان جلس كل منهما في بؤرته، واستمرّ التواصل صمتاً مشتعلاً. كانت العيون تتلاقى ثم ما تلبث أن تتحول إلى الشرفة التي ملأها فنانون تدثرت اجسامهم بمعاطف قديمة وغريبة. قالت هدى:

– عرفت المكان بسرعة! لا بد أنك تعرف المدينة الآن بشكل جيد.

فابتسم قائلاً:

– وهل يغيب عني مكان تدلّ عليه هدى؟

– أعجبك.. أليس كذلك؟

فاستمرّت شجاعته بالقول:

- وأتمنى أن أكون فيه دوماً.

هتفت وهي تداعب ميدالية ذهبية تدلّت من عنقها:

- طالما تمنيت ألا أكون وحيدة هنا.

وأضافت بتذكر لا يغيب عنه التحسر:

- أتردد على هذا المقهى بين حين وآخر، أراقب الفنانين يعرضون لوحاتهم أو يقومون برسم الأشخاص وكأنهم سحرة حقيقيون.

وتساءلت كمن يبحث عن سند له:

- وتحب الرسم أيضاً! لا بد أنك تحب جميع الفنون؟ أراهن على ذلك.

فقال باندفاع:

- يبدو أني بدأت بحبها منذ عرفتك.

وضحكت بطفولة، لتعود بعد لحظات إلى جديتها التي تسبق عمرها الذي يقترب من العشرين، وهتفت وهي تعيد فنجان القهوة فارغاً:

- توقف رذاذ المطر.

فقال مراد وهو يحاول أن يخترق أفكارها:

- لم يستطع المطر أن يغسل كآبة الأبنية، ولكنه يحاول أن يزيدها لمعاناً.

فهبت واقفة وهي تمسك بذراعه تشدها للقيام:

- هيا نشاهد باريس اللامعة.

فاستجاب مطيعاً. وفي الشرفة الممتدة أمام الكنيسة الشامخة كانت باريس الممتدة أمام باصريهما تتلألأ بانوار مبكرة. وبالرغم من البرودة فقد أحسّ باشتعال المدينة المستلقية بحرارة الهبت جسده وخياله، وجعلت هدى تفتح ذراعيها للنسمات المتدفقة كشلال من الحيوية لتهتف كطالبة اتقنت درس اللغة العربية:

- ما أحبها من مدينة إلى قلبي!

فانتبه إلى لفتها جمع من السياح والشباب المتآلفين ازواجاً بنظرات متعجبة. فلم تلق بالاً إلى العيون وهتفت من جديد:

- مَن لا يحب باريس؟

كانت هدى قد ولدت في باريس بعد زمن من قدوم أبيها إليها شاباً صغيراً يطمح إلى دراسة الهندسة في المعهد العالي للطرق، وكان قد سمع منه، ليشتد حلمه فيعود إلى لبنان فيساهم في شق الطرق وبناء الجسور كي تتغلب البلد على صعوبة الممرات الجبلية التي أنهكت طفولته وأتعبت أبويه وشيوخ القرية. واعترضت مسيرة دراسته قلة المال وعجز الأهل عن الاستمرار في تغطية النفقات، فتحول إلى العمل في أي مجال أتيح له. كانت طموحاته تسابق حيويته، وتطلع بإصرار إلى أن يكون له شأن في مجتمع عرف الحرب الحقيقية وخرج من الحرب العالمية الأولى منهكاً. كان كريم قد وجد نفسه يبحث عن الثراء بأي وسيلة وعن المتعة أينما وجدت. وكافأته زوجة صناعي كبير على عطاءات الجسد يقدمها لها من غير حساب، فبات ينعم بفرصة أكبر لرجل أعمال يصعد السلم بسهولة. وعندما أحضر زوجة له من لبنان، كان قد أخذ مكانة في عالم المال والخدمات والأعمال التجارية والصناعات المرهفة كالعطور وأدوات الزينة. وغمرت الأسرة الصغيرة وهي تستقبل وليدتها الجديدة أزهار وهدايا المصارف الفرنسية ومعظم رجال الأعمال والسياسة. واستمرّت الزوجة في لبنانيتها تحسن إدارة المنزل وتقوم بأعباء الاستضافة التي باتت شعار كريم في الأوساط كلها. وحدث أن استدعي مراد ليقدم تقريره فقابله كريم ليشد على يده ويقول:

- ستنجح أيها الشاب إذا ما تابعت طريقك هكذا.

فكانت كلمات الرئيس وساماً استقرّ في قلب مراد فخراً وإصراراً على المضي قدماً في التطلع إلى الهدف.

قالت هدى وهي تحمي جسد مراد بمظلتها من غزارة مطر مفاجئ، وقد التصقت به:

- لِمَ اخترت باريس من دون مدن الدنيا؟

فأجاب مراد وقد أصبح أكثر ثقة بنفسه:

- كانت الفرنسية تدرس عندنا منذ الصف الرابع من المرحلة الابتدائية، وكان أستاذَها شاعرٌ قدَّم لنا فرنسا بلداً للحرية والجمال، فتعلقت بها.

وكان يكمل وأقدامهما تغرق في الماء الذي بات جارياً لشدته:

- وعندما استقلت البلاد وتوقف تعليم اللغة الفرنسية، وانقطعت بعد ذلك عن الدراسة لأساعد أسرتي، ظلّ الحلم قائماً في أن أتعرف إلى بلد كهذه، وكان الإصرار على السفر.

علقت هدى بقولها:

- أحب الإصرار في الرجل.

ثم تساءلت باهتمام:

- وماذا تريد أن تكون يا مراد؟

أجاب بعفوية:

- أريد أن أحقق وجودي في هذه الحياة.

وقالت هدى بعد أن توقف المطر:

- وهل يحقق لك عملك في المؤسسة ذلك؟

وأجابت عنه وهي تقوده إلى طريق العودة:

- مثلك يحقق ما يريد في أي مكان يقف فيه.

وانحدرا متقاربين إلى موقف للسيارات، فوجد مراد نفسه يشعل سيجارة فقالت هدى تتأمله وكانت المرة الأولى لها وهي تشاهده يدخن:

- وأنا أدخن أيضاً بالرغم من غضب أمي.

واعتذرت عن قبول العلبة التي قدمها لها، فأطفأ سيجارته وهو يقول:

- أريد أن أعترف أن فضلكم عليّ سيطوق عنقي مدى الحياة. أنا مدين للمؤسسة وأبنائها.

فقالت هدى ضاحكة:

- هل تعلم يا مراد أنني الابنة الوحيدة للمؤسسة!

فهتف وهو ينحني بقامته في حركة مسرحية ليقبل كفها:

- وأنا مدين لك يا سيدتي.

فسحبت يدها وهي تقول بمرح:

- هل نسيت أن السيدة اسمها هدى؟

فعاود الحركة من جديد وهو يقول:

وانا مدين لك يا هدى.

واضاف بحرارة:

- ومدين للمؤسسة أنّها كانت السبب في التعرف إليك.

فقالت بدلال وهي تخرج المفاتيح من محفظتها:

- التعرّف إليّ فقط؟

فتردد قبل أن يقول:

- والإعجاب بك.

هتفت وهي تتجه إلى سيارتها:

- اقترح أن أعيدك إلى منزلك بسيارتي، فأنا ماهرة أيضاً في القيادة.

فقال بحركة تمثيلية:

- لا أستطيع مخالفة أمر لسيدتي.. هدى.

فملأ الضحك وجهيهما.

10 احترفتُ الكتابة، ولم أحترف صناعة الأدب التي ظلت هواية منذ بداية حياتي وحتى هذه اللحظات، لـذا كـانت الرواية مثـلاً استجابة لمعمى انفعـالات فـي الداخـل تخـرج لتسـكن الحـروف المتدفقـة دون تحكـم وتحفر مجراها بنفسها. بـاتت الكتابـة إيقاعـاً يعطـي للزمـن معنـى ويمنـح الأوقات الميتة روحاً تستيقظ من رقادها بالأفكار المستمرة التدفق. وجعلت الكتابـة تتنـاوب مـع الدراسـة ومـن ثـم العمـل الوظيفـي فـأحسّ بـأن يومـي يستكمل حقه من الزمن. كان هذا الإيقاع الأكثر تأثيراً في حياتي وهـو يؤكد على استمراره وسيلة قد لا أملك غيرها في التعبير عن نفسي لأكثر مـن نصف قرن.

ارتبطت يفـاعتي بالكتابـة كمتعـة التسـلية التـي نبحـث عنـها، وحـين ابتـدأت تتحـول إلــى (أدب) صــارت كــالولادة التــي نعرفــها فــي الحيــوات الطبيعية، متعة للتجلي في النص الفنـي المكتوب. ومع تراكم الزمن ابتدأت اعرف عن طبيعة الأدب، أنـه عمل لـه قواعد وأصول وأن صانعيـه يختلفون فـي مذاهبـه وطرائق تعبيره وأهدافه. واكتشفت أن الفكرة التي تتكون فــي مختبر الأعماق تأخذ من تخلّق الجنين في رحم أمه طريقتها، فتصبح مع نموها عملاً فنياً يحمل رسالة ما، تتجلى في رواية أو قصة أو مسرحية أو حالة شعرية أو غيرها.

ابتدأت الكتابة بالفطرة كقدر مكتوب، ثم تسلل الأدب إليها بغفلة منها ليفتح نافذة على الروح تدخل منها نسائم الفرح وترانيم العزاء، فخففت عني تجلياته مخاوف وأحزان الحياة. وفي مرحلة لاحقة عاينت ما أكتبه من أدب فتبين لي أنه لم يستطع أن يتفوق على ما كنت أقرأه باستمرار، وأن القراءة تأتي في المقام الأول فالتنوع المدهش في كتابة الآخرين يفوق ما كنت أحسبه تنوعاً عندي. إن الثروة التي ينالها الإنسان من المعارف التي يحصل عليها

تتجاوز بألف خطوة مقدار المحصول الذي تنتجه الكتابة عند صاحبها، وبذا فإن العزاء الذي قدمته لي القراءة والمشاهدة تفوق عزاء الكتابة، فتزايد فعل القراءة قياساً على ما أكتبه.

وكنت قد أصبت بقلق الشباب في أيام الإسكندرية وأنا أدرس في كلية الزراعة، فحرمني الأرق متعة النوم المستمر الذي يحتاجه الجسد ويتطلع إليه العقل المنشغل أبداً، فتخاصمت الدراسة العلمية مع خيالات الأفكار الأدبية، واحتدمت المعركة في ظلام الليالي فكان التوتر هو الزيت الذي يصب على نار الأرق. ثم تذكرت فجأة تلك اللعبة التي أتقنتها أيام المراهقة وقد استعصى النوم، فألجأ إلى تخيل قطيع من الأغنام أحاول أن أحصي عدده، واحد.. اثنان.. إلى أن أصل إلى رقم ما يتلاشى مع استغراقي في النوم، وكثيراً ما كنت أصل إلى رقم يتألف من أربعة أو خمسة أعداد دون قدرة على الإغفاء، فلجأت إلى الاشتقاق، فالرقم واحد يصبح اثنين، والرقم اثنان يصبح أربعة وهكذا، فمضاعفة الأرقام وفق متتالية هندسية ساهمت في إرهاق يدفع إلى النوم. وقد علمتني لعبة الاشتقاق أموراً مختلفة في عملية الكتابة، فكلمة (الصداقة) عندما تدور في ذهني تساعدني على التفكير بالصدق وهذه تقودني إلى الصدقة كما تزيح هذه الكلمة الستار عن الصدّ، والصداقة تعكس العداوة والصدق يبين لي جوهر الكذب والصدّ تدخلني إلى مسرح الحوار. وهكذا كانت لعبة الاشتقاق واحدة من العلاقات التي تربط الكتابة بالتفكير والتفكير يفرش البساط تحت أقدام الإلهام الذي تحكمه المصادفة والاحتمال، فكلمة الكذب مثلاً تثير حولها عادة جملة من التساؤلات: أهو الكذب على النفس كأن أتصور أني أنجزت كتابة قصة قصيرة لا مثيل لها فاستمرّ في واحدة أخرى ومن ثم أتوقف متأملاً، لأكتشف بعد مراجعة لنفسي أن ما كتبه الآخرون يتقدم مسابقاً مخيلتي بأشواط كثيرة، فأعود مثلاً إلى قصة لتشيخوف فأجدها حالة معجزة من صفاء الفكر ونقاء المخيلة، لأرجع إلى قصتي أعاينها، فتبتدئ مرحلة الرفض والشك، بقدرتي وعملي.

وسيحدث مثل هذا الاكتشاف توقفاً طارئاً عن الكتابة. أذكر مرة، وأنا

انتهي من رواية نجيب محفوظ (زقاق المدق)، أني توقفت عن الكتابة لشهر كامل، وهذا ما حدث بعد فترة وأنا أقرأ في (رباعية الإسكندرية) لكاتبها (لورنس داريل)، وبالرغم من أني لم أطلع سوى على الجزأين الأوليين فقد وقر في ذهني أن الوصول إلى مثل ذلك الأسلوب الروائي في التعبير والوصف وبناء العلاقات المتشابكة على أرضية حكائية باللغة الرهافة، شيء صعب المنال.

كانت العودة إلى الكتابة بعد تحديات مثل ما ذكرت، دليلاً على قدرة التخلص من آثار الأعمال الكبيرة، وبرهاناً على ولادة أفكار في مختبري تبحث بقوة عن مكان لها كما يفعل الجنين وقد أذنت له الولادة الطبيعية بالخروج من سجنه الحنون. بدت الكتابة وكأنّها تفاعلات لا حدود لنشاطها فكأنّها وهي تخرج من عنق زجاجتها تأخذ الشكل المقدر لها، فتصبح قصة قصيرة تشبع صفحاتها القليلة جوع فكرتها وحدثها، وقد تكون رواية يحدد زمنها الروائي لا الحقيقي فترة الاشتغال بها وعليها، وقد تكون دراما قصيرة أو طويلة يلعب المكان فيها مهمة تدريبٍ على التركيز في الأحداث والحوار المعبر عن صراع يشي بجوهر الدراما.

لقد دأبت الكتابة على إعطاء الكلمات في اللغة الفنية فرصة للانكماش على نفسها، فيضيق المعنى المترهل عادة ليأخذ حجم اللغة فتكون مع مرور السنين شيئاً يمكن تسميته الخضوع للاقتصاد اللغوي، الذي ساهم في تدرّج بلورته دراستي لاقتصاد الإنتاج بشكل عام والزراعي منه على وجه التخصيص، فقد أخذت من الدراسة في كلية الزراعة فهمَ طبيعة الاقتصاد، كما اتسعت حدقة الرؤية في استخدام الميكروسكوب وأنا أتفحص بعدسته جنح بعوضة أو مقطعاً من ورقة شجر، فتلعب الأصباغ دورها في تحويل المشهد وراء العدسة، والذي لا يرى بالعين المجردة، ليصبح وكأنه جزء من جانب كوني، كما حدث لي عندما اطلعت على صور من الفضاء الفسيح بمجراته ونجومه المضيئة والخاملة، فارتبطت جزئيات الطبيعة المتمثلة في دقائق الحيوان والنبات بمشاهد الكون الهائلة، فبدأت أدرك معنى العلاقة بين الخاص والعام أو بين الجزئي والكلي، وصار للكلمة الفنية أوجه متعددة

إذا ما قلبت المعنى فيها وجدت ترابطاً فنياً ينوس بين الحرْفي المحدود لها وبين البحر غير المحدود بشواطئ في اتساعه سطحاً وعمقاً.

وبدارسة علوم مختلفة، طبيعية وإنسانية، تفرعت جذور الكتابة، وامتدت أغصان شجرتها التي تسقط أوراقها أحياناً في فترات اليباب، واتجه التفكير نحو التجريب في الكتابة الفنية، أي تجنب الوقوع في فخ ما هو مألوف أو معروف سابقاً. وفي محاولة التحرر من أسر القوالب للخروج بالكتابة إلى آفاق رحبة. ويبدو أن الدراسة العلمية ساهمت بطرائقها في دفع مغامرة التجريب إلى الأمام، وباتت فكرة كتابة أي نص بمثابة تدريب يخدم الذي يليه، وأصبحت الكتابة بشكل عام تدريبات أو بروفات لما يمكن أن أكتبه في المستقبل.

تكتب الرواية نفسها. جسم مطاطي يتمدد طالما تتسلل إليه الأفكار وتنضج فيه الأحداث. والرواية كرة مسحورة تتشكل كما تريد هي أو كما ينبغي لها أن تكون في ذاتها. والرواية نموذج لتكامل الكتابة الفنية أو هي حالة من تجليات الأدب في أرقى صوره. وإذا ما استوت عملاً كاملاً، أستعرضُ صفحاتها بإعجاب كمن أنجز صرحاً، إلا أنني سرعان ما أبتدئ في نبش النواقص والعيوب في ثنايا الرواية، فتتساقط قماشة الرضا قطعة فقطعة ويعلن عن مشهد التعري، فأجدني عارياً حقاً أبحث عن غطاء يستر ضعفي. ويبدأ شعور بالذنب ينتابني، فأنا لم أستطع أن آتي بجديد أو بشيء له قيمة، فأهم بتمزيقها لولا يمنعني الجبن. ثم أجد أني أعود إلى كتابة الرواية من جديد، ألغي وأضيف، أعدل هنا وأوسّع هناك. تشمت بي العيوب المكتشفة كأسنان عجوز يسخر نخرها وغياب بعضها مني، ولكني أتابع الكتابة الثانية وكأنّها إحداث جديد، فتكون أقل براءة من الأولى لخضوعها لعمليات عقلانية في الصياغة أو في الترميم.

وكثيراً ما تتكرر الكتابة لمرات ثلاث، فأكتشف أني أتجدد أيضاً كما تفعل الكتابة في انتقالها من حال إلى حال. وعندما تخرج الرواية من مختبري بشكل أظنه النهائي، فلا تجدي معه محاولات التجديد، ينتابني شعور بالكراهية لها، فلا أقدر على مراجعتها أو التفكير فيها، فكأن في قتلها تظهر

القطيعة النهائية معها، وأحسب أن زمن كتابتها قد خرج عن زمني، ولا يعود التعاطف معها كفعلٍ تحقق في الزمن المنصرم من حياتي إلا بعد فترة إذ يعود بعض من شخوصها أو أحداثها إلى التحويم حولي في حالات من إحساس بالغربة، أو في لحظات التأمل في معنى وجودي واستمراري، فأحسب أن بطلاً من الرواية حقيقي أو أن حادثة فيها قد وقعت فعلاً فيختلط الواقع بالحلم، وإذا بالخيال يأخذ موقعه من الحقيقة، وإذا بالحقائق في كثير من الأحايين تبدو وكأنّها خيال، فيصبح النص بعد إنجازه النهائي معرضاً لاحتمال الكتابة من جديد، فأتوقف بحزم وأعلن براءتي منها.

هل يدلّ كل ذلك على عدم اكتمال الكتابة في النص الفني؟

وهل يثبت ذلك أن النص كائن قابل للتطور كالمخلوق الحي، ينمو ويكبر ويشيخ؟

وبالرغم من أن عملية الكتابة الفنية هي حالة تحرر من اسر الأفكار وطغيان التأمل، فإنّها تقود في النهاية إلى الوقوع في فخ الأفكار والتأمل، فالكتابة في نهاية مطاف تخمّرها هي استعادة للماضي أو أنّها تصنع الماضي نفسه مع احتمال أنّها تدور حول الحاضر أو المستقبل، ولكنها تصبح مع محاولة اكتمالها قادرة على أن تربط كل الأزمات في خدمة واحدة. وتطابق درجات الزمن في الكتابة الفنية، من ماضٍ وحاضر ومستقبل، يصبح تجلياً لتصوير مسيرة الحياة في النص المولود.

إن تخالط الأزمان الثلاثة في جسد الكتابة هو الواقع الفني الموازي للواقع الحقيقي، فهذا الواقع الذي قد يمثل الزمن الحاضر، يقف على أرضية الزمن الماضي ويحمل في عمقه الزمن القادم، فتصبح الكتابة بلورة هرمية تحمل وجوهها الثلاثة، التي تعكس وتستقبل في آن، نبض الحاضر وإشعاع الماضي وسطوع المستقبل، وتكون مع كل ذلك الواقع الفني الذي سيصبح أمثولة إذا ما حققت الكتابة أعلى درجات امتلائها.

وكما التساؤل يتطلع أبداً إلى جواب، فإن الجواب بحاجة في تحققه إلى سؤال. إن حال الكتابة يمثل ذلك الإشكال، لذا فأنا مازلت أتخبط في بحيرة هذا الإشكال القلق.

11 غيمة سوداء تمددت على عرض السماء وطولها، فانكمشت المدينة على نفسها، ولكنها ما لبثت أن تنفست الصعداء وقد زحفت الزرقة تلاحق الغيمة الهاربة، فامتلأ الفضاء بهجة بعد أن اختفى النهار الليلي الكئيب. وهكذا تفتح برعم الحب واشتعلت نيرانه ببطء يكفي لمقاومة.برد باريس وجفاف الغربة. وبالرغم من ثناء كريم للمرة الثانية على مراد قائلاً له:

- الشوام دوماً مجتهدون.

فإن بهجة الفضاء كانت تنتقل إلى قلبه عندما تتسلل كلمات هدى إلى كهف سمعه عبر الهاتف الذي يصبح فوهة تنفث الطمأنينة. هي تسأل عن عمله وعن تقدمه في دروسه وعن ليلته السابقة، ثم تنهي الحديث فجأة ليظلّ الأمل قائماً في روحه بانتظار مكالمة جديدة لا تخضع لتوقيت. كان يدرب نفسه دوماً على أن يقول لها أشياء تخترق الحدود التي وضعت بينهما، ولكنها الابنة الوحيدة لصاحب أسطورة النجاح وهو الشاب الذي مازال في أول الطريق. هل يفصح لها عن الحب المسجون في قفص الخوف والتردد؟ وهل يمكن لمستقبله في المؤسسة أن يعود إلى نقطة الصفر إذا ما كان الصدّ هو بداية النهاية؟

قال لنفسه:

- ولكن هدى تفتح لك باباً، فادخله يا مراد بأمان.

ويستدعيه مكتب محام لأمر قيل إنه يخصه، فلم يخطر بباله وهو يتوجه إليه أن السيدة كوليت قد تركت له ما يخصه. تفحصه المحامي الكهل باهتمام وهو يستفسر:

- السيد مراد زكريا.

ويضيف بتعجب مستتر:

- عربي من الجنسية السورية!

ويقدم له وثيقة تشير إلى التركة التي أوصت بها الراحلة. لبث مراد، وهو يسترد جواز سفره القديم لإثبات شخصيته، جامداً لا يستطيع أن يخمن ما بداخل الوصية.

«أتراها توصيه بهدى؟»

«أتراها تطلب منه أن يقوم بالبحث عن الابن المفقود؟»

«لمَ لمْ يستدعِه المحامي مع هدى، فكوليت العزيزة هي التي جمعته بها؟».

وعندما فضّ الوثيقة، تبين له وهو يقرؤها ببطء أن الراحلة تترك له كل ما تملك من الشقة السكنية الصغيرة مع أثاثها إلى حساب التوفير في المصرف. وأشار مقطع من الوثيقة إلى علبة خشبية قام المحامي بتقديمها له، وكانت صندوقاً مطعماً بعروق من الفضة كشف غطاؤها عن بريق يخطف البصر. سوار مشع من الماس الحقيقي توارثته عبر أجيال كما جاء في الرسالة المرفقة وقد عنونت باسمه «إلى الغريب مراد زكريا كغرية فيليب المفتوحة». فكان يتابع الرسالة وهي تقول:

- ... وأنا أفقد زوجي في متاهة الاحتلال الألماني، أردت لهذا السوار الماسي الذي حافظت عليه للفتاة التي قد تصبح زوجة لفيليب. ضاع فيليب فلاحقته بدموعي ويأسي وعقم انتظاري، وإن كنت لا أعلم إن كانت رمال الشمال الإفريقي قد أخفته عن عيني أمه التي ليس لها في الدنيا سواه، أم أنه هام على وجهه هرباً من العنف الذي كرهه منذ طفولته وهو ينام على الموسيقا التي ملأت روحه. أهي الفتاة التي يحبها ولدي ستضع السوار في معصمها للإبقاء على تسلسل الأجيال التي تناقلته؟ وقد وجدت الحل لمعضلة ذلك السؤال بعد سنوات طويلة ويوم عرفتك يا مراد. مازلت أذكر، والذكريات دليل على الحياة، كيف استيقظت فيّ الأمومة المقهورة. لم يكن هناك شبه بين فيليب وبينك، ولكنكما تشتركان في الابتسامة نفسها وفي الحاجة إلى حبي. كنت أبحث عن الأمان الذي كنت أجده أحياناً في دروس الموسيقا لطلابي الذين لم تتفوق عليهم سوى الرقيقة هدى. كاد فيليب أن

رج منك وأنت تحرك الأمومة في داخلي، فباتت حرارة الشاي الذي الشاركك إياه تبعث الدفء الذي كان ولدي يشع به. قلت لي ذات مرة إن اسمك هو مراد ويعني الشيء الذي يتمناه الإنسان، وأرجو الله أن يتحقق مرادك دوماً مع فتاة تستحق هذا السوار الذي جلب الحظ لعدد من نساء العائلة. أحسن الاختيار فيكون للفتاة التي ستصبح زوجتك ذات يوم، فيستمر إشعاع الماس دليلاً على الحياة المستمرة والحب الذي لا يتوقف.

ابني مراد

أريدك أن تعلم أن هذا الصندوق الذي يضم رسالتي إليك، قد أعدّ لك بعد زمن قصير من معرفتي بك التي كانت هبة من السماء. ولا أعلم متى سيكون لك، وأريدك أن تعلم أن احداً في غربتك قد أحبك وخاف عليك. وكل ما أرجوه أن تحافظ زوجة المستقبل على هذه الأمانة فتستمر في أولادكما، لكي يذكروا المرأة التي وجدت فيك ملاذاً لغربتها.

باركك الله يا بني، واذكرني في سعادتك لا في حزنك.

الأم كوليت

وانتقلت عينا مراد، الذي أمسك دموعه، إلى المحامي الذي كان يراقب انفعالاته عبر انتقاله من سطر لآخر ثم لا يلبث أن يعود من جديد إلى ما قبله، فيتلوّن وجهه وكأنه يشارك أيضاً مع العينين في القراءة. قال المحامي:

- سيتابع مكتبي جميع إجراءات الوصية. مبروك لك.
- اي مباركة في أن تفقد إنساناً نبيلاً!

هكذا كان مراد يقول لنفسه وهو يغادر.

وظلت الرسالة قريبة من قلبه، يخرجها ليقرأ منها وليعيدها إلى محفظته وكأنّها (تميمة) أو (حجاب) كالذي كانت أمه الحلبية ترّقيه به. وقد علقت هدى حديثها الهاتفي بعد أيام على حديث مراد عن الرسالة:

- لقد أحسنت المدام الاختيار، فأنت جدير بالمحبة.

وهكذا كانت له في كلمات هدى تميمة أخرى. اهو جدير حقاً بكل ما يحدث له؟

وبات الصندوق يشع بكنزه، يضعه أمامه في الليالي الطويلة ويفكر نبع جديد في أرض الذكريات يفيض عليه. فتتقافز أمامه الذكريات الحلبية، عقبة الياسمين ورفاق الطفولة وأسرة النساء التي خلفها وراءه على وعد منه في انتشالها من الفقر، وزهرة! فإذا بصورة الصبية تبهت كفوتوغراف مائي. الآن تبتدئ صفحة جديدة من كتابه، وها هي هدى تنتفض كبؤرة ضوء لتنضم إلى حبات الماس فيُحيط السوار المتلألئ بصفحة حياته، فتظهر كلمة واحدة فيها. هدى.

- هدى النور.
- هدى المستقبل.
- هدى أنس المحبة.

وكأنما الحروف الثلاثة من الاسم النوراني أحاط به كالسوار، تضيّق عليه برفق استحلاه. ثم يستفيق مراد من الحلم الجميل وقد هاجمه رعب من أن يكون رهانه على الحب فاشلاً كما حدث له أيام زهرة. هل يخرج من المولد بلا حمص؟.

واستطلع أركان منزل كوليت من جديد. وها هو يصبح مالكاً لسكن يخصه، فلتتغلغل الأحلام والذكريات على أرضه وجدرانه ونوافذه، ولتزهر حديقته الصغيرة دوماً. الآن بات الوطن الجديد الذي حصل على جنسيته لكونه من الذين ولدوا في مستعمرة فرنسية ذات يوم، أرضاً صلبة يقف عليها باعتزاز. كل شيء في الدار قديم، الأثاث الخشبي.. الستائر.. السرير النحاسي، وغرق البيانو في العتمة الشفيفة فحاولت أنامل مراد أن تداعب المفاتيح فرددت الستائر المخملية التي تحتضنه أصوات الضربات بضعف مخنوق، وكأنّها إعلان عن حزن مرير. السيدة كوليت رعته في حياتها وفي رحيلها، فهل يصبح عش الحزن هذا مأواه الذي قد يشهد دخول الأمل والانفتاح على مستقبل الحب والنجاح؟

سنوات مرت لكنها باتت مثمرة، إلا أن القلق يجد له ثقباً يختبئ فيه ليظهر متى يشاء كفأر الحقل. وقاده المساء إلى النفق فاحتواه المترو اللاهث بجنون. محطة بعد محطة فيجد مراد نفسه في (النجمة) التي تشبه

المرعاتها ومستوياتها المتباينة مدينة تحت الأرض تتقن السخرية من العابرين فيها، فأطل قلقه المعتاد يعبث به ليخرجه إلى السطح يبحث عن هواء متجدد. وكان (قوس النصر) الهائل يستصغره بينما مراد يمر بقربه كحشرة تدبّ بلا هدف. ألم يكن القوس هو البوابة التي قادته ذات يوم إلى (فوش) الشارع الغامض وهو يقوده إلى قصر هدى؟. كان ينظر إلى الصرح الحجري فيحسّ بالضآلة أمام البناء الذي تحولت الفجوة بين ساحتيه العملاقتين إلى معبر لهواء بارد يلهب خياله بالآمال التي يتطلع إليها.

لحظات الانكماش التي كانت تعاوده من حين لآخر، وهو يقف أمام السيد كريم، أو تلتقي نظراته بهدى، أو في وقوفه في ساحة النجمة يتأمل قوس النصر، أو أمام مبنى الأوبرا أو أي من الأبنية القديمة تمثل عظمة حزنها واستعلائها. وتعاوده صورة زهرة وهي تغسل أرض الحوش في عقبة الياسمين فيعاين أجزاء جسدها التي التصق بها الثوب المبتل. فما تلبث صورة هدى بالثوب الأسود أن تمحو لوحة الماضي وكأنّها تقف على أطراف صحراء فيقترب منها وإذا بالرمال تبتلع أقدامه.

وخطفت الأضواء التي استنهضت النقوش البارزة وهي تغطي جسد قوس النصر. أيستطيع اكتساب قوة من ملامستها المستحيلة كما الوصول إلى أحلامه؟ ومتى يمكن له أن يبني قوساً لنصره؟

انحدر ماشياً ببطء على أحجار الممر المنصف للشانزليزيه بشارعيه العريضين. أشجار عارية تنتصب رقيبة وكأنّها تعدّ عليه خطواته التي فقدت هدفها. توقف عند كشك الجرائد ليبتاع صحيفة وعلبة السيجار الصغير. يتجه إلى المقهى فيفصله زجاجه عن حركة الرصيف الأشبه بالأفكار المتضاربة، ويقلب أوجه المارة التي تؤكد استقطاب المدينة للعالم بأسره ليحسّ بأنه ينتمي إلى ذلك المزيج البشري، ويرشف القهوة مرة واحدة، ويأتي صوت هدى مع سحابة الدخان فتتنزل عليه الطمأنينة في هلام السحابة التي أعطت للرؤية عنده معنى مختلفاً، وكانت هدى تخرج من بين الدخان الرمادي بنحافتها كريشة تتمايل بخفة وقد زادتها الابتسامة رقة تمنح الروح سعادة متوالدة، فاشتدت قامته وهو يغادر المقهى ترافقه رغبة

في أن يمشي في الشوارع كي يمنح مشاعره المتفائلة فرصة أخرى لاستدعاء هدى إلى شاشة أحلامه.

الأنوار تشاركه حيويته الطارئة. واستوقفه، عند تقاطع مع شارع فرعي، رجل تعطيه لحية سوداء، قناعاً من التجهم، وكان يناديه باسمه فاستجاب له ولكفّه الممتدة بالسلام، إلا أنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً عنه. وظلت المصافحة مستمرة يتمسك بها الغريب وكأنه يحيي معرفة قديمة. هتف الرجل:

- كيف حالك سيد مراد زكريا؟

فايقظت ذاكرته رنة الصوت، وتذكر الاجتماع الذي لم يمض عليه سوى شهور قليلة، وكان في قبو العمارة التي تسكنها عائلات مغاربية متفرقة، وقد ضم اللقاء عدداً كبيراً من العرب والمسلمين المقيمين والمهاجرين، تنادوا إلى بحث ما يمكن أن يفعلوه لمساندة مصر في العدوان عليها. كانت أصوات الغضب تتعالى وهي تحاول أن تخرق السقف، ويطالب أحد المجتمعين بتشكيل فرقة منهم لخوض الحرب دفاعاً عن إخوانهم في الإسلام والعروبة، ويدعو آخر إلى جمع التبرعات، ويقول رجل تجسدت فيه زعامة إن إرباك الفرنسيين في بلادهم قد يجبرهم على الانسحاب، فاختلفت الآراء في معنى الإرباك، وكان مراد ينتحي زاوية معتمة من القبو يراقب المواقف المتضاربة فيتذكر حماسة المظاهرات أيام الاستعمار في حلب. وينسحب من الاجتماع بعد أقل من ساعة وهو يردد في سره:

- مازلت ضعيفاً بالرغم من حصولي على الجنسية.

كان مراد يفكر في مستقبله بعيداً عن أي أمر يعكره. وسمع الملتحي يقول له:

- لم نعد نراك أو نسمع عنك.

فرد مراد وقد أحس بضرورة سحب يده من كف الرجل:

- ألم ينسحب المعتدون؟

فأضاف الرجل بعتب:

- ولكن المعركة مازالت مستمرة!

هتف مراد لنفسه وهو ينحني بتحية الرأس الصامتة:

- معركة الحياة هي المستمرة.

وكانت باريس قد علمته معنى التقلب في السماء، فاستقبل هجمة المطر المفاجئة بسرور وهو يهرع إلى النفق كأنما كان ينتظر شيئاً يغسل آثار الاضطراب التي أحدثتها دقائق اللقاء القصير مع الملتحي، فاجتذبه هدير المترو الذي سيسرع به إلى الدار الجديدة. وكانت السماء صافية على حدود باريس الغربية، وقد سكنت الرياح الشتوية فأحس أنه ينتقل إلى عالم آخر والشجيرات التي اصطفت على جانبي الممر وكأنّها ترحب بقدومه إلى مرحلة أفضل، فتثاقلت خطواته كي تؤكد أنه مالك لشقة توازي قصراً. ورحبت به حديقة الدار وكأنّها جزء من حدائق (فرساي) التي أدهشته في المرة الوحيدة التي شاهدها فيها، وانفتح له باب الدخول كمغارة علاء الدين، فهتف بمرح صبياني:

- افتح يا سمسم.

فوجد نفسه يدخل بزهو إلى الصالة وكأنه مسؤول كبير يقص شريط الافتتاح بثقة.

ضم المقعد الجلدي جسد مراد، كانت آثار الزمن في تشققات الجلد البني القاتم هي التي احتوت كوليت عمراً طويلاً، فتحسسها بألفة، ورفعت ذراعه الكأس وهو يهتف باسم كوليت التي تستحق أن تشرب الأنخاب في غيابها الذي سيستمر حضوراً لا يزول. ووقف في النخب الثاني باستعداد جندي يؤدي تحية العلم، ثم ما لبث أن لوح بيده في الهواء وهو يتذكر أهله، ويقول بصوت سمعته الأرجاء الضيقة.

- سأذكركم دوماً.. قبلاتي لك يا امي ولأخواتي.

وصرخ بألم مستعذب:

- لن تندموا على دموع الفراق.

12

بات للسماء نسور شابة تختال بتطلعاتها إلى السماء، وتألقت النجمة على كتف الضابط عزمي الفارس فانتصبت قامته الفارعة وهو يحس بأن الفضاء قد ارتفع بلا عمد من أجله. توسط دفعته من الطيارين السوريين وكان الأول فيهم، وخطفت الابتسامات عدسة التصوير وهي تسجل حيوية الشباب المتفجرة. وحسب عزمي أن لمعان العدسة الخاطف هو عينا سلمى الحبيبة، وأن هذه اللحظات التاريخية قد جُعلت من أجلها، فتمازج فخر الملابس بضعف الحب. وكانت الصور المنفردة بكل واحد منهم بعد ذلك تصويراً لكبرياء بلدٍ يبني نفسه.

كان عزمي قد اشتكى لسلمى سابقاً أنه لم يشارك في معركة مصر، وكفه تشتعل بين كفيها الحنونين ويقول لها بنزق:

- ألم يحن وقت اللقاء تحت سقف واحد؟

فيتقارب المحبان لتضيع المسافة بين وجهيهما في لحظة من الوجد مزقها دخول خالته عليهما وقد اختارت المسافة التي تباعدا عنها، وقالت تخاطبه:

- ألن يكون لكما بيت لزواجكما؟

فهتف عزمي بثقة:

- سيكون لنا كل ما نريد. سأعلق النجمة على كتفي وبعدها ينتهي البعاد!

فخرجت الأم مع ابنتها الملتاعة وقد لحق بهما عزمي بالغضب الذي لم يستطع أن يعلن عنه.

وحلق النسر في سماء الغرفة مع زوجته. بات لهما سرير مشترك في الغرفة الكبيرة الوحيدة في بيت أهله الضيق. ومع متعة الحب الأولى ملأ الرضا قلب سلمى فوزعت حبها على المساحة التي يشغلها الأثاث القديم،

فبات عندها البساط الكردي سجادة فاخرة من (كاشان) وتحول غطاء السرير القطني إلى بساط الريح تجول فيه مع زوجها حبيبها أصقاع العالم، ويتأرجح السرير النحاسي بجسديهما المتعانقين كأرض معشوشبة ترتفع عن مساحة بور. وتعانق طموح عزمي بالزهو الذي مازال يشحنه بليالي الوصال المجنونة. وتدفقت كلماته بالحب والأحلام كشلال لا يتوقف.

وأصبح الملازم أول عزمي من المقربين إلى القيادة في أيام الوحدة الأولى بين سوريا ومصر. وانتقل مع زوجته حزيناً من دار أهله إلى بيتهما الخاص يضمهما مع الابنة الصغيرة. وكان الحي الجديد قد بدأ ينمو على أطراف المدينة، كما نمت النجوم على كتفيه وازدادت لتصبح ثلاثة تذكي الإعجاب في أهل الحي فتدفق على بيته التعاطف من الرجال والنساء والأطفال، وكانوا يرقبون مشيته وهو يتجه إلى سيارة الجيب ليأخذ مكانه قرب السائق الذي كانت تحيته لضابطه تهز الحي بالفخر، وكثيراً ما كان مروره في السوق سبباً في تحية الناس للوحدة ولرئيسها عبد الناصر.

وسمى ابنه (جمال) الذي جاءه بعد خولة، فكان مجيء الوليد إلى الدنيا، وهو يحمل الاسم المفضل عند الناس، يوماً مشهوداً في الحي، فعلقت الزينات وتدفقت الهدايا على بيت الأسرة الذي أطلق عليه عدد من المتحمسين (دار العروبة). وكان مقرراً لعزمي أن يذهب إلى القاهرة في دورة عسكرية، فغادر مطمئناً إلى رعاية أهل الحي لأسرته، وقد ترك قلبه عند سلمى والطفلين حاملاً في سفره أفكاره السياسية، وكانت أحاديث رفيق الصبا الشيخ رضا الدسوقي في وصف القاهرة الفاطمية قد زيّنت له البلد، ودفعه الالتحام بالنصف الثاني من الدولة الجديدة إلى مزيد من الثقة بمستقبله.

وبالرغم من أن دخله سمح له مع زميليه في اختيار بيت يقع في منطقة (الجزيرة)، فإن يوم الجمعة كان مخصصاً للمدينة القديمة، وكانت المقاهي الموزعة على الدكاكين المواجهة للجامع تجتذب الناس بدخانها وأنغام الآلات الموسيقية، وكان بعد أداء الصلاة في (الحسين) يمر أمام تلك الدكاكين الصغيرة يتملكه العجب من الرواد وهم يحافظون على إيقاع الحياة

المتنوع ما بين العبادة واللهو، وسيتذكر خطب عبد الناصر النارية التي لا تخلو من روح الفكاهة، فيعلم أنه يعيش حياة أخرى لم يعرفها، ويجد متعة في اكتشافها والاستئناس إليها، وكانت له قدرة على تفهم روح البلد، فلم تمنعه مهمته الجادة من التكيف مع أيامه المصرية.

ولكن الحنين إلى سلمى والأولاد يشتد مع كل أغنية يسمعها وقد غلب على معظمها الأنين والتوق إلى الحب، وكان التفكير في الأسرة بلهفة طاغية يدفعه لعدّ الأيام والساعات، كما يحميه من الوقوع في إغراءات تعترضه، ظهرت حمّاها مع الصبية التي تعودت انتظاره على شرفتها المواجهة لسكناه، وقد بات ذلك الانتظار شبه اليومي يرافق دخوله وخروجه وفي وقوفه أحياناً على شرفته. نظرات وإشارات تقوم بها الصبية كمن ينسج له فخاً، فكان شوقه لسلمى درعاً يحميه.

وتغرقه الدراسة العسكرية بكتبها وتدريبها، فتبقى له ساعات الليل لاستدعاء لحظات الحب الزوجية عزاء ومتعة. وحدث أن طرق الباب صباح يوم بخفة مثيرة، وكان شريكاه في السكن قد خرجا في نزهة إلى (القناطر الخيرية) كان قد اعتذر عنها لرغبته في قضاء العطلة وراء مكتبه يتابع دراسته، فتوجه متثاقلاً والنقرات تتكرر ليفتحه، فتنبه كسله مع تسلل الدهشة من فرجة الباب وقد وجد أمامه الصبية مستوطنة الشرفة المقابلة وقد أطرقت بحياء عذري يلوّن وجنتيها بحمرة خجل، فتوقف لسانه عن أي كلمة، فقالت هي:

- أنا جارتكم. شرفة بيتنا تطل عليكم.

فاستمرّت دهشته الصامتة، وتمتمت وكأنّها تدلي بتقرير خطير:

- طار روب النوم وحط في شرفتكم.

ثم تقدمت خطوة من الفرجة التي سدّها عزمي بقامته الطويلة، وما إن اقتربت منه حتى انسرقت من قربه إلى الداخل وهي تقول:

- رياح الخماسين هي السبب. رياح تسرق ما تراه ناعماً.

وكانت الابتسامة الغامضة ترافق كلماتها وقد أصبحت مع عزمي في مدخل الصالة.

حرارة الربيع المصري تفوق صيف حلب، فمسح العرق الذي تجمع عند رقبته بمنديل لم يفارق منامته منذ أن جاء إلى القاهرة، وقال للجارة الصبية:

- عندك الشرفة فابحثي فيها.

فتوجهت مسرعة نحو الشرفة تتابعها عيناه وقد شدتهما اهتزازات القد الرشيق وما يحتويه الثوب المزهر وهو يلتصق بالجسد الممتلئ، فأغمض متحاشياً الأنوثة التي هبطت عليه كنباً محيراً. وظلّ واقفاً في مكانه لا يبارحه كمن يستعد لوداعها في عودتها إليه. وكان الزمن متسارعاً فظهرت من الداخل وقد ارتسمت ملامحها بخيبة ماكرة، وهتفت بفحيح مثير:

- خسارة.. لم يكن ثوبي عندكم.

وقالت وهي تحتل مقعداً قريباً:

- يبدو أن الرياح أخذته بعيداً.

وتأوهت متحسرة:

- كان ناعماً يراعي بشرتي فأحببته.

وتابعت وشفتاها المكتنزتان تسمحان لآهات متتابعة بالمرور عبرهما:

- الخماسين رياح ذواقة فهي تفضل الملابس الناعمة.

وتثنت في جلستها تقول:

- كان ثوب النوم المفضل عندي.

وانكشفت ركبتها وهي تضع ساقاً فوق أخرى، تتابع مرثيتها لثوبها:

- أحمر وناعم ويشف كالكريستال.

وتابعت وكأنّها صاحبة الدار:

- لا ألبسه إلا في الليالي الحارة.

كان عزمي مايزال ساكناً في وقفته يتابع ثرثرتها فأشعل سيجارة، وكأنه يتوقع منها حديثاً جديداً.

- اسمي زبيدة، وينادوني «زبدة».

قالت الصبية ثم تابعت:

- وتستطيع أنت أن تناديني «زبدة».

فتحرك عزمي نحو المنفضة فاستبقت سقوط الرماد بقولها:
- البيت من غير امرأة لا حياة فيه.
فتطلع إليها مبتسماً وهو يقول لها:
- إقامتنا كما ترين مؤقتة هنا.
ودام صمت لحظات معدودة، فقطعته وهي تتساءل فجأة:
- عادة، لا تقدمون شيئاً لضيوفكم!
فدفع بعلبة السجائر إليها فقالت وهي تستعد للنهوض:
- أفضلها مع القهوة.
ووقفت قبالته وهي تكاد تلتصق به، وتساءلت وهي تشير إلى دهليز امتد عن يسار الباب الخارجي:
- لا بد أن المطبخ هنالك!
ومن ثم خطت باتجاه إشارتها كواحد من أهل الدار. وفي طريقها إلى المطبخ دفعت بالباب الخارجي تغلقه وتتقدم بثقة المتمهل في مشيته.
ظل الفارس واقفاً في مركز الصالة وعيناه تتابعان سحب دخان سيجارته الثانية وهو يفكر في أحداث الصباح المفاجئة. كانت بداية ليوم غير محسوب، وقد بدت الصاعقة تحمل من الخفايا القادمة ما يرتعش لها جسده. كان عزمي في ساعات طيرانه الأولى في الأجواء الفسيحة، وفي تعامله مع الآخرين، مشهوداً له بالدقة والقدرة على التحكم وتحمل المسؤولية، وكانت قصة حبه لزوجه حكاية تروى بين الرفاق والزملاء، وها هو يجد نفسه للمرة الأولى في حياته يعرف التردد وتنوس مشاعره بين قطبي الغواية وعهد الحب. أهي المعركة الفاصلة له وهو الذي ينتظر بفارغ الصبر معركة حقيقية مع العدو الإسرائيلي.
وتناهى إلى سمعه نداء الصبية من المطبخ:
- أستاذ عزمي.
فتوقفت ظنونه عند الشك في معرفتها باسمه، إلا أنّها تابعت بمرح:
- هكذا قال لي البواب وقد دل على اسم أكثر الساكنين هنا وسامة.
وسمعها تهتف وكأنّها تنادي:

- أستاذ عزمي اسم مثل صاحبه. أحب الرجل صاحب العزم.

وسمعها بعد لحظات تصيح بدلع ساخن:

- ألا تريد أن تشاهد بنفسك كيف تغلي القهوة على نار هادئة. لا ب أنك تحبها مغلية!

فوجد قدميه تتجهان ببطء مسلوب نحو النداء ورمى بالسيجارة وقد لامست جمرتها إصبعيه. وكانت الصبية أمام الموقد وقد أعدت فنجانين تتوسطهما كأس ماء واحدة ودلة القهوة تلامس النار. قالت له دون أن تتطلع إليه:

- اقترب أكثر لتشاهد الغليان بعينيك.

فانجذب مسلوب الإرادة ليقترب منها ملبياً، فإذا بجسدها يميل نحوه تتطلع إليه بنظرة شيطانية فيحتك نهداها بصدره ليتراجع كمن مسته كهرباء فتناثرت القهوة لتطفئ نار الغاز، فضحكت الصبية قائلة:

- ما أجمل أن تكف النار عن الاشتعال هكذا!

وألغت المسافة التي كانت بينهما، واحتوت صدره بذراعيها لترمي برأسها عليه وهي تهمس:

- أنت تعرف كيف تطفئ النار.

وسرت موجة من الحرارة العاتية في جسده، فلم يستطع أن يتحكم بذراعيه وهما يعتصران الجسد اللين بقوة، آنذاك أفلتت الصبية من الكماشة التي أطبقت عليها وتراجعت بدلال زئبقي لتقف عند مدخل المطبخ وهي ترسل دعوة ملتهبة من عينيها السوداوين كثقبين يلتهمان كل ما يقع بصرها عليه. وهمست وكأن الفحيح يخرج من كل بقعة في جسدها:

- هل تعيش في غرفة لوحدك، أم يشاركك أحد فيها؟

فهز برأسه مسلماً يعجز عن تحريك لسانه المتخشب، وتتراجع هي بخطوات مغناجة ليلحق بها عزمي.كان إذ يقترب منها تبتعد عنه ليصبحا في نهاية الملاحقة عند مدخل غرفته، فهتف مستسلماً:

- هذه هي غرفتي.

فاستدارت لتصبح في داخلها، وكان يلحق بها لاهثاً.

اقفل عزمي الباب من خلفه، وكانت رائحة زبيدة تعبق في المكان. .. اهنا هو كعاصفة تتحفز للانطلاق، فيما عيناها تدوران في الغرفة ساحص محتوياتها. سرير مرتب وكأنه لم يستعمل من قبل، وخزانة صغيرة ومكتب خشبي انتشرت على سطحه كتب واوراق جعلت تقلب فيها بدلع واضح.

- ضابط أم تلميذ في مدرسة!

هكذا تساءلت، فقال يغالب تلعثمه:

- الاثنان معاً.

وجعل يعيد ترتيب الكتب كما كانت في محاولة للتقرب منها. فدارت حول المكتب تتحسس أطرافه بكفها وكأنّها تنقل إليها حناناً جسدياً مكشوفاً. فقام بمقابلتها في حركة دورانها، وتساءل:

- أنت طالبة! اي كلية؟

فأرسلت ضحكة وهي تقول:

- يكفي واحد منا للدراسة.

وتابعت وهي تمسك بالإطار البلاستيكي للصورة التي وضعت على المكتب تتأملها، فتراجع عزمي عن التقدم نحو الصبية. كانت تتساءل ببراءة:

- أهلك!

ومن ثم أعقبت وهي تقرب الصورة من عينيها:

- لا بد أنّها أختك مع أولادها، فهي تشبهك حقاً!

آنذاك سحب الإطار من يدها ليعيده إلى مكانه وقد سكنت ملامحه وأمواج من قلق عاصفة تتقاذفه، وقد سمعها تقول:

- النساء السوريات جميلات حقاً.

واخترقت أذنيه كلماتها:

- ألم تتعلق بواحدة منهن؟

فوجد نفسه يتمتم كطفل مذنب:

- زوجتي وولداي.

فتطلعت إليه قائلة:

- لم تسمع ما قلته لك، ألم تتعلق بواحدة في بلدك؟

فهتف بعصبية:

- زوجتي وأولادي. الصورة لسلمى وخولة وجمال!

فالتمعت عيناها بغضب لبؤة يائسة وهي تردد:

- زوجتك وأولادك! أنت متزوج إذاً ولك أسرة.

فقال والتصميم يعود إليه ببطء:

- وهل أبدو لك غير ذلك؟

فصاحت كالجريحة:

- وهل تبدو غير ذلك!

ورمت بالكتب والأوراق أرضاً وهي تصرخ بجنون:

- أنت متزوج إذاً! وتتفاخر بذلك.

آنذاك جلس عزمي على طرف السرير يخرج سيجارة ليشعلها بهدوء، فابتعدت زبيدة متراجعة وكأنّها تعلن عن قطيعة معه وهي تردد بعصبية:

- رجال مخادعون.. ليس لهم أمان!

فقال لها بهدوء محارب أنجز مهمته:

- لم أسأل لأجيب!

وهتفت بغضب:

- متزوج وتغوي بنات الناس.

وانفلتت هاربة ليسمع لغيابها صوت الباب الخارجي وهو يصفق بقوة. فارتعد جسده مستجيباً للانفجار العاصف.

ظلام يعم المكان بالرغم من أشعة الشمس التي تخترق أصابع الأباجور فتستمر العتمة وهي تخيم على روح عزمي. جالساً لفترة طويلة دون حركة غارقاً في برودة الإحساس الذي غلف وجوده، وكانت الصور المتتابعة كشريط سينمائي يتوقف عند كل واحدة منها، يستذكرها ويستوقفها ليعيدها من جديد. سلمى تبتسم له بخجل. سلمى تمسك بذراعه متعلقة بها يوم تخرجه من كلية الطيران وكأنّها ملكت الدنيا. تطعمه بيدها وتمسح العرق عن جبينه بعد ليلة وصال حافلة بسعادة لا يماثلها

شيء. سلمى الأنثى التي اكتمل عريها بالصفاء والعطاء. أي ذنب ارتكبته يا عزمي بحق من يخلص لك الحب ويبني معك مستقبل الحياة الجميلة الواعدة.

هكذا جعل يردد لنفسه فتتجاوب الجدران معه لتضخم كلمته الصامتة. أي فعل خيانة كنت مقبلاً عليه؟ وامتدت يده إلى صدره تلمس (الحجاب) الذي علقته سلمى بيدها في رقبته ليحميه في كل خطوة من حياته.

13 أسئلة.. أسئلة!

فهل يستولد البحث عن جواب أسئلة جديدة؟

وكانت الأسئلة، منذ أيام الطفولة والشباب وإلى هذه اللحظات، تدور في راسي وتعصف في الأعماق مستمرة في تواليها وفي تناقضاتها وحيرتها، لتمزق نسيج الطمأنينة الذي أحلم به دثاراً فلا يكون لي منه إلا اللمم.

وتبقى لي دوماً الحيرة:

- لم.. وكيف.. ولماذا؟

سؤال عن الوجود، وعن الغاية من أي شيء، وهل الوصول إلى الحقيقة يكون بحسبان لا أعلم له حساباً! وأعلم بعد حين أن وعاء العقل واسع دوماً ويبسط الطريق أمام أي سؤال، فتساهم وسعته في استحداث سؤال وتساعد على الترميم بجواب.

أكنت أقدر على معرفة مدى تأثير الثقافات المختلفة في روحي؟

وهل أملك الخيار في معرفة ما يفيد من تلك الثقافات؟

أيمكن أن أحدد مصادر القلق؟ أم أنه يتوالد كالفطور؟

هل تحقق لي المعنى العميق لمفاهيم وقيم كالعدل والحب والصداقة والصدق والفداء والشرف؟

أصحيح أن بذرة الموت تجاور بداية الحياة، فتنمو وتبرعم شجرتها في خط مواز لتقدم الحياة؟

وهل يمكن للعمل الذي سيثمر فرع منه عن فنّ أو إبداع ما، أن يعوض عن الرهبة من الموت بحياة من نوع آخر؟

وما الذي يعرقل حلم الإنسان؟ وهل يستطيع الإنسان أن ينتصر على الحواجز التي تعيق طموحه؟

وكنت أكتشف في كل مرحلة من رحلة الحياة أن مخيلتي كالطين،

وهي تعمل دون توقف في تشكّلها حكايات تأخذ شكلاً روائياً أو مسرحياً أو غيره، وأن ذلك الطين سيتأثر بأحماض الزمن فتتغير طبيعته من اثر لآخر. أي أن لعبة الكيمياء هي الأقوى حضوراً في ملعب الوجود.

الهوايات الأولى، وفي مرحلة المدرسة الابتدائية التي اختبأ بناؤها القديم في طيات الأبنية المحيطة بالقلعة، كانت قد ارتبطت بسلوك صبياني هو التقليد الساخر لكل ما هو رمز للتعسف كمعلّم ظالم أو بائع يملّح بضاعته بالغش، فكانت الرغبة بالانتقام من تلك النماذج دافعاً للكتابة، ثم ارتقت تلك الهواية لتكون الكتابة بحثاً عن أسباب التعسف والظواهر التي تقهر الإنسان. وكان النشاط الرياضي قد ابتدأ بلعبة (البلى) التي ساهمت في تدريب عيني على تقدير المسافات فالخط الفاصل بين كرة زجاجية وأخرى يقاس تقديراً، وكان في هذا تحكمٌ بالقياس السليم الذي سينسحب على أمور كثيرة. وغلبت الأرض الترابية في لعبة (البلى) ماعداها والغبار يغطي الجسد والملابس التي كانت نظيفة، فيثار غضب أمي ويتحول إلى عقاب وهي ترى إلى تمزيقها والجراح التي خلفها الصراع مع أبطال اللعبة وتعلن عن خشيتها من انحراف الفتى. وعززت مخاوفها آثار تسلّقي لسفح القلعة ونحن نبحث عن (الحرادين) لاصطيادها فدمُها كما قيل يخفف من آلام العصا التي يعاقبنا بها الأستاذ لتقصير دراسي أو شغب طفولي. وساعد ذلك الاصطياد على الاتقاء من أي أذى علينا أن نتعلمه، وقد تبين لي بعد ذلك أن اتساع المعرفة المكتسبة يساعد على رفض أذى الانغلاق والتعصب بكل أشكاله.

كانت القلعة مثل قبة تعلو في سماء ضاربة في عمق التاريخ، فكنا ندور حول مهابتها كمريدين لمعبد بنته الملائكة. وكان اكتشافها من الخارج مدخلاً لنا للكشف عن تفاصيلها في الداخل. وعندما جلت فيها لأول مرة في رحلة مدرسية، شعرت بها وكأنّها مركز الدائرة الذي تدور حوله المدينة، يسبح ضجيجها نهاراً بقدم الزمن فيها وفي الليل ينشد السكون لقدسيتها المتغلغلة في الحارات والأرواح. وقد باتت الآثار العظيمة التي سأشاهدها بعد ذلك في أنحاء من الدنيا، وكأنّها مراكز يدور الزمن من

حولها، فبحثت عن علاقتي بالزمن لأجده حمّال أوجه، فهو تارة الصديق وأحياناً العدو اللدود، وفي مراحل يكون حياداً صارماً لا يسفر عن موقفه. ويتطور زمن القلعة مع السنين فأبحث عن جوهر الثقافات التي كانت في مداره، وقد تمثلت في الأقوام الذين عبروا التراب حولها أو الإسفلت الذي زنّر خندقها بحزام أسود راجلين أو يمتطون الخيول أو معلبين في صناديق حديدية، فكانت السيارات لا تعير أي اهتمام لحرقة السفح الذي تساقطت معظم حجارته التي كانت الثوب الجميل لجسد القلعة.

هم يرحلون وهي باقية ترنو إلى الجنوب والشرق اللذين تمددت على ترابهما المقابر وهي تعطي فكرة عن النهاية المعاكسة لوجود القلعة الدائم. وعندما وقفت في شبابي على الشرفة التي يرتفع على طرفها جامع القلعة بمئذنته وهي عادة أول المصغين لصوت الريح، رأيت في نظراتي البانورامية مباني حلب القديمة والحديثة ومعابدها التي تبدو متقاربة عن بعد، مآذن وأبراج كنائس تسبّح في الفضاء باسم الله، وأدركت ان النماذج بين ثقافات مختلفة كان هو سرّ المدينة العجوز الذي ساهم في إذكاء محبتي لها وبداية فهمي لأهمية التعدد في الثقافات، فهي التي فتحت لي الطريق أمام بصيرتي وأنا أجول في القاهرة الفاطمية وكأنّها امتداد للآثار الفرعونية والقبطية، أو أتنقّل بين أبهاء كنيسة بطرس في الفاتيكان، أو أقف ذاهلاً أمام معبد هندوسي أو صرح بوذي. ولا أنسى يوم اهتزت الروح لمشهد معبد غريب يقع في الطريق من (نيودلهي) إلى (أكرا) حيث يتجلى (تاج محل) ببهائه، فقد نهض الطابق الأول من ذاك المعبد المرمري بمدخل عريض تقود إليه درجات ضاربة في الحمرة كحجارة شربت من ماء الورد، فقادتني الخطوات الذاهلة إلى فتحة سماوية تستعد لاستقبال الطبقات الأخرى في المستقبل. كان النور يتنزل كشلال يحتفل باستمراره ويلفّ حول نفسه في البهو الفسيح كدرويش مولوي، فتنفتح أمام باصري الأشكال والكتابات النافرة التي تزنّر الجدار المستدير فينفلش ثوب رباني على المرمر المشغول بإتقان معجز. وسيدلني الرفيق الهندي على الكتابات المختلفة وهي تمثل

ديانات كثيرة. وكانت (الفاتحة) أو ربما (سورة الكوثر) أو (سورة الرحمن) كما لا اذكر الآن، تخالط بحروفها العربية الجمل النافرة الأخرى من لغات أجهل معظمها. وقد فرض مقام الجلال نفسه فباتت الصلاة متاحة لأي مؤمن على طريقته. وعلمت أن المبنى ابتدأت بتشييده جماعة كونية تنادي باحترام جميع الأديان، وقد ابتدأت دعوتها تلك منذ عشرات السنين. وبدا لي أن ذلك المعبد بحاجة إلى قرنين آخرين على أقل تقدير لإنجازه، وكان عمال مهرة قد تشربوا لون فقر الدم يضفون على المرمر في كل ضربة إزميل أثراً ساحراً، فتتحول الكتلة أو العمود الهائل بين أيديهم إلى تحفة يتعاورها أكثر من جيل. ولا ريب في أن ذلك البناء الذي زرته في أواخر السبعينات من القرن العشرين سيكون بعد إنجازه أمثولة لأحفاد أحفادنا، فأي مكسب ستناله الأجيال اللاحقة في مواجهاتها المتابعة لثقافات مختلفة لا أمتلك تصوراً محدداً في تخيلها.

وأذكر بعد ذلك بسنين تزيد على عقدين، أني استقبلت حفيدي القادم لتوه بزاوية في عمودي الصحفي عن حلب التي أتطلع إلى مستقبل لها أحلم به. مساحة خضراء تحيط ببناء من زجاج معدني تعكس سطوحه تدفقات المياه من النوافير التي تنتشر في كل مكان لتخفف من جفاف المدينة، وتدور داخل البناء حركة رجال صامتين وهم يلاحقون الأجهزة بحرص واهتمام، ويعمل ذلك المركز الحكومي على استقبال أخبار ووقائع الثقافات الإنسانية في تفاعلها المستمر وإنتاجها الفني، ويحلل الوثائق المتعلقة بها ليضع النتائج بين يدي الباحثين والعاملين في الدولة. وكنت أتخيل حفيدي واحداً من العاملين في مركز المستقبل ذاك. فهل مازال حلم التفاعل الثقافي يشغلني فأفكّر في توارث الأجيال الآتية لذلك الحلم؟

وهكذا استمرّت البطارية، التي تعودت الأخذ منها، في العمل بالرغم من انكسارات في الطاقة التي تمدها والتي يساهم فيها الجسد بحيويته أو الروح بتطلعاتها. البطارية تختزن، إلى جانب الأحداث اليومية، معارف الثقافات المختلفة بأسرارها وجديدها، تشحنها بالقدرة على اكتشاف العلاقة العضوية بين (التخييل) والمخزون المتجدد للبطارية، فأعلم مدى

ا،ا، اطي بالواقع وبدوائره التي تتسع أبداً فتنطلق من النقطة التي أقف ءاريها باتجاه المدى الكوني الذي لا حدود له. ولطالما شعرت باتساع دائرة الواقعية التي يسبح تخييلي في بحرها الواسع، لأدرك ضآلة ما أكتبه. واسرقرق الدموع في عيني وأنا أشاهد مسرحية عظيمة أو أستمع إلى موسيقا تملأ الأعماق أو أقرأ شعراً يمسك بالأنفاس أو أرى مشهداً لأطفال مشردين ورجالٍ مقهورين، فأعلم الكثير عن ضعفي في فعل شيء له قيمة أو في منع الظلم عن الآخرين، وتزداد رغبتي في تجريب مخيلتي لكتابة ما هو افضل، وفي السعي دون توقف لمعرفة أكثر، فأجرؤ على التقدم خطوة أخرى نحو المستقبل الذي لا أجد له تسمية سوى (الأمل المنشود).

14

كانت ليلة (الكتاب) في دار الشيخ نقطة تحوّل في حياة رضا الدسوقي، ففيها توّجت حرقة الحب بفرحة القران وفيها تحقق نجاح الدراسة المضنية، وبالرغم من الشرعية المعلنة كان الرجال يحيطون بالعريس في أرض الدار وتحلقت النساء في الأعلى حول العروس فولّد تباعد المحبين الأشواق المتزايدة.

ساعة العودة بصفية إلى حلب ابتدأت ثوانيها بالزغاريد، وقد خرج الأب عن وقاره فعبرت خلجات وجهه عن سعادة لم تنقطع الابتسامات عن الإفصاح عنها. وانتشرت النشوة في أجساد الأقرباء والمعارف، وتعالت الأناشيد الدينية في فضاء الحوش، فتمايلت النسوة من حول صفية وقد أثقلن الشرفات الخشبية بأجسادهن اللحيمة، واختلطت إيقاعات أقدامهن بنقرات دفوف المجموعة المنشدة، وقد تابع البعض منهن نثر أوراق الورد على رأس العروس التي اختفت سمرتها تحت المساحيق، وتساقط الكثير من الأوراق تلك على رؤوس المدعوين. وسمع قرع طبول من الحي الذي احتفل أهله بأفراح بيت الشيخ وكأنهم يقيمون فرحاً رديفاً إكراماً لأهل الدار الذين بات (الحلبي) واحداً منهم، وتطوع طلاب من الأزهر بتوزيع كؤوس الشراب من الحلة الكبيرة التي انتصبت في مقدم الزقاق لإكرام الجيران والمارة ولتعميم إشهار الزواج بين فتاة مصرية وشيخ سوري، لذا فإن الهتافات لوحدة البلدين اختلطت مع الأدعية الدينية. وقام رئيس المنشدين بمسح رأس العريس وكفيه بعطر الورد اللزج، ليقوم بعد ذلك بالطواف على الحاضرين بحِقه فتلقوه بالترحاب وهم يمسحون بالعطر وجوههم ولحاهم وينادون بالصلاة على النبي الكريم. ويتعالى التكبير مع نهاية الحفل الديني الذي أقرّ به الشيخ صاحب الدار، فيجتمع العروسان في غرفة الفلّ وحيدين، وقد حلّت

اللهفة الكامنة مكان الإنشاد والزغاريد التي ظلت تحاصر لقاءهما المنعزل وكأنّها تقوم بعملية تسخين لطقس الزواج.

وكشف رضا الغلالة البيضاء عن وجه صفية. ووجد نفسه يهتف بحرص منه ألا يبلغ صوته مسامع المحتفلين:

- تبارك الله في صنعه!

وكأنه يلتقي بها لأول مرة، غرق في وجهها بتبتل فأطرقت بخجل، وما لبث أن قال بوقار متعجب كمن يكتشف شيئاً جديداً في حياته:

- يا سبحان الله، ما أجملك من امرأة يا صفية!

فأطرقت تبتسم بحياء عذري أثار عنده الرغبة الجامحة، وأمسكت بيده لتقعده بقربها على ديوانة أعدت خصيصاً لليلة الزفاف، فأمسك بكفها يقبلها كما يفعل مع شيخه والدها فمسحت على لحيته الخفيفة بحنان يحمل الامتنان، فوجد نفسه واقفاً ليخلع عنه جبته ويفرش سجادة الصلاة ويقف مصلياً ركعتين لله تعالى، ويرفع ذراعيه إلى السماء داعياً بالشكر له أنه أنعم عليه، فاغرورقت عينا صفية، فقام إليها يضمها إلى صدره:

- أهي دموع الشكر؟

فتمتمت تجيبه وهي تمسح عينيها بحرص خوفاً على الكحل فيهما:

- ألن أرى أهلي بعد ذلك يا رضا؟

فهتف بحرارة:

- لا تنسي يا صفية أن حلب والقاهرة تقعان في بلد واحد!

وأضاف وهو يقربها إلى صدره بحنان أب:

- وتذكري أنهم أهلي أيضاً.

وحفل الرصيف في ميناء الإسكندرية بالعمائم يتقدم أصحابها الشيخ نفسه وكأنه يقود تظاهرة أزهرية، والتف الرجال حول رضا بينما سبقته صفية إلى ظهر السفينة الروسية، فكان لأي مراقب أن يحكم على رحلة روحية ستقوم بها السفينة دون ريب. كان رضا يتلقى القبلات عندما انتزعه الشيخ من الرفاق ليأخذ صهره بالأحضان وهو يتمتم بدموع أبوية مختنقة:

- ليحرسكم الله ولترافقكم الملائكة في سفركم، ويبعد المخاطر عن طريق حياتكم!

وغمر رضا يد الشيخ بالقبلات وهو يردد:

- صفية بعيوني يا مولانا.

فهمس الشيخ:

- بل قل يا عمي. ألن أكون بإذن الله جداً لأولادك؟

فعاود رضا احتضانه وقد غابت الكلمات وراء الدموع.

وكانت رياح الظهيرة الدافئة تبدو وكأنّها تدفع بالسفينة بعيداً وهي تتقدم نحو عرض البحر ببطء، وظلت ذراعا العروسين تلوحان للمودعين الذين بقيت عمائمهم تلوح كحمائم ترفرف بالوداع المرتعش. وجعل قوس الإسكندرية المنفتح يتسع كأنما شاطئها يعدهم بالاحتواء في عودة المسافرين التي ظلت حسرة فيهما.

«يا غالين عليّ يا أهل إسكندرية»

كانت أغنية (محمد قنديل) تتردد في رأس رضا الذي لم يزر المدينة البحرية من قبل سوى مرة واحدة وقد صلى في جامع (سيدي أبو العباس) الذي لاح له عن بعد وهو يختفي بهدوء، وكأن مصر بأسرها تتوارى عن الأنظار، فلا تبقى في أعماقه سوى الأشواق. وشد على يد صفية بقوة وكأنه يستولي على المحبة لها لوحده، وقال لها وهما يستقبلان النسائم البحرية بنشوة:

- ستحبك حلب، وستجدين ترحيباً من أهلها.

فقالت وهي تسوي خمارها الأبيض على رأسها:

- هذه أول مرة أركب البحر، وأحس بحمايتك فلا أخاف شيئاً بعد الآن!

السماء صافية، والسفينة تمخر المياه الهادئة فيحيط بالعروسين الملتحمين أزرق الفضاء والأمواج التي تفتح الطريق أمام رحلتهما السعيدة. وامتلأت نفسا الزوجين بالأحلام الحلبية تتداخل معها من حين لآخر دموع صفية تذرفها فيفرج رضا عن حزن فراقها وهو يردد لها كلمات مشحونة بالحب والأشعار الصوفية. وتشتعل أحلام أيامها القادمة بالتقارب بين

الروحين والجسدين، فيتسارع الشوق إلى شاطئ الوصول، وكأن العزاء الذي تقدمه تلك الأحلام لساعات الإبحار كان في اجترارها كفاكهة من الجنة لا يشبعان منها. وفوجئ رضا بدعوة القبطان إلى العشاء، فكان قبوله لها بعد تردد قصير لأنه لم يجد تفسيراً لها إلا أنه وجد فيها فرصة للاحتكاك بعالم لم يعرف عنه من قبل شيئاً، وقد تمنعت صفية في البداية لكنها تشجعت وهي تستمع إلى زوجها يقول:

– نحن متدينون حقاً، ولكننا متمدنون، والقبطان رجل كريم حقاً فلا يجوز لنا إعطاءه فكرة غير مستحبة.

وكانت قلعة المطعم الكبرى مزينة بالأوراق والبالونات الملونة، وقد تصدرتها مائدة مستديرة تتسع لعشرة أشخاص كان رضا وصفية من أهلها وقد استقبلهما القبطان كضيفين متميزين فصدرهما المائدة فتبادل الزوجان نظرات الاستعجاب تتساءل عيونهما عن المحتفى به. قال القبطان بلغة عربية متعثرة في بدايتها:

– أهلاً وسهلاً بالعروسين في مركبنا.

فأدرك رضا أن الاحتفال قد أقيم لهما، فوقف منحنياً للقبطان، فاشتعلت بالتصفيق أكف أهل الموائد المنتشرة فرفع رضا ذراعه بالسلام يرد التحية وهو يكاد لا يصدق ما يحدث فيما أطرقت صفية خجلاً. تابع القبطان ترحيبه بلغة باتت مستقيمة بالرغم من عجمتها:

– يسعد القبطان ورجاله أن يختار العروسان السفر معنا، ونتمنى لهما حياة سعيدة.

واخترق الخدم تهاليل الحضور بالكؤوس الكريستال يصبون الشمبانيا للجميع، وقام واحد منهم بتقديم كأسين من عصير المانجو للزوجين، ورفع ربان السفينة كأسه وقد اشتد عوده كقائد حربي وهتف قائلاً:

– نخب العروسين. نخب الصداقة العربية السوفيتية!

كان رضا الذي لم يألف في حياته مثل هذا النوع من الاحتفال أو الترحيب فردد واقفاً والخجل يقيده:

- شكراً لك.. شكراً لكم سنشرب نخب مساعدتكم لنا في صد العدوان عنا.

وتدفق الطعام على المائدة، فهمس القبطان في أذن ضيفه الشيخ:

- طعام حلال، ليس هناك لحم خنزير فيه!

وتقدمت عربة يجرها اثنان من الخدم وقد تهادت على إيقاع ألحان الفرقة التي استمرّت في العزف، وتألقت كعكة كبيرة عليها وقد زينت بكلمات عربية (حياة دائمة للعروسين)، فكان توسط العربة لساحة المطعم قد رفع وتيرة الموسيقا وقد تحولت فجأة من إيقاع غربي إلى لحن الأغنية الشهيرة (والله زمان يا سلاحي)، فوجد رضا نفسه يردد مع كثير من الحضور كلمات الأغنية التي كانت تستنهض الدموع من عينيه فيستعين عليها بمنديل طرزته صفية قبل الزواج، فاستعاد رائحة الياسمين الذي كان يحتوي الزهرات الرقيقة. وعندما لمحت صفية طريقة تعامل زوجها الدقيق مع المنديل أفصحت عن نشوتها لأول مرة في ذاك الحفل فلمعت عيناها كفحمتين مشعتين.

قال رضا وهو يعود بزوجه إلى الغرفة في عنبر النوم:

- ليلة لا تنسى، أرجو أن يستمر الاحتفال بزواجنا دوماً.

تمتمت صفية وهي تكشف عن شعرها الطويل:

- أرجو أن يستمر حبك.

وما لبثت أن رشقت بنظراتها السريرين الضيقين كدرجتين في سلم ركّبا بعضهما فوق بعض، وقالت:

- وهل كتب علينا أن ننام متباعدين؟

فصاح رضا وهو يخلع عنه جبته:

- ومن قال إن النوم مكتوب علينا في ليلة السفر الوحيدة هذه!

ومع ساعات الصباح الأولى أطلت السفينة من بعد على اللاذقية، وقد طأطأت أبنيتها المنخفضة من رأسها وكأنّها تنحني إجلالاً للجبال التي انتصبت خلفها كحراس أشداء تنكروا بأغصان الشجر. وقف الزوجان على السطح متيقظين، فهتف رضا وكأنه يقدم المدينة لصفية:

- اللاذقية ترحب بك نيابة عن حلب التي ستفخر بك.

فقالت صفية وهي تستسلم للريح المنعشة:

- بلادكم جميلة حقاً!

فلكزها رضا بمعصمه معاتباً:

- هي بلادك، وانت أميرتها.

فجعلت صفية تتمتم منتشية:

- جميلة، وسأحبها دوماً لأنك منها.. وأنا منك!

وكانت السفينة تعلن عن تحيتها للميناء بصفارتها المتواترة، وتتقدم متهادية ببطء متفاخر، وعكس سطح البحر الزئبقي حرارة الشمس ليزيد من لهفة الزوجين إلى الوصول.

عينا رضا تتوقدان بالبحث عن الأهل، وكان قد أبرق لهم بموعد وصوله مع زوجه، بينما صفية تزداد التحاماً به تتساءل:

- وهل هناك بحر في حلب؟ أم أن فيها نهراً كالقاهرة؟

فمنعه من الإجابة انشغاله في البحث عن جماعته بين عدد كبير من المستقبلين انتشروا على الرصيف وهم يلوحون بأيديهم وتبدو المناديل الملونة عند بعضهم كالأعلام، إلا أنه هتف بعد لحظات:

- ليس في حلب نهر، ولكنك ستكونين فيها كالنيل.

ويقفز كصبي مشاغب صارخاً وهو يلمح واحداً من إخوته:

- لقد جاءوا.. الح أخي الأصغر.

فقامت صفية بالتلويح بذراعها تساند زوجها في بهجته.

كانت الفرحة عارمة وقد أحاط بها الأهل والصحاب، ودموع والده تبلل لحيته. وكان عدد من زملاء (الخسروية) القدامى قد رفع أعلام الوحدة وهو يهلل لقدوم عالمهم الشيخ رضا. وكانت صفية هي المرأة الوحيدة بين الرجال، فلم تفارق زوجها الذي لم يكن لينفصل عنها إلا حين تغمر وجناته بالقبلات فتشعر بالفخر أنّها أصبحت الآن زوجة عالم فتساوت مع امها في المنزلة. وكانت حماسة الاستقبال قد دفعت بعمال من المرفأ إلى تحية العروسين بالهتاف للوحدة ولعبد الناصر. وسارت مجموعة المستقبلين ببطء

نحو الخارج، لتبتدئ الرحلة إلى حلب التي وقرت في روح صفية أنّها تفتح ذراعيها للترحيب بزوجها رضا.

أقلت سيارة أجرة العروسين وحيدين، فلحق بها ميكروباص احتشد بالأهل والأصحاب، فكان الموكب أشبه باستقبال حاج عائد من مكة تباركه التهاليل والزمامير. وتسابقت عن طرفي الطريق بساتين البرتقال والليمون فكان رضا يدعو صفية إلى متابعة الأشجار ويفخر بالخيرات التي تنعم بها البلاد، فتجاريه وهي تشير إلى البساتين ومن خلفها التلال الخضر وتهتف: «يا سبحان الله» والدهشة تتسع في عينيها وكأنّها زفت إلى رجل خرج لها من أرض مباركة، وتسمع رضا يهمس:

- وهكذا أصبح لك بلاد جميلة أخرى.

فتشد على ذراعيه بامتنان.

ويبتدئ انحدار الموكب في الطريق المتعرجة نحو السهول اللامعة كثعبان جدد جلده، ومع الخروج من الجبال انبسط سهل (الغاب) بسواد تربته وخضرة مزروعاته كصفحة امتلأت بكلمات الترحيب بالعروسين، فقالت صفية وهي تستمع إلى تعليق رضا على المنظر المدهش بأنه يعلن عن فرحه بها:

- أسعدني ترحيب أهلك وأصحابك، وذكرني والدك بأبي، وأنا أتصور أولادنا كم سيفخرون بجديهما.

واستوى الطريق مستقيماً بعد ذلك، تحف به حقول القمح تتألق اصفرارها كالذهب على الطرفين، وكانت صفية قد تساءلت في مرورهم بمدينة جسر الشغور:

- لا يبدو العاصي شكلاً كنهر النيل. أراضٍ غنية كهذه تستحق نهراً أكبر.

فقال رضا آنذاك معلقاً:

- نهر كالنيل ينجب امرأة كصفية.

فهمست هي بتودد أثار اعتزازه بنفسه:

- وبلاد جميلة مثل الشام وحدها التي تنجب واحداً مثل رضا.

ورمت برأسها على صدره وكأن الرحلة تسكرها.

وتجلت حلب مدينة مفتوحة وكأنّها تهدي القادمين قلعتها، فهتف رضا فرحاً:

- ها هي بلدك الآن يا صفية.

فتحفزت أوصالها وهي تحاول أن تستجلي المدينة بأبصارها كمن يبحث عن تفاصيل المستقبل. قال رضا:

- ستكون لك واحدة من أقدم مدن العالم.

وكان يضيف وقد ابتدأت البانوراما بالغياب مع ظهور التفاصيل أثناء الدخول في المدينة:

- على تلة القلعة التي رأيتها، أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يحلب بقرته الشهباء، فبات اسم المدينة حلب الشهباء.

وسمعته صفية وهو يردد كالتلاوة:

- ادخلوها بسلام آمنين.

احتشد جمع من الأطفال والرجال توافدوا من بيوت عقبة الياسمين ومن الدكاكين المجاورة لها، التي قامت في الطريق إلى الجامع الكبير وسوق (المدينة) العتيق، فكان الاحتفال فطرياً بمقدم فضيلة الشيخ والمرأة المصرية وكأنهما سفراء للوحدة العربية. وفي المساء فتحت الدار أبوابها لأفواج المهنئين وقد ضاقت بها، وامتلأت أرض الحوش والغرف الثلاث والمربع العالي بالناس والأهازيج، وكأن والد رضا لم يكتف بالفرح القاهري فأقام لابنه عرساً حلبياً. وغلب مشهد حضور عدد من الشيوخ الصغار بلحاهم الخفيفة يتوافدون على الشيخ رضا يقبلون يده طالبين البركة من القادم لتوه من الأزهر الشريف، ليأخذوا أماكنهم على كراسي القش الصغيرة الموزعة في أقواس ودوائر تحلقت حول البركة التي توالت مياه نافورتها فخيل للناس أنّها تتمايل على إيقاع القدود الحلبية التي استعادت كلماتها أصولها الدينية. الدف والعود والقانون تستقطب آذان الجميع وهم يصغون إلى المغني الشاب الذي تبرع مع العازفين بإحياء تلك الليلة. وقد اشتعلت عقبة الياسمين فرحاً فشارك عدد من أهلها بمتابعة الاحتفال من الأسطحة المطلة على الدار.

وما، نشوة صفية بالقدود وهي تسمعها لأول مرة، تدفع بها إلى التمايل وها. أحيطت بالنسوة في المربع الذي خصّ بهن، فشارك هواء الليل الصيفي في محبتها لمقامها الجديد. ووجد رضا نفسه بعد انتهاء الغناء الذي اختتم مولد أحياه طلاب الخسروية الجدد، يقف شاكراً كل من حضر لاستقباله، ويبتدئ بحديث عن محبة الناس بعضهم بعضاً، ويزداد وقاراً وهو يدعو إلى طاعة الله وإلى التعاطف بين المؤمنين الذي يمهد للجنة، بينما عقله يذهب إلى الجنة الموعودة في المربع الذي خصص لحياته الزوجية، حيث صفية الجميلة بانتظاره.

افتقد رضا من رفاقه، مراد المهاجر والضابط عزمي في غيابهما عن المدينة. وبالرغم من التباعد بينهم، فقد ظلت أيام الماضي هي الأكثر تأثيراً فيه، فلا ينفك عن استعادتها، ولكنه لا يلبث أن يفكر في مستقبله والخط الذي رسمه له شيخه والد صفية والعلوم التي تلقاها في الأزهر بنهم، فكانت أولى الخطوات التي تحققت في وظيفته كأستاذ في الخسروية. وعندما خصته إدارة الأوقاف بمسجد يقيم فيه صلاة الجمعة ودروس الوعظ، تكرس جلّ وقته للتعليم والعبادة والإرشاد، فتزايد عدد المصلين من أهل السوق. وكان المسجد مجاوراً لخان كبير تعجّ مقصوراته وغرفه بتجار الأقمشة وبائعي الألبسة المستعملة، وتحيط به الدكاكين وهي تعرض البضائع المختلفة. فباتت صلاة المغرب اليومية عملاً لا ينفك عن إمامته استجابة لرغبة المصلين وقد أصبح معظم أهل السوق من مريديه، فنزلت مديرية الأوقاف عند رغبتهم ليكون شيخ رضا إماماً لكل الأوقات.

وأضفت حيوية الشباب عنده سحراً اجتذبت إليه آخرين من الأحياء المجاورة بما فيها عقبة الياسمين وبات مسجده الصغير ينافس أحياناً الجامع الأموي الكبير نفسه، فيتداول الناس سيرة الأزهري في قدرته على جعل دنياهم الصعبة طريقاً إلى الجنة الموعودة، ويتناقلون قدرته على ربط الدين بالدنيا، واستشهاداته بحكايات الأنبياء والصالحين والعلماء والمجاهدين وكأنّها مسار عليهم أن يسلكوه. كان الشيخ رضا لا يبتعد عن أحداث العالم في خطبه وأحاديثه في الغرفة الملحقة بالمسجد وقد تحولت

إلى (مقعد) يتوافد عليه المريدون، وباتت مكتباً شبه رسمي له يستقبل فيه
طالبي المشورة أو الفتوى. وبات اسم الشيخ رضا الدسوقي يدل على
المسجد، وبالرغم من أن عام الانفصال وتفكك الوحدة مع مصر قد شهد
تضييقاً على من عرف عنه تعلقه بها، فإن أحداً لم يقترب من الشيخ
الدسوقي مسائلاً أو مضايقاً، فقد أصبح الاحترام له كبيراً في المدينة. وقد
عرف عنه أنه لا يقترب من أي عمل سياسي بالرغم من إغراءات سابقة في
أن يصبح مرشحاً عن (الاتحاد القومي) الذي كان التنظيم الوحيد أيام
الوحدة، فأعلن الشيخ رضا في أكثر من مناسبة أنه مع من يعمل لصالح بلده
ولكنه لا يملك غير المباركة، فالعمل من أجل كلمة الله هي المهمة العليا
بالنسبة إليه. وبات له أصدقاء من غير الأتباع، فتبادل الزيارات مع عدد من
المطارنة ورجال الدين المسيحي يطارحهم الأفكار في أمسيات اتسمت بتبادل
الآراء حول الديانات والتاريخ والآداب ومستقبل الإنسانية التي بدأت تحتل
حيزاً من تفكيره

15 سنوات تتوالى كقطيع بري، تضيع أحياناً وتردُ العين أحياناً، هائمة ولكنها تمضي في طريقها. كان اسمها في البداية سنوات الغربة، والآن اخترع لها مراد اسم (الانتظار والأمل). وابتعدت حلب، وابتلعت الدوامة الباريسية كل شيء. غرق مراد في العمل وحواشيه الرقيقة، فكانت المهام في العمل تشده إلى الأعماق وتمسك هدى بتلابيب روحه تجذبه إلى القاع، فما كان له وقت للإمساك بطيور الذكريات الحلبية المهاجرة. ولقد حاول أكثر من مرة أن يكتب رسالة إلى أهله فيقول لنفسه:

– سأفعل ذلك عندما يكون لي ما أخبرهم به عن الهدف الذي جئت من أجله.

وتكاثر عدد الأوراق البيض التي كانت قد أعدت لتمتلئ بالأخبار والأشواق.

كان العمل في الشركة التابعة لمؤسسة كريم الكبرى، بمثابة ضلع المربع الذي رسمه لمستقبله، وأصبح الحصول على رضا الرئيس الضلع الثاني والذي سيرتبط بالثالث الذي يتعلق بهدى الذي يبتدئ بالحب الخائب وينتهي بالاستحالة ويمر في خط (المفاجأة غير المحسوبة). وكان الضلع الرابع لمساحة عالمه هو المنزل الصغير الذي ورثه عن كوليت، وقد بات حقيقة لمعنى الملكية التي لم يعرفها أحد من أهله أو أسلافه، فتحصّن بين جدرانه العشّ يبثه أشجانه وآماله فأصبح له الحضن الذي يستجير بدفئه من برد القلق. العمل والطموح وهدى والعش، هي الحدود التي رسمها الزمن الباريسي لخطواته يتحرك بها في مربعه. كانت أسرته تدق باب تفكيره من حين لآخر لكنه لا يتطلع إلى حدوده فيجد أنّها مؤجلة إلى زمن آخر لا بد أنه قادم، وسيعوض الوقت الضائع بالنسبة لأسرته بالخير الذي سيقدم به عليها. ألم يقسم على ذلك!

كانت دعوة هدى نجمة مضيئة في سماء حالكة السواد، إذ بعد قطيعة حارقة امتدت لأكثر من أسبوع، يعبر صوتها العذب سماعة الهاتف ليلقي القبض على سمعه وهي تقول:

- أردت أن أحتفل بعيد ميلادي معك.

فعلق لسانه في فخ الدهشة، وسمعها تقول تعليقاً على حشرجة صمته:

- لا أريد للاحتفال أن يكون صامتاً هكذا!

فهتف وقد باغتته ملاحظتها الساخرة:

- لك العمر الطويل يا هدى.

وما لبث أن أسرع بالتساؤل:

- ومتى العيد؟ وأين سيكون الاحتفال؟

فقالت هدى بدلال مرح:

- يصادف اليوم، ولكن ما رأيك في الأحد القادم؟ أن نكون وحيدين أليس هو الأفضل!

وأضافت دون أن تعطيه فرصة تعليق:

- اخترت مطعماً في الحي اللاتيني لعائلة آشورية. خدماتهم خاصة!

ثم تجاوزت موافقته وهي تقول:

- ألقاك عند الجسر الذي يوصل إلى كنيسة النوتردام، ونمشي سوية بعد ذلك إلى المطعم.

وخرس الهاتف فجأة لانقطاع الاتصال، إلا أن الرنين عاد بعد قليل ليسمعها تقول:

- السادسة تماماً عند الجسر. باي!

وأقفل الخط من جديد، فأصيب مراد بالذهول من كل ما حدث في الدقائق الماضية، فجعل كرسيه يدور به كنواس الساعة، كأنما ذبالة الأمل انتعشت من جديد، فمست حرارتها أعماقه.

- ما الذي يليق بهدى؟

ذلك هو السؤال الذي تبادر إلى خاطره وهو يفكر بهدية مناسبة لعيد ميلادها.

- وردة حمراء تشي بعواطفه وتحمل لها إشارة تقول إنّها الفتاة الوحيدة التي تعنيه.

- كتاب أشعار يحكي لها بالنيابة عنه.

ماذا يمكن لشاب مثله أن يقدم في عيد ميلاد فتاة مثل هدى؟ وباتت أسئلة البحث عن هدية تشكل قلقاً حرمه النوم. في اليوم التالي استقرّ الراي وهدأت العاصفة.

ولد المساء الرمادي في ذلك الأحد الربيعي لامعاً، واختلطت ألوانه بماء (السين) الذي أطل عليه مراد من الجسر مترقباً ظهور هدى. وكانت الأمواج المتلاحقة بوداعة كسطح راقص، تلاحقها دقات القلب التي كانت تتسارع مع مرور الثواني في انتظاره المتلهف للقادمة. وكانت السادسة التي تجاوزها عقرب الساعة، ممضة تحمل المشاعر نفسها وهو ينتظر مقابلة كريم في المرة الأولى. وكمراهق وعد بلقاء مع المحبوبة، تحسس جيبه الداخلي حيث الهدية، فأغمض خوفاً من تخيل نظراتها إليها وهي تتأملها والتي قد تكون في أسوأ الاحتمالات تجاوزاً لهدية. وعاود تفحص الوقت في ساعة يحمل مثلها معظم الموظفين وقد قدمت لهم في راس السنة الفائتة، وابتدأ فأر قلقه يلعب، لكنه قال لنفسه:

- من حقها أن تتأخر.. أليست هدى؟

ثم همس بصوت مسموع كمن يخاطب النهر:

- وأنت ألست مراد زكريا! كتب عليك الانتظار.

وكان شاب يحتضن خصر صبية، ويتضاحكان في مشيتهما البطيئة على الطرف الثاني من الجسر وقد شكلا جسراً واحداً، ففص وقد رد بصره إلى (السين) المتهادي بجلال، وعندما ألقى نظرة إلى أول الجسر أطفأ سيجارته التي كان قد أشعلها لتوه إذ لمح قدوم هدى، فتقدمت خطواته باتجاهها، كانت تقترب بثوبها المتأرجحة ألوانه الربيعية كبهجة متحركة، وببطء حديقة أزهار كانت تمشي نحوه بابتسامة كان بريقها يتضح له خطوة فخطوة، فلوح لها بذراعه فرفعت كفها بتثاقل وهي تحمي الشال الذي يضم كتفيها خوف السقوط. وكان اللقاء صامتاً تقاوم حرارته برودة الفضاء الذي

احتفل بهما، فامتدت ذراعها لتحتوي كفه يدي مراد وقد كسر السكون القصير بقوله:

- أهلاً بك هدى.

فتساءلت إن كان تأخرها قد سبب له ضيقاً، فقال بسعادة:

- استطيع الانتظار عمراً.

فنظرت إليه باستتكار عذب، ليمضيا سوياً في الطريق. هل كان الجسر رمزاً للانتقال من ضفة إلى أخرى، من الشك والتردد إلى اليقين والإقدام؟ هذا ما كان يدور في عقل مراد في تجاوز الخطوات مع هدى تقودهما إلى نهاية الجسر. أهو الاحتفال بميلاد هدى، أم أنه ميلاد مرحلة العلاقة القادمة خروجاً من صحراء القلق.

ظهر المطعم في شارع صغير، ذكَّره بزقاق في المدينة القديمة تطل عليه قلعة حلب. فتح لهما الباب الدوار فرجة انسلا عبرها إلى الداخل. وكان المطعم مشبعاً برائحة البخور التي شاركت الأنوار الخافتة في إضفاء هيبة معبد على المكان. وهرولت امرأة بدينة لتحتضن هدى بزنديها المترهلين وهي ترحب بضيفتها بحرارة أم، وما لبثت أن انتظرت ليقدم الضيف إليها، فكان أن هتفت بعد تقديمه: «أهلاً بمراد» وكأنّها تعرفه منذ سنين فعاد الآن من غيبته، فهزه ود المرأة. وقادتهما صاحبة المطعم إلى صدر الصالة، التي انتشر فيها عدد قليل من الموائد الفارغة، فدخلا غرفة بدت لمراد وكأنّها خصصت لهما. الزهور في كل ركن، واشرأبت وردتان باحمرارهما وسط المائدة التي سيحتل طرفها الضيفان. جلست هدى بثقة من اعتاد المكان أو أنه يملكه، وقعد مراد على كومة من الشوك وهو مايزال يحاول التأقلم. وكان جداران قد باتا أرضية لرسوم بالأبيض والأسود، تلال وأشجار عالية وأحصنة متمردة وطيور تحلق. قال «جاكي» الذي أطل مع زوجته البدينة كعمود نحيل، يرحب بالسيدة ورفيقها:

- ليست الأزهار وحدها تهنئ بعيد ميلادك.. ولا البخور الذي يحترق تحية لك.. بل أنا وزوجتي نتمنى لك طول العمر يا زهرة باريس التي تخصنا دوماً بشرف الزيارة.

وانحنى مع زوجته احتراماً وهما ينسحبان من الغرفة التي باتت مملكة للمحتفلين الوحيدين. بعد لحظات عاد جاكي بزجاجة الشمبانيا، ليصب بالكأسين فورانها الذي كان كمن يعبر عن هيجان مراد. وتناهت إلى الغرفة موسيقا البيانو التي أطلقتها إدارة المطعم احتفالاً بعيد ميلاد هدى.

قال مراد وهو يستلّ من جيبه علبة الهدية:

- عيد ميلاد سعيد لزهرة باريس!

فتسلمتها هدى، وظهرها يستند إلى الحائط المخملي، وقد بدت السعادة في ملامحها. كان مراد ينتظر انطباعها وهي تفض الشريط لتفتح العلبة، فإذا بالدهشة تملأ عينيها، وتهتف:

- آه.. يا لها من هدية رائعة!

وجعلت تقلب الورقة الذهبية وكأنّها جوهرة نادرة، وتتساءل:

- ورقة من شجر الغار!

فقال مراد باستحياء ظاهر:

- كنت أتمنى للصائغ أن يصنع لك شجرة غار كاملة.

وهتفت وهي تضع الهدية على صدرها:

- أغلى هدية قدمت لي في حياتي!

ومالت عليه لتقبل وجنته التي التهبت، وقالت له:

- الغار كما يقولون رمز للانتصار، وأنا أريد لك دوماً أن تنتصر!

وامتدت يدها إلى حقيبتها لتخرج منها علبة، قالت لمراد وهي تقدمها له:

- ما هي الساعة الآن يا ترى؟

فكاد أن يتطلع إلى معصمه ليجيبها فأمسكت به وهي تقول محذرة:

- لا أريدك أن تعرف الوقت إلا من تلك التي أقدمها لك شاكرة لك حضورك.

ففض العلبة ليخرج منها ساعة ذهبية لم يرَ مثلها من قبل، فهتفت:

- الآن تستطيع أن تستبدل ساعة الشركة بهديتي إليك، فأنا لا أريدك أن تكون مثل الآخرين. أنت شيء آخر يا مراد!

وتألقت ساعتها الذهبية في معصمه، فانتقل بصره التائه إلى هدى وهو يقول:

- هذا كثير يا هدى.

فردت وهي ترفع الكأس من جديد:

- ليست أكثر من ورقتك الذهبية. بصحة شجرة الغار!

فرفع كأسه منتشياً وهو يتمتم كمن يذوب في الشراب:

- بصحة زهرة باريس.

ودخل صاحب المطعم تلحق به زوجته بطبق كبير يختبئ الطعام فيه تحت غطاء فضي لامع، فمدت هدى يدها بالورقة الذهبية وهي تهتف:

- أليست أجمل ورقة؟ إنّها هدية مراد!

هدى تميزه من الآخرين في مملكة كريم، فما الذي تعنيه تلك الإشارة منها؟. وحدثته هدى عن الاحتفال الذي أقامته لها أمها لبلوغها العشرين منذ أيام، ولمَ أصرت هي على أن يكون الاحتفال الحقيقي بصحبة مراد وحده، أليس هو صديقها!. فقال مراد باعتراف خجول:

- هل تعلمين أن هذا أول ميلاد أحضره في حياتي!

فتساءلت هدى بخبث:

- ألم تشارك أحداً غيري في ميلاده حقاً؟

فقال مكملاً:

- ولن أنسى أنك من منحني فرصة كهذه!

وقال وهي تشبك الورقة الذهبية في ياقة ثوبها:

- الآن تكتمل الطبيعة!

ولمعت الورقة بين ألوان الثوب وهي تشد على يده بامتنان، ودخل عليهما صاحب المطعم بلوح خشبي يحمل وعاءً فخارياً، وقال جاكي وهو يكشف الغطاء:

- هذا طعام آشوري أعدَّ خصيصاً لسيدتنا هدى من لحم خروف وردي.

وعاد بزجاجة نبيذ وهو يقدمها متباهياً:

- «بوردو» معتّق للمناسبة السعيدة!

وكان انهماك هدى بالطعام بمثابة فرصة لمراد يبحث فيها عن كلمات يملأ بها فراغ الصمت، فما إن يعثر على جملة حتى يتخلى عنها باحثاً عن أخرى. كان يحاول أن يجد قولاً يمتحن به موقف هدى النهائي منه وقد هبّ واقفاً يهتف:

- هل أقترح نخباً؟

وأعقب وهو يرفع الكأس:

- لروح السيدة كوليت التي فتحت أمامي أبواب المستقبل، فدخلت من أوسعها إلى معرفتك.

فاستحسنت النخب وقد استجاب كأسها له وهي تقول:

- لهذه السيدة العظيمة فضل على روحي في الموسيقا، وفضل آخر على مشاعري في لقائي بك.

وتساءلت هدى وهي تقترب منه تكاد تلتصق به:

- فرصة جيدة لتحدثني عن طفولتك.

فسخر مجيباً:

- لا أريد أن أعكر هذه المناسبة السعيدة.

فقالت بتصميم وهي تحيط ذراعه بذراعها فيتشابكان ليصبح العشاء أكثر ألفة:

- لا بد أنّها كانت طفولة مثيرة. لا تخفِ عني شيئاً.

وكان يستعيد تفسير جملتها (مشاعري في لقائي معك) ويقلب التفكير فيها كلمة فكلمة وحرفاً فحرفاً.

فلكزته مداعبة وهي تتساءل:

- أين ذهب عقلك؟ ألست معي؟

ودعته إلى نخب جديد يقول فيه ما لم تألفه، فهي ليلة الاستثناء:

- أليس اليوم غير عادي يا مراد؟

- نخب الحياة الفارغة التي لا معنى لها، والتي جعلتها تحفل بكل المعاني.

هكذا هتف مراد، إلا أنّها تساءلت وقد أفرغت الكأس:

- وما هي تلك المعاني؟

فتجمد الكأس في يده حائراً وقد أعيته الإجابة. آنذاك دخلت عليهم المرأة يلحق بها زوجها حاملاً كعكة الميلاد كقطعة سحاب مزينة بالشموع كنجوم متألقة، وهتفا بصوت واحد:

- هديتنا إليك يا سيدتي، مبروك ميلادك!

ووزعت قطع من الكعكة على الزبائن الذين كانوا قد توافدوا على المطعم، فتعالى غناؤهم تحية للمحتفى بها، ومن بعد ذلك أطلوا على الغرفة برؤوسهم وهم يكررون التهاني. فبات المطعم كعائلة واحدة تحيي مناسبة مباركة. وتحولت الضجة بعد قليل إلى هدوء أنعمت عليه الموسيقا الناعمة. وكأن تلك المشاركة الجماعية قطعت على هدى طريق الجواب المنتظر على سؤالها، وكأن ما جرى من تعاطف حميم بينهما دفعها إلى التكرار (وما هي تلك المعاني؟).

هل تعرفين ما هي عقبة الياسمين؟ حارة قديمة في حلب عاشت فيها أسرة بين قبائل صغيرة تعرف كيف تتدبر أمورها بالحيلة. ذهب الأب في غير وقت مناسب وترك أرملة حائرة وبنات ثلاثاً وفتى صغيراً يلاحقه النحس. كان علي أن أساهم في إعالة النساء فكنت رجلهم قبل الأوان، وكنت أباً وأجيراً وعاملاً. كان رفاقي يدرسون ويلعبون ويشتركون في المظاهرات بينما أفكّر في تأمين الزيت والبرغل والفحم لأيام الشتاء وأنقل خيوط الغزل لأمي وأنام على وجهي من تعب اليوم الطويل. وابتدأ الحلم بالهجرة.. بحياة جديدة. وتساءلت مرة ما الذي دفع الجندي الفرنسي كي يترك بلاده ويأتي إلينا؟ أليس هو ابن دولة قوية حقاً.. إذن فلأذهب إلى هذه الدولة. سنوات وأنا أخطط للحلم أن يتحقق. وكان على الشاب أن يحرق مركبه وهو يضع قدميه على أرض السحر هذه، فنفض عن كتفه كل العواطف السابقة وابتدأ البحث عن موطئ قدم له. وبقية الحكاية باتت معروفة، ولكنك لا تعرفين أن عاطفة جديدة قد بدأت تأكل روحه وتضمه في أرجوحة لا تستقر أبداً.

كانت هدى تصغي إلى اعترافات مراد وقد تجهم وجهها، فهتف قائلاً:

- الم اقل لك إني لا أريد أن أعكر هذه اللحظات الجميلة.

فتمتمت بهدوء المستسلم:

- ولم وضعت نفسك في أرجوحة؟

فقال مطأطئ الرأس:

- الا يكون مثلي في أرجوحة القلق؟

- ولماذا.. وأنت رمز للطموح والشباب القوي!

هكذا قالت بينما يشير مراد إلى ساعته الجديدة ويقول بمرح:

- ستكونين معي دوماً.

فتساءلت مستنكرة:

- هل أكون معك فقط عندما تحتاج إلى معرفة الزمن؟

فهتف مصححاً وقد أدرك أنه لم يحسن القول:

- بل في كل ثانية دون أن أعير الزمن أي اهتمام.

كانت هدى تتحدّث عن حياتها:

- توقفت عن الدراسة بعد أن تعبت من البكالوريا اللعينة فهجرتها. هل تعرف لماذا يا صديقي؟ لأنني احس بالملل.

فتساءل مراد:

- لا أفهم ذلك، فأنت فتاة تستطيع أن تحصل على أي شيء!

- وهذا ما حدث.. حصلت على الملل بامتياز.

واكملت بحسرة:

- الوحدة قاتلة يا مراد!

فكان يمسك بكفها ويشد عليه قائلاً:

- هل تقبلين صداقتي حقاً؟

فالتصقت به وهي تهمس:

- ارجو ألا تتراجع في كلامك.

ونادت فجأة على السيدة التي حضرت لتوها وكأنّها بانتظار إشارة

منها في أي لحظة. طلبت هدى زجاجة جديدة من النبيذ، والتفتت إلى مرا
قائلة:

- لم ينته الاحتفال بعد.

إلا أنّها شدته من ذراعه تدعوه إلى مغادرة المكان، بينما صاحب
المطعم تعود بالزجاجة.

- هيا نحتفل في فضاء باريس.

16

أجهش قائد السرب بالبكاء وهو يصغي ذاهلاً إلى الأخبار التي تحمل الخيبة. كان عزمي قد وعد سلمى بنزهة مع الأولاد يوم إجازة، ففتح عليه الراديو سيلاً من الحجارة ترميه بالألم الذي كاد أن يصيب قلبه، فارتمى على المقعد ضائعاً لا يصدق ما سمعه. إنهم يعلنون بالفصحى تمزيق الوحدة بين سوريا ومصر. ودخل سكين الانفصال في جسده يقسمه إلى نصفين، واحد يتآكل بنيران الغضب والآخر يرفض أن يصدق النبأ. وكانت سلمى تعد سلة الطعام التي سترافقهم إلى (شلالات ميدانكي) فالأولاد يتوقون لتدفق الماء، فتركت كل شيء من يديها وهرولت إلى الصالة حيث زوجها يهلوس:

- الويل.. الويل، لقد ضاع كل شيء.

وكانت عيناه المخضبتين بالدموع تتعلقان بصندوق الراديو. فتساءلت عن الخطب، فوقف يحضنها وهو ينشج كطفل صغير.

- ضاع الحلم.. وانكسر الأمل!

بعد أيام من الضياع الحزين تسلم أمراً من القيادة في دمشق نُقل بموجبه إلى وظيفة مدنية وقد وضع تحت تصرف مديرية التموين. فكان ذلك الأمر بمثابة المطرقة التي كسرت أجنحته وفتتت أحلامه. كان عزمي واحداً من كثيرين تم استبعادهم من أسلحة مختلفة في الجيش فبُعثروا في دوائر حكومية لا شأن لهم في أداء أي عمل فيها.

اقتلعت النجوم من سمائها لتصبح أسيرة أرض يباب، فهل حرم النسر حقاً من التحليق وامتلاك الأجواء؟. كان الطيران مهنة وهواية تملكتا روح عزمي، وما عاد بقادر على الانسجام مع شيء آخر غيرهما. وهكذا كانت أيامه في الغرفة التي جمعته مع ثلاثة آخرين عرف فيهم رفيق سلاح في المدرعات لم يلتق به من قبل سوى مرة واحدة. وكان التأمل الصامت وتقليب

الجرائد والمجلات والأحاديث القصيرة عن الجو هي الروابط المتفككة التي تمثل المنفيين الأربعة في الغرفة الضيقة التي لا يتردد عليها المراجعون. ومع مرور الأيام دخلت الثرثرة فترة الدوام لتدور حول الكلمات المتقاطعة وأسعار السوق فلم تخطئ الكلمات طريقها إلى أي امر يتعلق بالسياسة أو أخبارها العالمية فكان الحذر سيد الموقف وذات مرة سأل أحدهم وكان أكثر زملاء الغرفة هروباً إلى الصمت وهو يرافقه في الخروج مع نهاية الدوام الرسمي الذي كان عزمي أكثر الملتزمين به:

- نستطيع إذاً أن نناديك أبا جمال!

فرد باعتزاز:

- عندي خولة وجمال.

فتساءل الزميل وهما ينتظران السرفيس:

- سميت ابنك «جمال» تيمناً بوالدك؟

فأجاب عزمي بحماسة أفلتت منه:

- في الحقيقة كنت حائراً بين اسم والدي وأنا بكره وبين اسم جمال، فوجدت أن الانتساب لرمز تعلقنا به هو ما يجب أن نفعله، فتمسكت بجمال!

وبمجيء سيارة السرفيس ودعه الزميل ومضى.

بعد زمن ابتدأ التملل في غرفة المنفى، فتحول جانب من الثرثرة إلى أحاديث شخصية. قال المقدم السابق في سلاح المدرعات:

- لم أفهم حتى الآن سر إقصائي عن الجيش، فأنا لا أملك أي اهتمام بالسياسة، ولم أعاد أحداً، ولا أعرف شيئاً سوى ملذات الحياة. امرأة جميلة تساوي عندي الجامعة العربية بأعضاء دولها الذين لم أتشرف بمعرفة عددهم.

علق عزمي بقوله:

- أرجو الله ألا تسمع زوجتك هذا التصريح الخطير منك!

فهتف المقدم معاتباً:

- ومن هو المجنون الذي يتزوج أصلاً؟

وقال الآخر الذي يلازم خروج عزمي بين حين وآخر:

- علمتنا هذه الغرفة ما معنى الصمت، فلنمضِ فترة عقوبتنا على هذا المنوال، ولنبتعد عن السياسة سلباً أو إيجاباً. وتكلم الرابع بعد أن طوى كتابه:

- كنت أدرس الرياضيات، وقد استمرّ سكوتي عن السياسة سنوات طويلة، وإذا بهم يضعوني في قائمة الخطرين، فيا له من مستقبل زاهر أن تكون مراقباً للتموين لا يتحرك من كرسيه!

آنذاك حسم عزمي حوار التأفف والشكوى قائلاً:

- وجدت في القراءة العزاء، فما رأيكم بهذا الحل المفيد؟

كان «سامي الأعرج» الذي ابتدأت مرافقته لعزمي لحظة الخروج تقترب بحذر من صداقة قادمة، يعمل محاسباً في وزارة الدفاع، ويتكلم بمقدار ويظهر وداً متحفظاً في تبادل الأحاديث مع عزمي في المسيرة القصيرة، وقال مرة وكأنه يفشي سراً:

- ابني الوحيد سميته «جمال» أيضاً!

فأحس عزمي بقرابة أكبر من الصديق الجديد، فقال سامي الأعرج:

- يسرني أن تراه فهو مازال في الخامسة من عمره، وهو يحفظ عن ظهر قلب جميع الأغاني التي ظهرت أيام حرب السويس ولم يكن قد ولد آنذاك.

ولمح تهلل وجه سامي فبادره بالقول:

- زيارتك بيتي المتواضع ستزيدني شرفاً.

فابتسم عزمي معلناً موافقته.

وكان سامي بانتظاره عند قوس (باب الأحمر) الذي يطل على القلعة، صافحه بحرارة ومضى به دقائق ليصبحا في حارة ضيقة من (البياضة) المتشعبة الطرقات. دعاه إلى الدخول إلى بيته وهو يكرر الترحيب به، فكان الصغير جمال الذي ترك دراجته في أرض الحوش يرمي بنفسه في أحضان والده فخفق قلب عزمي وهو يتذكر لقاء ابنه اليومي له. قال سامي الأعرج وهما يصعدان درج المربع:

- أليس مرعباً الا يكون هناك مستقبلٌ لهؤلاء الأطفال؟

ومضى بضيفه حاملاً الصغير إلى داخل الغرفة الكبيرة التي ضاع اثاثها الفقير فيها. كانت (لبادة) تغطي الأرض وقد انتشرت على أطرافها وسائد وفرشات ملفحة ببسط ملونة فبقيت فسحة المربع كملعب. قال سامي:

- أعتذر نيابة عن بساطة المكان، لكنه مريح يا سيادة المقدم!

فقال عزمي وهو يخلع نعليه في العتبة:

- ارجو أن يكون اسمي دوماً عندك (أبو جمال)، وإذا أردت فاكتفِ بعزمي دون ألقاب أو صفات.

وكانت المكتبية تتصدر الحائط الكلسي بأرففها الخشبية، فارغة إلا من القرآن الكريم وقنديل أثري تمنح بلورته الوردية نوراً من غير نار تعلقت به عينا عزمي، فقال سامي وهو يصب الشاي:

- الكتب كثيرة لكنني وجدت أن القبو أكثر اماناً لها.

فقال عزمي معلقاً:

- تذكرني المكتبية بالتي عند أهلي، لكن قبوهم ليس فيه كتب.

وقال سامي وهو يقدم الشاي:

- علمت منذ أول يوم أن لقاءاتنا ستتكرر.

وتكلم فجأة بصرامته المعهودة:

- سجلك العسكري مشرف، ومسيرة حياتك تؤكد على حبك العظيم للوطن!

فتنهد عزمي بسخرية كسيرة:

- وكان هذا كافياً للحكم بهذا المنفى.

فانبرى له سامي بتصميم:

- من الذي حكم عليه بالمنفى؟ ألا تعتقد أن عصابة الانفصال هي التي حكمت على نفسها!

وجعل عزمي يفكر ملياً بالرجل الذي انكشف له شيء من حقيقته، وكان سامي يضيف بقوله:

- هل تعتقد أن الأمر سيدوم لهم؟

مكانك ليس في تلك الغرفة الضيقة تهش عنك ذباب الملل وتمتلئ اذناك بالثرثرة. السماء بحاجة إليك لحماية البلاد. من التمزق العربي من طرف، وإسرائيل من طرف، والجشع والاستغلال في الداخل يلتهم حقوق الناس. أتظن أن الأمر سيستمر على هذه الحال؟ لا أعتقد أن رجلاً مثلك يقبل بهذه المهزلة المخيفة!

وكان عزمي ينصت إلى الكلمات المتدفقة، فتجاوز وقوفها بتساءله:

- وهل أملك سوى الامتثال. فأنا رجل عسكري يلتزم الأوامر.

فهتف سامي قائلاً:

- ومن يطلب منك أن تخرج عن الأوامر؟ هذا واجبك يا سيدي.

وأضاف كمن يتأمل:

- المطلوب منا أن نفكر في المستقبل، ولا شيء غير التفكير في المستقبل الذي لن يكون بأي حال لتلك الفئة الجاحدة!

- وهذا ما أفكّر فيه ليل نهار، ولكن الطريق مسدود يا صاحبي.

فجاء تعليق سامي قاطعاً:

- ما من طريق مسدود يا سيدي مادام هناك تنظيم محكم يفتح لنا الأبواب! يجب أن نعمل بتصميم على فتح الطريق.

قال عزمي بحسرة:

- وهل يكفي التصميم؟

هزّ سامي رأسه كمن يلوّح بعدم قناعته وقال:

- في كرة القدم يربح الفريق المتماسك الذي يلعب وفق خطة محكمة وتصميم وهو الفريق الرابح!

قال عزمي وهو يعتدل في جلسته الأرضية متكئاً على الطرف الآخر:

- وأي فريق يمكن له أن يقف في وجه الحكومة القائمة، وقد عرفت بغدرها!

كان سامي يصب الشاي من جديد، وهتف بحدة أقل:

- أنت وأنا.. نحن!

فتساءل عزمي ببراءة:

- ومن نحن؟

فتوقف عزمي عن استكمال ملء كأسه، وشعّت عيناه ببريق غريب. قال بعد توقف طويل بهدوء بارد:

- الجماعة التي تعمل بصمت. الجماعة التي تعرف معنى التصميم!

علق عزمي وقد دارت في رأسه أفكار مشتتة:

- سمعت أن تجمعاً للناصريين يعمل في السر، ومادمت أنا قد سمعت بهذا فلا بد أن جماعة الانفصال سمعوا به.

- ما سمعته صحيح، ولكنه ليس الحقيقة.

وجعل سامي يردد متابعاً كلامه:

- وحدة.. حرية.. اشتراكية، أليس هذا الشعار يشابه ما تنادي به تجمعات عديدة؟

فقال عزمي معلقاً بحماسة:

- ولكن البعث هو الذي أطلق هذا الشعار، العدل أن نعترف بذلك!

تمتم سامي بإعجاب:

- معرفتك للحقيقة تثير الإعجاب يا رفيقنا العزيز!

وخيم صمت غلبت عليه الطمأنينة، كان عزمي فيه يعاين جذوع الحور وقد بدت له تحمل السقف كمظلة عالية طرزت بقايا من أطرافها بزخرفة بهتت ألوانها وكأن حمض الزمن لحق بها، إلا أن البقايا مازالت تدل على عراقة سالفة. أعاده سامي إلى ألفة الكلام وهو يقول:

- بيت عربي قديم تكاثر عليه الزمن، لكنه لم يزل باقياً، وهكذا نحن، تكاثرت علينا المؤامرات ولكننا نعمل.

وأشار سامي إلى القنديل قائلاً:

- أجيال استخدمته من قبل، وهو مازال صالحاً برغم دخول الكهرباء، أترى إلى قاعدته المرمرية؟ إنّها القاعدة التي تحمله، وأي قاعدة سليمة في المجتمع ستساعد في حمل شعلة النور! هذا هو ما نحن عليه يا سيدي.

قال عزمي، وهو يخلع عنه سترته الجلدية بالرغم من تسلل البرودة عبر النوافذ الطويلة:

- اعرف أشياء عن تنظيمكم، وكان رفيق سلاح يتحدث عنه أحياناً، لست أقول لنفسي أن خدمة الوطن تصلح أيضاً كطيار يحمي السماء والأرض!

هتف سامي وقد اتخذ موقعاً تعليمياً في جلسته:

- كنت الأول في دفعتك، وكنت من جملة طيارين يفخر بهم البلد، ونحن نحترم مواقفك وإخلاصك، ولكن من هو برأيك سيعيدك إلى التحليق في السماء نسراً وطنياً؟ الحزب وحده وهو ينتصر في معركته على الذين كسروا الحلم وأعاقوا المسيرة. الحزب هو الذي سيكرم من أهينت كرامته وهو الذي سيصحح الانحراف.

وأضاف سامي مستثيراً ضيفه قائلاً:

- قل لي بحق الله، ألم تصب أحلامك بالإهانة يا سيدي؟

فهتف عزمي بحرقة:

- بل كان خنجر الانفصال يستهدف القلب!

فعاد سامي إلى هدوئه وهو يخاطبه:

- فلنداو الجرح، ولنردّ الخنجر إلى قلب من أساء إليك.

- لم يكن جرحاً وحسب يا صديقي!

كان عزمي يتمتم وهو يستوي جالساً، ليقوم واقفاً وهو يعتذر لضرورة عودته إلى البيت، فالأولاد بانتظاره وقد تعودوا حكاياته قبل النوم، فقال سامي مودعاً:

- أرجو أن يكون لقاؤنا قريباً.

واصطدمت القلعة بأفكاره المتوالدة كسرب طيور مهاجر، وهو ينفذ من قنطرة باب الأحمر مستعيداً ما سمعه من سامي الأعرج. وتوقف يتأمل الدمل الهائل الذي نبت في الخندق الواسع وكأنه ينتظر منه أن ينفجر. وانعكست الأنوار المحيطة بالقلعة شاحبة عليها فازداد اضطراب عزمي. كانت إحالته إلى وظيفة مدنية دملاً في مسيرة أيامه الكئيبة، فهل يصبح اشتراكه في تنظيم سري إبرة تفثأ الدمل؟ وهل يتحول إلى (خلد) تحت الأرض بعد أن كان نسراً يحلق في الفضاء؟ ما الذي يدفع برجل كالأعرج

إلى الانتماء لحزب يُلاحَق أفراده؟ وهل يمكن له أن يشترك في حزب سري قد تدفع سلمى والأولاد ثمنه؟ أيستسلم لمصير الوظيفة الميتة ويرتضي لنفسه أن يدفن في حفرتها؟

أسئلة كانت تتزاحم في رأسه وهو ينعطف بمشية متباطئة بعيداً عن القلعة وهي تلاحقه حتى غاب عنها، فوجد نفسه يفكر في الشيخ رضا الذي ظهر فجأة على شاشة تفكيره. كان اللقاء به بعد عودته من الأزهر نادراً وقد تباعدت بهما المسالك. كان على مسافة من مسجده، فقرر أن يتوجه إليه، فكأنما ابتعاد رضا عن السياسة سيخلق عنده توازناً يواجه به الضغط الروحي الذي مارسه عليه الأعرج بلباقة.

وانحدر مسرعاً مروراً بخان الوزير فالجامع الأموي، وإذا ما بلغ مدخل السوق الذي يتوسطه مسجد الشيخ رضا توقف متردداً فقد أخافه تصوره لمجلس الشيخ المحتشد بالناس كما عهده في المرات القليلة السابقة، إلا أنه استجمع إرادته ودلف إلى الداخل يطرق باب مقر رفيق الصبا فجاءه صوته يدعوه. وقام الشيخ من خلف مكتبه الخشبي الأنيق مرحباً بحفاوة رددت الغرفة الخاوية حرارتها. تعانقا، وكان العتاب رقيقاً بعد أن مرت شهور كثيرة لم يقابل فيها رضا صديق العمر.

كان الشيخ قد ازداد وقاراً وخطّ الشيب المبكر أطراف لحيته السوداء فتألق سحر هيبته. أخبار الصحة والعائلة والعمل، فحزن رضا لما حدث لعزمي ودعا الله أن يعينه في محنته، وكان الود المتبادل يخيم على الغرفة التي ازدانت بآيات ضربت على النحاس. قال عزمي فجأة:

- وهل ترى يا عزيزي الشيخ أفقاً واضحاً تسير إليه الأمور في البلد؟

ردّ رضا كأنه يختبئ في جبته من جديد:

- لا يعرف الغيب إلا الله!

فتساءل عزمي ملتاعاً:

- ألا تدلك بصيرتك على شيء ما؟

فرد الشيخ كمن يريد أن يضع نهاية لمثل هذا الحديث:

- الخير فيما اختاره الله.

فحملت كلمات المنفي غضباً وهو يقول:

- وهل هو خير حقاً أن يعاقب من يعمل من أجل الوطن؟

آنذاك هتف الشيخ:

- لا تشكك بإرادة الله، فهذا حرام يا عزمي!

فاستعاد عزمي هدوءه وهو يقول:

- إرادة الله هي العليا أبداً، ومن يتجرأ عليها يا صديقي! لكن الله لا يحب الظلم لعباده.

ردد الشيخ مغمضاً:

- علينا أن نصلّي دوماً لله العلي القدير كي يمحق الظلم.

فقال عزمي بضيق وكأنه يعلن الغضب على أقوال الشيخ:

- وهل توقف الصلاة سكيناً يطلب جزّ عنق أو قتل نفس؟

فصاح الشيخ رضا وقد أفلت الغضب من لسانه كطلقة مجنونة:

- لا بارك الله في كفر أو تشكيك!

فأطرق عزمي بخجل وهو يتمتم مسموعاً:

- وهل يشك في إيماني يا شيخنا؟

وهتف مستجمعاً شجاعته:

- وهل يلام الطير الذبيح على ارتعاشه؟

فما عتم الشيخ أنْ حوقل وبسمل واستغفر، وردد قائلاً:

- اطلب العذر منك يا صديقي، فأذناي لم تعودا تطيقان سماع أي انحراف.

فهتف عزمي وقد زادته كلمات الصديق قوة:

- وعيناك يا عزيزي، أتطيقان الانحراف؟

وأكمل قائلاً:

- إنهم يقصون الأجنحة، ويبنون سداً أمام أحلامك، ويدفعون بك إلى حفرة النسيان، فبأي لسان تريد أن أتكلم! أن أصرخ أم ألعن أم أدعو لهم بالخذلان وأنا المهزوم؟

فاقترب الشيخ منه على الأريكة ليربت على كتف عزمي مواسياً وهو يهمس:

- بعد قليل يعلن المؤذن عن صلاة العشاء، فتوضأ ولنصلّ جماعة، وليكن توجهك إلى الله صادقاً فهو السميع المجيب.

فوجد عزمي نفسه وقد انتفض واقفاً ليخطو نحو الباب يلاحقه صوت الشيخ:

- مكان الوضوء عن يسارك. جعلك الله من أهل البر.

فاستمرّ عزمي صامتاً في خطواته خارجاً، ليجد نفسه في السوق من جديد وقد أقفلت دكاكينه.

كلمات سامي الأعرج ترافقه في الطريق، وبسملة رضا ومواعظه تلاحقه. وكان الغضب مايزال ينفخ في جمرات التشويش القائم في روحه. لقد ظن عزمي أنه سيجد الراحة عند رفيق الطفولة فتبين أنه لا يفتح له باب الطمأنينة، بل وجد نفسه تفكر من جديد في دعوة سامي له بالانضمام إلى حزب يبشر بالخلاص. قال لنفسه وهو يقطع الطريق عبر فوضى سيارات ساهمت أنوارها في إيقاظه:

- لا يمكن لعسكري أن يعمل في تنظيم مدني.

ثم قال كمن يحدث شخصاً يستمع إليه باهتمام:

- يبدو أني لست العسكري الوحيد!

وردد بصوت خفيض:

- أن أفعل شيئاً خير لي من الجلوس عاطلاً في غرفة الصمت والإهمال تلك.

ومال إلى دكان صغيرة فاختار لأولاده فاكهة مختلفة الألوان.

17 توجس مراد شراً، وارتعش قلبه خوفاً وهو يتلقى في الهاتف استدعاء مدير المكتب لمقابلة الرئيس لتوه. فكانت أوامر كريم كما أفصحت عنه كلمات المدير الصارمة، تدل على أمر جلل، فاستمرَّ قلقه يتنامى وهو في الطريق إلى إدارة المؤسسة.

«هل بلغ الأب خبر لقائه بهدى؟»

وقال مراد لنفسه:

- وها هي ساعة الحساب قد جاءت!

وكان يستعرض كل مرحلة مرت عليه منذ التحاقه بالعمل عند كريم، فيجد أنه كان مُرضياً، ولطالما تلقى الثناء على أعمال استثنائية. فلمَ التخوف من المجهول القادم، وما هو سبب ذلك الاستدعاء! وهل وشى به أحدهم حسداً فبات من الموظفين الذين لا ينالون الحظوة؟

واستقبله الحارس العجوز بتحية مفسحاً مجال الدخول إلى بهو المؤسسة، فاعتبر ابتسامته فأل خير، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى مخاوفه وهو يقف في مكتب المدير منتظراً أمر الدخول على الرئيس. وكان صمت المدير المطبق نذير شؤم فتأكدت له شكوكه، فاستدعى في سره الملائكة لتقف إلى جانبه في محنته القادمة، وجعل يستذكر بعضاً من السور القصار من القرآن يرددها في سره محاولاً إعادة التماسك إلى روحه الممزقة.

«ما الذنب في أن أقبل دعوات هدى؟».

وجاءت اللحظة الحاسمة، فتسلل مذعوراً ليقف كجندي مهزوم أمام قائد كبير. وسمع بأذنيه تحية الرئيس له «أهلاً بمراد»، فلم يصدق سمعه. وقال كريم وهو يقلب مجموعة أوراق انتشرت على مكتبه:

- خذ مقعداً لجلوسك يا مراد.

فجلس على أقرب مقعد جلدي عند أول القاعة، فإذا بكريم يكتشف بعده عنه ليقول له:

- اقترب أيها الشاب، فأنا أريدك أن تسمع حديثي جيداً.

فزحف ككلب مطيع يتوجس شراً أو أنه يطلب الحنان، ليحتل الكرسي الأقرب من المكتب وهو يتحاشى النظر إلى الرئيس. تساءل كريم إن كان يدخن وهو يقدم له سيجاراً قصيراً، فأبدى مراد اعتذاره شاكراً وهو مايزال يتوقع شيئاً خطيراً سيحدث.

- هل تعلم أن العطور ومستحضرات التجميل هي من الفروع التي أعيرها اهتماماً خاصاً. أنا أحبها لرهافة التعامل بها.

وأضاف كريم بروح مرحة:

- الحديد والفحم والحبوب، وأشياء كثيرة كما تعرف ولكن شركة العطور هي مدللتي!

وقال كريم متابعاً بسرور واضح:

- وأعتقد أنك تشاطرني الرأي، فشاب مثلك يقدر الأشياء الجميلة دون ريب!

آنذاك احتلت الطمأنينة قلب مراد، مدركاً أن الظنون والوساوس لا أساس لها من الصحة، فاستحضر هدى إلى مخيلته وعانق رقتها. كان كريم يتحدث بجديته المعروفة:

- أريدك أن تكون في مكتبنا الذي سنحدثه في المكسيك. اخترتك أنت لتنظيم إنتاج تلك المستحضرات الدقيقة ولتسويقها في أمريكا شمالها وجنوبها.

ولم ينتظر رد فعل، فانطلق يتابع:

- العطور الفرنسية كما تعرف مرغوبة في العالم بأسره، لذا أريدك أن تكون في مستوى المسؤولية. إنه سوق كبير قد يعادل بقية الأسواق.

وأعقب كريم كمن ينهي الحديث:

- هي فرصتك أيها الطموح. تصور أنك ستدير عملاً في مركز استراتيجي لسوق لا مثيل له!

فتساءل مراد في سر اختياره لمهمة كهذه، أهي نعمة أم انه امتحان!

ذات يوم خيل له وهو يصعد درج القلعة، أن البوابة المحروسة بالأفاعي الحجرية والنقوش هي التي ستدخله تاريخ حلب وماضيها، وها هو الآن يدرك أن باريس أصبحت بوابة يدخل منها إلى العالم فيتحقق له ما هو أكبر من الطموح الذي كان يرسمه في ذهنه. وتساءل مساء ذلك اليوم وهو في الطريق إلى الدار:

- هل يعقل أن تحدث لي مثل هذه الأمور المدهشة في سنوات قليلة؟ صداقة هدى ورضى كريم وأبواب مفتوحة أمام تجربة لا أعرف مدى أهميتها إذا ما نجحت؟

وتمنى لو أنه يمتلك الجرأة على الاتصال بهدى من أقرب هاتف، وقرر أن يتعود التفاؤل، وأن يعطي للزمن فرصة لمزيد من النجاح. الم يكن عشاء ميلاد هدى الشمعة التي تضيء له الطريق؟ ألم يقلده الرئيس وسام الثقة؟. ودلف من باب الدار كنسمة في ليل حلب الصيفي. وارتمى لسعادته على المقعد الذي اختصت به كوليت، واستسلم لفيض الأحلام يتساقط عليه كشلال. ولم يدر كيف تداعت فكرة (جدول الضرب) إلى عقله، فابتسم وهو يتصور أن الرقم الذي يضرب بآخر يتكاثر، وها هو رقم أحلامه يُضرب فيحس بالتكاثر والنمو، فهتف بصوت مرتفع رددته الجدران:

- يعيش جدول الضرب، وليسقط الصفر!

آنذاك بلغت مسامعه نقرات خفيفة على الباب الخارجي فتجاهلها وهو يستبعد فكرة أن يكون أحد يعرف مسكنه، وتكررت النقرات وقد اشتدت فأصغى متعجباً. أيعقل أن يكون الزائر ذلك الشاب التونسي الذي التقاه مرة في المقهى القريب من عمله فتبادل معه الحديث والعناوين، وكان الشاب يدرس الفنون الجميلة، فقام مراد متثاقلاً إلى الباب. وحدثت المفاجأة. وقعت عيناه على غابة سحرية تتفتح أشجارها نجوماً.

«هدى!»

كانت هدى تقف أمامه وهي تغطي ببريقها الممر المعشوشب وتصنع

عتمة المساء خلفية هائلة تظهرها كملاك، فتخر عليه كشهاب. قالت هدى، وهي تنتظر انتقال دهشته إلى دعوة لها:

- الا يتسع البيت لاثنين؟

فتراجع مراد إلى الداخل ووجهه الذاهل يدعوها، فخطت بثقة نحو الداخل، وكانت تدور ببصرها في المكان وكأنّها تكتشف مغارة الكنز، وندّت عنها شهقة وهي تهتف:

- يا الله، كما كنت أتصوره، حميم وكأنه حقيقة بيت الألفة هذا!

وما لبثت إذ لمحت البيانو أن توجهت إليه، وقد رمت بمعطفها الرقيق ومحفظة يدها على الأريكة، وجعلت تداعب المفاتيح وهي واقفة، ثم جلست على كرسيه لتتابع الاختبار الذي تحول في لحظات إلى عزف حقيقي. وكان مراد الذي مازال غير مصدق، تتقاذفه أمواج بحيرة التعجب الذي وجد نفسه غارقاً فيها. وباتت الصالة الصغيرة مسرحاً لمستغرقين، كل في فلكه يدور، هدى في موسيقاها النزقة، ومراد في دهشته المزقة. وتوقفت أصابع هدى إلا أنّها ظلت جالسة دون حراك، وكذلك مراد الواقف بانتظار أمر سيحدث. دقائق متطاولة كجمود يتمدد بفعل حرارة خفية، وكأنهما قد تحولا إلى أثاث آخر. استدارت بغتة وكأنّها تفاجأ من جديد بالمكان، فتدور بعينيها فيه، لتقول:

- بيت صغير.. لكنه جميل!

فوجد مراد نفسه يقول وكأنه تحرر من الحيرة:

- هذه هي الصالة.. وهناك غرفتان أيضاً، كذلك مطبخ وحمام. دار تليق برجل وحيد!

فقامت إليه لتخرج من محفظتها زجاجة تقدمها إليه وهي تقول:

- نبيذ الاحتفال بانتصاراتك القادمة!

«أي انتصار تقصد؟»

«الانتصار الأكبر هو حضورها بنفسها!»

وهتفت بمرح وكأنّها تكمل عشاء الميلاد الذي غمرته فيه بصداقتها:

- الزجاجة بين يديك، والاحتفال مازال غائباً!

وتابعت بجدية مفاجئة:

- أنا سعيدة بعملك القادم، فثقة كريم بواحد من رجاله تعني النجاح.

وقالت وهي تنزع المنديل الأحمر الحريري عن رقبتها:

- وأنا حزينة لأنك ستبتعد.

وهتفت وقد أخذت مكانها على الأريكة:

- أين الكؤوس، أريد أن أشرب نخبك وأنت بقربي.

نديمان يتساقيان الود. تشرب من كأسه ويرشف من كأسها، والأحمر الدموي يترقرق في الكريستال يهيج فضاء المكان. وكانت البهجة قد نضحت من وجهيهما وهي تتمتم متملية من عينيه القريبتين:

- الآن أرى بوضوح رجولة تطلعاتك! هل قال لك أحد إن أنفك جميل حقاً؟

فقال مراد باستحياء يقيده بثقله:

- ولا بد أن عدداً كبيراً من المعجبين قد أثنى على جمالك!

فمالت عليه بنشوة لتطبع قبلة على خده الذي كان يشع كعذراء تملكها الشوق إلى الحبيب. وهبت واقفة كالنزوة وتساءلت عن مقعد مدام كوليت المفضل، فأشار إليه لترتمي عليه هدى جالسة وهي تقول:

- أريد أن أبقى دوماً قريبة من معلمتي وصديقتي. ألم تكن هي السبب؟

فتساءل مراد بخبث لم يعهده في نفسه من قبل:

- كانت سبباً في ماذا؟

فمدت هدى بذراعها تحمل الكأس الذي افتقد النبيذ. وقالت باسترخاء على المقعد وكأنّها تريد أن تملأ كل زاوية منه بجسدها النحيل:

- هل تتكر يا مراد أنّها هي التي قدمتك إلينا؟

ووجد نفسه يجلس على كرسي البيانو كمن يستعيد دفء هدى الذي تركته فيه، فلم يجرؤ على الإفصاح عن أي من الأفكار التي تراوده. وكانت النشوة قد أخذت بالصبية فخلعت حذاءها وتدفقت في الكلام:

- لم أشعر بسعادة كما أنا الآن. كوخ كهذا يجمعني بصديق مثلك.

سنوات من الخواء مرت. رفاق يلتفون من حولي، يذهبون ويتجددون، ولم يكن لي طلب لم يحققه أهلي، ولم أشته شيئاً لم أحصل عليه. تائهة في صحراء، كنت أبحث وأضيع من جديد، وها أنت معي. هل أقول إنني وجدت شيئاً له قيمة! هل وجدته حقاً؟

وهتفت فجأة وهي تقف على قدميها الحافيتين فتضرب الأرض بتصميم:

- ألا تنفع ليلة كهذه للرقص؟

واقتربت منه فاتحة ذراعيها، فاقترب بدوره ليحضنها، فكانا راقصين دون موسيقا. وجعلت تدندن بلحن بطيء فتتمايل وكأن السماء تعزف لها، وهو يحاول أن يلاحق خطواتها وهو الذي لا يعرف من قبل ما هو الرقص. هتفت بصوت خفيض:

- استسلم لي، فأجعل منك أمهر الراقصين.

قال مراد وقد تملكت منه حمى النشوة:

- وهل أستطيع إلا أن أستسلم لك يا زهرة باريس!

فهمست في أذنه متهدجة الأنفاس:

- كرر ما قلت لي يا مراد.

فكان يفعل أكثر من مرة، ومن ثم أضاف:

- أيها الملاك الذي سرق أدوار جميع الملائكة في الرفق بأحوال عبد لا حول له ولا قوة.

فتضاحكت تقول:

- ستصبح شاعراً لو استمرّيت..

ومالت عليه لتطبع قبلة خاطفة على شفتيه، وقالت وهي تتراجع لترتمي على الأريكة:

- الآن عرفت سر اللغة العربية!

وقالت وهي تغطي جسدها بالمعطف:

- باريس عجيبة حقاً، فأنت لا تعرف بردها من دفئها!
وأشارت له أن يحتل مكاناً بقربها، ففعل متردداً ولكنه ما إن وجد رفعة له حتى هبت واقفة من جديد ممسكة بيده وكأنها تقوده وهي تقول:
- أريد أن أعرف كل شيء عن معيشتك وحيداً في هذا المكان.
- ها هي الغرفة التي تضم الأوراق والكتب التي تساعدني على التخلص من جهلي. غرفة النوم التي يمتلئ فضاؤها بأحلامي. المطبخ والحمام الذي يغسل ماؤه أوهامي.
فهتفت هدى تعليقاً على تقديم أركان البيت:
- لِمَ تقرن الأحلام بالأوهام؟
فأمسك به الصمت، فتساءلت من جديد وكأنها تعاتبه:
- الأحلام للرجل القوي، والأوهام للضعيف. لم أعهد بك سوى القوة!
فارتد إلى الصالة يحتمي بمقعد كوليت فلحقت هدى به. الصمت يعود ثقيلاً. الشاب غارق في أحزانه، والصبية تعود إلى البيانو لتطرد الهدوء القاتل بالمفاتيح التي انطلقت بتعاقبها ترسل الموسيقا. قالت هدى:
- اقترب مني فأنا أريد أن أعزف لك وحدك.
فتقدمت خطواته واحدة فواحدة، ليجد نفسه قريباً، فهتفت برفق:
- هل المسافة بيننا كافية لسمعك؟
فالتصق بظهرها، فكان احتكاكه بظهرها ينوس مع ضرباتها التي ابتدأت تشق طريقاً لها نحو العنف، فأحس بالخدر كمن يحلق بين الكواكب. وانقطعت هدى بغتة لتستدير إليه وكأنها أصبحت بين أحضانه. تجمد وهي تنظر إليه، وتمتمت:
- ما الذي تنوي أن تقوله لي؟
فانسحب خطوة إلى الوراء وقد جف ريقه ليقول بصعوبة:
- وهبتني نعمة الصداقة يا هدى.. فهل أطمع إلى نعمة الحب؟
فارتدت إلى البيانو لتستنهض العنف من جديد. وسمع لغطائه بعد لحظات صوت انطباقه بشدة، فاستيقظ مراد من ارتعاشه، وتمتم بضعف:

- هل تجاوزت حدودي؟

فاستمرّ صمتها الذي تشعب ليأخذ على المكان أنفاسه ليسكن كل شيء، وإذا بالضوء المنبعث من ركن الصالة يصبح عتمة محيرة تجوس فيها روح مراد الضائعة.

«أغضب هو أم أنه استهجان؟ وهل تجاوز الحلبي سور الجنة الباريسية؟». الصمت عقاب! واستمرّت هدى في صمتها الذي جعل يحرق أولى بوادر الشجاعة من مراد. واستدارت مرات على الكرسي وهي تضم كفيها بتصميم بين ساقيها لتبدو كريّة دار تستعد لتوجيه تعليماتها الآمرة.
قالت هدى بهدوء أثاره:

- تطمح إلى نعمة الحب؟

وهتفت بقوة:

- مثلك يا مراد يطلب الحب كي يناله!

وتوجهت كرمح نحو صورة شمسية يحيط بها إطار من خشب ثمين وتساءلت:

- لست أنت، لا بد أنه عزيز عليك، فالصورة وحيدة.

قال مراد وهو يقترب منها:

- صورة الابن المفقود. أحتفظ بها إكراماً لكوليت التي أحببت فيها الأمل الذي لا يموت.

فمشت نحوه لتمسك بكتفيه تهزهما برفق وهي تقول:

- يعجبني الوفاء، أعتقد أن خصالك عززت ثقة كريم بك!

وهتفت هدى وهي تسترد معطفها:

- عندك يا مراد من الصفات ما يفتقد إليه جيل كامل من الشباب.

وفيما تربط المنديل كانت تقول:

- أرجو أن يكون صدقك مثل وفائك لمدام كوليت!

فهتف متوسلاً:

- لا يمكن لي أن أعرف غير الصدق معك، فأنت الواحة التي يقصدها الضائع فيستريح.

فأرسلت ضحكة لم يعرف لها معنى، وحملت حقيبة يدها ومشت بخطوات خلفية نحو الباب وقد ظل حائراً في وقفته ليقول بضعف:

- هل حان وقت العودة يا هدى؟

فقالت وهي تفتح الباب:

- أكمل النبيذ، واشربه نخب نعمة الصداقة.

فهتف مصححاً:

- نعمة الصداقة والحب!

فأفلتت هاربة دون تعليق، فلم يستطع أن يتبين غيابها عن عينيه.

18 لمعت عينا سامي الأعرج في ظلمة المدخل الطويل كنفق لم يألف النور، وكانت كلمات الترحيب بالضيف الذي لم يتردد في تلبية الدعوة، تنير الطريق أمامهما مروراً بحوش الدار متجهين إلى (المربع)، وكانت خطواتهما المتتابعة كأنهما يلتحقان بصف مدرسي. وفي الغرفة العالية هبَّ ثلاثة رجال للترحيب بعزمي كضيف شرف فصدروه المكان، واقتعد سامي مخدة وجعل يفخر بصداقته الجديدة بضابط شريف تعلق السماء آمالاً عليه وكذلك الوطن الذي يفتقد نشاطه. ولم يعرف عزمي عن الآخرين سوى أنهم رفاق مقربون، فلم يفارقه الاطمئنان، فكان أول من أشعل نار الكلام.

كان الحديث يشيع مرحاً في المكان، فبدا الأمر وكأن الرجال في مقهى يتبادلون الفكاهات التي شاعت مؤخراً عن حكومة الانفصال دون إشارة إلى أي اسم فيها، وكأن الجمع يتحدث عن وضع سياسي لن يكون له وجود، فكانت السخرية من النظام الذي لا شرعية له، يظهر ثقة الرجال بأنفسهم وكأنهم يملكون المستقبل، أو أنهم يعرفون متى يكون دفن النظام.

وأعلن الانتهاء من احتساء الشاي عن بداية جديدة، فنهض واحد من الرجال بحيوية عمره الأربعيني وهو يفرد لفافة كبيرة من الورق المقوى ويتجه بها إلى المكتبية، فيثبتها بمسامير على الأطراف الخشبية، فإذا هي خارطة للوطن العربي. تأملها الرجل معايناً ثباتها ثم وقف على طرفها كمعلم في مدرسة يضع إصبعه على موقع سورية ويهتف بتصميم:

– من هنا أيها الرفاق ستنفجر ثورة البعث فتنسحب آثارها على مساحة الوطن العربي!

وما لبث بعد تأمل أن قال:

– الوحدة مع مصر كانت البداية. الشرارة لم يطفئها الانفصال الخائن. الوحدة العربية الكاملة هي النهاية، وسنعمل على تحقيقها من هنا. هذا عهد علينا.

وأنشأ يهتف كفتى تملكته الحماسة:

– أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة!

فكان الرجال يجيبونه بترداد الكلام نفسه، ووجد عزمي لسانه يرافقهم الهتاف بعفوية. وجعل الأربعيني يقول برتابة:

– لن يكتب لخيانة الانفصال البقاء، ولن يهنأ لنا بال إلا بالقضاء على غدرهم.

وتساءل بحماسة متظاهر أيام الاستعمار:

– هل يسقط المايكروفون حلمنا بالوحدة؟ من هم؟ مجرد حثالة تبحث عن منافع شخصية! من نحن؟ أهل الحق نصحح مسيرة التاريخ!

وعاد إلى مكانه يسترد مخدته التي يتكئ عليها وكأنه أنجز المهمة التي جاء من أجلها. وتسلم علم الموعظة السياسية شاب يبدو من بقايا شعر رأسه الحليق أنه خرج من السجن حديثاً، فجعل يتحدث من مكانه وهو يشير بيده إلى موقع عزمي:

– إذا كان الانفصال قد حرم السماء من بطولة طيار شريف، فإننا سنرسل بروح الخيانة إلى السماء كي لا تعرف لها مستقراً، كي لا يعود هناك من يجرؤ على تكريس العزلة بين العرب. هم صنيعة الاستعمار ونحن أبناء العروبة الحقيقية!

وتدخل سامي بعد توقف الشاب، فقال متوجهاً إلى عزمي:

– هل نستمع إلى رأي صديقنا؟ أظن أن له قولاً.

فاتجهت الأنظار نحو عزمي الذي قرأ الإلحاح في العيون، فجعل يستجمع نفسه ويبادر بالقول:

– يبدو أن الحل بات جلياً، فلقد جاء دور الفئة المعتدية على إرادة الشعب أن تزاح.

وتابع بعد صمت قصير وهو مازال يبحث عن كلمات تناسب المقام:

- مرت عليّ أيام وأنا أفكّر فيها بحلّ، وأعتقد أنكم تسلكون الطريق المناسب.

وسكت من جديد، فحرّك صمته تصفيق الآخرين بحرص خوفاً على سرية الجلسة. وقام سامي متهللاً يقول:

- كنت أعلم أن انتساب صديقي إلينا سيكسبنا قوة.

وتوجه إلى عزمي مخاطباً:

- نرحب بك أيها الرفيق.

ومال عليه محتضناً يقلبه بفرح غامر، فلحق به الآخرون يعبرون عن السعادة، وهو لا يستطيع أن يخرج عن قلقه الذي برعم فجأة في أعماقه. قال سامي مرحاً:

- سيرافق احتفالنا غداً بانتساب الرفيق عزمي إلينا، عشاء يليق بأهمية نسرنا وحامي سمائنا، وسيكون قسمه بداية لقوة أكبر لن تعرف سوى النصر بإذن الله.

غمرته أحاسيس متضاربة كريح تلعب بأوراق متساقطة، فتطير وتحط على الأرض وتتصادم كثورة بلا هدف. كان قد مشى مسرعاً من (البياضة) ليقف عند (عقبة الياسمين)، فوضع قدمه على درجتها الأولى وهو يراقب تخبطه الذي لم يتوقف. شهد الدرج الحجري المتآكل طفولة فقيرة ولكن السعادة آنذاك كانت تظهر له التآكل وكأنه زخرفة رسمها الزمن في تعاقبه الذي دفع بالأولاد كي يصبحوا رجالاً. ما أكثر الأقدام التي داست الدرج الذي كان في البداية واسعاً فبات ضيقاً، وهكذا كانت الفسحة بين الجدارين واسعة فضاقت عليه، فكان يتأمل الكلمات على ضوء مصباح مرتفع. كانت الأحجار الكلسية التي أبرزت حروفها السود قد ازدادت سمرة هي أيضاً، وساهم الغبار الذي حط كالحمام على بياض الكلس في جعل تلك الكلمات باهتة، إلا أن ما يربطه بالحارة مازال ناصعاً وهو يشعر أن التل الذي يحتضن العقبة يمنح الكبرياء، ذكرياته وأهله الذين لم يغادروا كانت القطب الذي يجتذبه.

صعد عزمي ببطء فكاد طفلان يتسابقان أن يدفعوا به أرضاً، فاستند

بذراعه إلى الجدار فطبع السخام آثاراً على كفه. وبدا لباسه المدني غريباً عليه، جار قديم فلم يعرف صاحبه، فتذكر يوم عاد إلى الدار بلباسه الرسمي والنجمتان تلمعان على كتفيه، كيف أنهالت عليه التهاني وعبارات الاحترام وملأت فضاء الحارة زغاريد النسوة وكأن عقبة الياسمين عقدت صلة القربى مع الحكومة. وشعر في تلك الليلة المعتمة أنه بات ذلك المنفيّ الذي ألحق العار بحارته وحشر في زاوية الإهمال. وعندما طرق الباب قبل أن يدس المفتاح الكبير في القفل وهو الذي لم يفارقه عندما انتقل إلى البيت الجديد والذي شكل له عبئاً في حمله كمسدسه الذي انتزع منه، كان يفكر في قسم الانتساب إلى الحزب إن كان سيعيد لعقبة الياسمين عزها السابق، أو أن ذلك القسم سيكون ثقيلاً على روحه كما حدث له يوم القسم العسكري الذي مازال يسري في عروقه كما الدم. تمتم عزمي وهو يهم بالدخول:

- القسم شرف الإنسان!

كان الوالد في ركنه يراقب دخان نرجيلته، وهمت عليه أمه بالقبلات تعاتبه، فغيابه قد طال أكثر من يوم وهي التي لا يمر عليها صباح أو مساء دون أن تراه. الدار هادئة من غير ضيوف أو أحفاد، فخاطبه الأب وقد اتخذ له مجلساً قربه:

- ألم يحن وقت العودة إلى عملك الرسمي يا ولدي؟

- أنا أعمل في الحكومة، والتموين وظيفة رسمية!

وكان قد وقر في عقل العائلة أن ما حدث لعزمي إنما هو أمر مؤقت، فالضابط يعطي الدار هيبة بلباسه ونجومه، وظهوره كمدني يعريها من آمالها. قال الوالد يعيد النصيحة التي تكررت من قبل:

- يجب أن تجد طريقة للمصالحة مع الذين يحكمون، فعودتك إلى طائرتك تسعدنا وترجع إلى وجهك الابتسامة.

فلم يعلق عزمي بكلمة كما هو شأنه في كل مرة يُطمئن فيها العائلة، وتذكر معنى كتمان الأسرار إذ راودته فكرة الحزب الذي دعي إلى الالتحاق بصفوفه، فتساءل إن كان أبوه قادراً على توجيهه، لكن إصراره على العودة إلى الجيش بأي ثمن جعل منه أكثر تحفظاً. وسمع والده يقول وهو ينفث الدخان:

- فقدت السيارة التي كانت تقربنا منك، ولم يعد لك حاجب يقوم بخدمتك.

ثم تابع بغضب خفيف:

- ولا املك من امري سوى إحناء راسي إلى اسفل عندما اسأل منك، وتبخش أذني تحية الشامتين وهم يقولون مساء الخير والد المقدم.. اهلاً بوالد المقدم.

واعقب وهو يسوّي نيران النارجيلة بملقط الفه اهل الدار منذ القديم:

- برضاي عليك، حاول أن تستعيد رتبتك، فوظيفة التموين تلك لا تليق بك يا ولدي!

وعلقت الأم بحزن خفي:

- كان أهل الحارة يزورون الدار بلا انقطاع، وعندما أدعى إلى زيارة احد يكون لي الصدر دوماً.

وتنهدت قائلة:

- أشفق على نفسك وعلينا، واعمل أن تعود إلى الطيران.

ضحك عزمي، كمن يمنع نفسه من الدخول في حوار غير مجد، وقال:

- دعواتكم لي ورضاكم، وأرجو الله أن تستجيب لها السماء!

هل يستطيع الحزب ان ينتصر حقاً، فيستعيد هو أجواءه المفتوحة ليحرثها بطائرته؟

كانت الأفكار تتوالد وهو ينحدر عائداً من عقبة الياسمين إلى الساحة. يمشي قليلاً ليستقل بعد ذلك سيارة أجرة تقله إلى داره. كان يوازن بين موقف الأهل ورجال الاجتماع يتحدثون عن مستقبل البلد بحرارة المحب، وتساءل في سره عمن يكون على صواب فأجاب أن قراره هو ما يجب أن يكون.

وجد الصغيرين يغطان في نوم ملائكي وسلمى بانتظاره وقد أعدت العشاء، فألقى بالأفكار بعيداً وارتدى الطمأنينة وقد وجدها في قلق سلمى

عليه. كان الحب بين الزوجين يبتدئ عادة من جديد بعد كل غياب مهما طال أو قصر، فارتمى في أحضانها كطفل وقد تحولت قوته إلى لجوء المستضعف طلباً لحماية. قالت سلمى وهي تمسح على رأسه بكف من حنان لا يتوقف:

– تبدو اليوم على غير عادتك مهموماً. لا تحزن يا حبيبي فما ضاقت إلا فُرجت! ضائقة فرج!

وراودته نفسه أن تدور كلماته حول سره، والحنان يتسرب إلى جسده خدراً ويتوسع سمعه بحثاً عن عزاء، إلا أنه لجم ضعفه بالصمت. وكانت سلمى تهمس وكأنّها ترعى طفلها قبل أن يستسلم للنوم:

– حبك هو الأمان مهما مرت علينا ظروف قاسية. ألا يكفينا من نعمة أننا نحن الأربعة نعيش تحت سقف واحد يظللنا الرضى!

فوجد عزمي روحه تسبح في متعة كالتي ترافق تحليقه في السماء. وقالت سلمى:

– أنت مظلتنا تخيم علينا، وسعادتك تنعكس على حياتنا، فحافظ عليها لأنّها هي سعادتنا!

أقسم عزمي الفارس. لامست كفه القرآن الكريم بمهابة اختلج لها جسده، وكانت شفتاه تردّدان القسم بثقة العسكري الشريف، فغمرت خديه قبلات رفاق الاجتماع وقد باتوا عشرة يتبادلون التهاني للربح الذي كسبه التنظيم بانضمام عضو جديد. وتراصوا حول أطباق القش الملونة كقبيلة منتصرة يلتهمون الطعام بمرح ويتبادلونه بمودة أصدقاء عمر. وكان عزمي في تلك اللحظات يحس وكأنه يعود إلى سربه، وبالرغم من جهله بالأسماء الحقيقية لمعظم الحاضرين فقد شعر بقربهم منه كرفاق الصبا وقد خرجوا من الماضي متهللين بلقاء بعد طول غياب، وأدرك أن هؤلاء باحتفائهم به وكأنهم يمضون به إلى مستقبل أفضل. وكان عزمي في تلك الليلة الهائجة بالمشاعر يشعر بالمسؤولية الجديدة وكأنّها عبء ثقيل عليه أن يكون أهلاً به.

وكان أسبوع قد مر على عشاء القسم، إذ استدعاه الأمن هاتفياً، فثارت مخاوف عزمي في الطريق إلى مسؤول في المخابرات العسكرية وكان

قد طلب منه بلطف أن يقابله. أفكار تحوم عليه كطيور جارحة، فهل بلغ بهم الاستهتار حد الأمر هذا، وهو من أوائل الطيارين تفوقاً ورتبةً. فسجلّه العسكري يستوجب احتراماً أكبر من الاستدعاء، أم أنهم قد علموا بتنظيمه في الحزب ويريدون استجوابه، وهل كانت هناك خيانة أو وشاية؟. وارتدت الأفكار لباس المخاوف، فخلعها عن رأسه وهو يدخل المبنى المدجج بالمسلحين وكان حرباً قد تقوم في أي لحظة.

عبر الممر الطويل الضيق ليجد نفسه في غرفة صغيرة للانتظار، لكن العسكري فيها ما لبث أن قاده إلى غرفة أخرى، ففوجئ بملازم أول يهب واقفاً لرؤيته ويترك مكتبه الأنيق متجهاً إليه يمد ذراعه بمودة كبيرة أعقبت تحية عسكرية لائقة. دعي إلى الجلوس على مقعد اتخذ الملازم واحداً قبالته وهو يعاود الترحيب بعزمي ولا ينفك عن مناداته بسيدي، فملأ المقعد براحة من استرخاء بعد توتر. وقدمت له علبة السجائر مع القهوة التي حضرت، فازداد عزمي اطمئناناً وسخر من وساوسه التي لازمته طوال الطريق إلى المبنى.

قال الملازم أول بلكنة غريبة عن المدينة:

- هل تسمح لي بالعودة إلى مكتبي يا سيدي؟

وما لبث أن احتل مقعده السابق كمسؤول تحيط به أجهزة الهاتف عن يمين ويسار، وجعل يقلب أوراقاً أخرجها من مصنف أمامه، وارتسم الاهتمام على وجهه وهو يستعرضها بعينيه كأنما يقرأ سطوراً فيها، فرجعت الوساوس إلى عزمي تدور في فلك الوشاية المحتملة، إلا أن الشاب قال بوقار يفوق رتبته:

- سجل يليق بضابط سوري حقيقي. تفوق والتزام وتفان!

وقال بعد صمت وهو يتابع تقليب الأوراق كمن يبحث عن شيء ضاع منه:

- لا يليق بواحد من نسورنا القلائل التي يعتز بها الوطن، أن يكون في وظيفة مدنية!

وأرسل ضحكة لم يجد لها عزمي تفسيراً، وهتف:

- التموين! يا للسخرية!

فاندفع عزمي بحرارة تماسكت بعد جملة واحدة فباتت وكأنه يدلي بتقرير بارد:

- تصور، التموين! هي أوامر القيادة. العسكري الحق هو الذي يلتزم بالأوامر مهما كان شأنها.

وأردف وقد استوى في جلسته وكأنه يستعد للإدلاء بأمر هام:

- الطاعة يا سيدي الملازم أول هي الشرف!

فغمره الشاب بنظرة ثاقبة وقد طوى الملف وقال بهدوء:

- هذا ما تتوقعه القيادة منك. الطاعة يا سيدي.

واستدرك واقفاً من جديد بعد أن سحب ورقة من درج المكتب يمد يده بها إلى عزمي:

- القيادة تفكر في عودتك إلى قاعدتك.. إلى سربك يا سيدي!

وقال مضيفاً وهو يسلم الورقة:

- يريدون توقيعك على هذه، وتوقيعك هو القسم يا سيدي!

وكان عزمي يبادله النظرات المتفحصة ويقول:

وأنا بانتظار هذا القرار. ولكن توقيعي على ماذا؟.

واسترق نظرة إلى محتويات الورقة، فقال الضابط الشاب:

- التوقيع على شيء يتعلق بالتزام الطاعة. أن تعمل من أجل البلد دون غيرها. لقد انتهى وقت الاستعباد سيدي، ونحن جديرون بأن نحكم أنفسنا بأنفسنا.

واستمهل الشاب قليلاً ليتابع بعد ذلك حازماً في قوله:

- يريدون منك يا سيدي أن تشجب وصاية مصر علينا. نحن نريد الاستقلال وقد حققناه بذراعنا!

كانت عواطف عزمي في تلك اللحظات الحاسمة تنوس بين الرفض والحكمة في إعلان موقف، وجعل يقرأ في الورقة بتمهل فلا يلمس في نفسه قدرة على اتخاذ قرار. القسم الحديث الذي أداه في بيت سامي والقسم العسكري الذي التزم به في القاعدة الجوية! وها هو مطالب الآن

بمسم من نوع جديد، فأي حفرة تمتلئ بالحيرة قد وقع فيها؟. وقال الملازم اول فجاة وكأنه يرمي له بطوق النجاة:

– خذ وقتك يا سيدي، وأنا بانتظار عودتك مع توقيعك. فالقيادة يسرها ذلك!

وقال الشاب وهو يودعه إلى الخارج:

– قلائل من هم في مثل وضعك، فكرت بهم القيادة، وأظنها فعلت خيراً. شرفتني معرفتك سيدي!

خرج عزمي تائهاً بعد أن دخل متوجساً. وقد قرر الا يعود إلى التموين خوفاً من تساؤل الآخرين هناك. فاتجه حائراً في مشيته ليجد نفسه في الحديقة العامة، فاستقبلته الأشجار والألوان الخضر بالسكينة تتسلل إلى قلبه. تذكر (الأورمان) في القاهرة وهو يجول بين أشجارها يخفف عن نفسه الفراق عن سلمى والأولاد، ووجد الأطفال ينتشرون تحت اشعة شمس حلب الدافئة، ومتقاعدين ومشردين يحتلون أرائك خشبية، فانزوى جالساً على صخرة مهملة يتأمل في ما حدث له وفي ما قد يحدث. ولم يكن في مقدور افكاره التي مازالت مشتتة أن تهديه إلى حل، فاستعذب الحيرة.

ووجد نفسه في المساء يتجه إلى سامي الأعرج، ليدخل داره من غير موعد، فوجد الترحيب بانتظاره.

اقتعد البساط متكئاً على مخدة وكأن هموم الدنيا تركبه، فبادر صاحب الدار بالقول راجياً:

– لا أريد أن أشرب شيئاً. أريدك أن تستمع إلي وتساعدني في محنتي.

وكان سامي يستمع إليه بإصغاء شيخ حكيم، فيبادر بالقول بعد أن روى له عزمي تفاصيل ما جرى له في الصباح بحرارة شاب صغير:

– أعتقد يا أخي العزيز ورفيق النضال، أن الحزب لا يجد غضاضة في عودتك إلى سلاحك!

ثم أضاف بكثير من التصميم:

- بل إن في عودتك فائدة لا تقدر بثمن.

وكان صمت عزمي قد توقف فجأة وهو يقول:

- لا أحتمل المخاتلة. الازدواجية لا تطاق!

فتساءل سامي:

- وما هو القرار الذي تجده مناسباً؟

فهتف عزمي بصلابة عسكري مقاتل:

- أقسمت بالولاء للحزب ولن أحنث به، ثم إني لا أستطيع مناصرة جماعة الانفصال بأي حال من الأحوال!

وكان دخول الطفل الصغير بصينية الشاي قد جعل للحديث نهايته.

19

انتفض جسد الهاتف بالرنين لأول مرة بعد دخوله صباحاً دار مراد، وجاءه صوت السكرتيرة يقول إن مكتب المعلم الكبير قد هتف له بعد مغادرته مساء فأعطته الرقم الجديد، وما إن انتهت مكالمتها حتى طغى الرنين من جديد، فكان مكتب كريم يخبره بضرورة الحضور لتوه لمقابلة الرئيس. وكان يتمنى من قلبه أن تكون المخابرة الأولى من هدى التي ستبارك السماعة وأذنه المصغية لها. ومضى مسرعاً إلى المقابلة التي يظن أنها ستكون حاسمة بلا خوف.

وفوجئ مراد بغرفة الاجتماعات التي يدخلها. كانت كنسخة من واحدة من صالات قصر فرساي، فتسربت الهيبة إلى قلبه. وخفف من وقع السحر ترحيب كريم به وكان قد تصدر الطاولة المرمرية التي تسربت في سطوحها عروق من الذهب وكأن قطعة من الجنة سقطت عليها فتجمدت. ووقف الرجال الخمسة لمراد وهو يقدم إلى مجلس إدارة شركة التجميل، فتبادل معهم انحناءة الرأس الوقورة. وكان كريم يقول:

- هذا هو رجلنا!

احتل مكانه وهو يصغي مع الآخرين إلى كلام الرئيس الذي وقف بعصا طويلة يشير إلى خارطة انتصبت خلفه. كان يدل بالعصا على القارة الأمريكية، وقال وهو يشير إلى اتساعها:

- هذا هو سوق المستقبل!

فجال في عقل مراد سؤال:

- لم أنا؟ ولم أكن يوماً في شركة التجميل والعطور التي أسمع بها ولا أعرف شيئاً عنها!

وكان كريم كأستاذ متمرس يتحدث عن مشروع كبير أثار فزع مراد:

- أمريكا الغنية تجاورها الوسطى، وها هي اللاتينية، فتكون لنا

القارة بأسرها سوق المستقبل. هنا سنحدث المركز الذي سيتوسط السو، مدينة مكسيكية صغيرة تقع على حدود كاليفورنيا. الانطلاقة ستكون م . . هذه المدينة. العطور ومواد تجميلية فرنسية، ستنتشر في القارة الكبرى س!ا. السحر لأنّها الأشهر.

واستقرأ كريم أثر كلامه، فلم يكن هناك سوى الإصغاء المستسلم. فاستمرّ قائلاً:

- التعبئة، كذلك الصناعة من المواد المتوفرة، وآمل أن يكون زه ر الصبا واحداً من مصادر تلك المواد وأعتقد أنه سيكون حدثاً في مملكه العطر. المكسيك أيها السادة بلد حضارة عريقة وأيدٍ عاملة رخيصة وتنمو فيها فنون خطيرة وتتنوع الطبيعة بجنون يتماشى مع صناعتنا هذه. نجاحنا سيستوطن بامتياز ذلك الجزء من العالم، فليكن هدفنا هو التوجه إلى المستقبل.

دارت في مخيلة مراد صورته وهو يقيم هناك «في المكسيك يتكلّمون لغات لا أتقنها وبخاصة الإسبانية الرسمية»، إلا أنه لم يجرؤ على إبداء ملاحظة، وتابع الإصغاء إلى الرئيس وهو يتابع عرض مشروعه:

- الكيمائي الخبير سيكون من هنا، والمترجم والقانوني سنستخدمهما من هناك، ومدير المشروع المسؤول عن كامل المشروع سيكون السيد مراد زكريا!

وابتدأ التصفيق مهنئاً فتبعه أعضاء المجلس بتهذيب تقليدي، ووقف مراد يبتسم بخجل وهو يرد على التحية بانحناءات متتابعة. وطوى الرئيس إضبارة المشروع وهو يربت عليها بكفيه، وقال حاسماً:

- سيقدم المدير تقريره الأولي خلال أسبوعين من إقامته في (ماكسيكالي)، يحدد احتياجات الفرع التي سيؤمنها له مجلس الإدارة. شكراً لكم.

فقام الحضور ينصرفون تباعاً، وكان مراد آخر الموجودين يتبعهم، فاستوقفه الرئيس.

أخذه كريم بيده كصديقين، ليعود به إلى مكتبه من باب جانبي، وكان

مراد يقلّب ودّ الرئيس باحثاً عن سبب للاهتمام الذي أحاطه به. أتراها هدى لعبت دوراً؟ فكر في سبب آخر مستبعداً ذلك الاحتمال. أتراه الدم العربي؟. ولكن الجواب كان مزيداً من الحيرة. هتف كريم وقد توسطا الغرفة:

- اسمع أيها الشاب، أكرر القول فأقول من جديد إنّها تجربتك، لو نجحت فيها فسيكون لك شأن في هذه المؤسسة، وأنا أثق بأنك أهل للنجاح!

فاطرق مراد براسه وهو يقول:

- وهل أستطيع أن أكون إلا موضع ثقتك، فأنت وليّ نعم كثيرة غمرتني!

وقال بصوت ملؤه الامتنان:

- لن أنسى ما حييت ما قدمته لي سيدي.

قال كريم وهو يعود إلى مقعده الدوار خلف المكتب الزجاجي:

- معك فترة أسبوع للتحضير للسفر، فكن مستعداً فالرحلة مثل المهمة شاقة!

حزن لمفارقة هدى، وخاف المهمة، ولكن نشوة العمل المجهول تتولد من رغبة التحدي التي ملكت عليه مشاعره، إلا أن ما كان يدور في رأسه وهو يتجه إلى بيته تحول إلى دهشة غامرة وهو يرى هدى تعود قاطعة ممر الحديقة بخطوات متباطئة تحمل خيبة من صده الباب، فتقابلا في منتصف الممر. كان الضوء الشاحب وهو يرتفع على عمود كحارس للحديقة، يعجز عن كشف ملامح وجه مراد التي تهللت بفرح، بينما كان صوتها الغاضب بعتاب واضح:

- لم يكن باب البيت لطيفاً معي، فلم يفتح لي.

وقادها برفق إلى الداخل وهو يقول ضاحكاً:

- سأستبدل بالباب اللعين باباً آخر أكثر تهذيباً، وأنا أعتذر لك نيابة عنه.

وفوجئت هدى بجهاز الهاتف، فقال مراد وهو يشير إليه:

- سأكون دوماً بقربه أنتظر مكالماتك.

فارتمت على مقعد مدام كوليت وهي تتمتم بأسى:

- المسكينة كانت تلجأ إلى الجيران لاستخدام الهاتف.

ثم استوت في جلستها تتساءل ببراءة متحسرة:

- هل اقترب موعد السفر حقاً؟

فأدرك انّها تحيط بأحواله في المؤسسة، فهل تقف وراءه حقاً أو انّها تبيّت أمراً لا يحسن تقديره. قال لها بلهفة:

كنت أتمنى أن أبقى في باريس، ألست فيها؟

فقالت وهي تفتش في محفظتها بحثاً عن شيء تأكدت من وجوده بعد لحظة:

- وأنا أتمنى أن تحقق ثقة كريم بك!

وخلعت هدى حذاءها السميك، الذي كانت تبدو به كقادمة من صيد، ورمت بالزوج لتسقط واحدة إثر أخرى محدثة ضجة رددتها الجدران، وهتفت:

- سأحس بنفسي حافية!

وجعلت تمشي على خشب الأرضية بتوازن وكأنّها تقطع مسافة بين تلتين يمتد حبل بينهما، وكانت تقول وكأنّها تكلّم نفسها:

- هل تعلم لِمَ أنا حافية؟ من غيرك أنا هكذا.

وعاد يحلل الكلمات بحثاً عن أمر قاطع فيها، أهو التلميح؟ أم أنّها لعبة القط والفأر؟، فكان عاجزاً عن إدراك الحقيقة.

وتوقفت فجأة ليعود إليها وقار السيدة الأرستقراطية، واتجهت إلى حذاءها تدخل قدميها فيه، لتمشي إلى الباب الخارجي مستعيدة محفظتها، وقالت:

- كنت أتمنى أن أفاجئك قبل أن يخبروك بشكل رسمي.

ثم ما لبثت أن عادت إليه وهي تخرج كتاباً دفعت به إليه:

- تستطيع أن تقرأ كل شيء عن المكسيك، فأنت بحاجة إليه دون شك.

وما كاد يتفحص غلاف الكتاب حتى تذكر أمر الهاتف ليسعى إلى ورقة وقلم ليكتب الرقم ويقدمه لها، فقالت هدى وهي تردد تفاصيله:

- هل أنت اخترت هذا الرقم؟ أم أنه جاء مصادفة!
فحار في أمر جواب يقدمه، فداهمته فكرة ترجمها بقوله:
- ماذا يعني لك الرقم الزوجي؟ إنه يعني الكثير لي، وقد حالفني الحظ. هل تعتقدين أن الحظ يحالف شاباً مثلي؟
فهتفت معاتبة:
- الا يقف الحظ إلى جانبك وقربك، ومن خلف وقدام؟
وقالت وهي تمرق كالسهم من الباب الخارجي:
- يجب أن أعود. سلاماً مراد.
وأفلتت هاربة فلم يتمكن من اللحاق بها.
ها هي شخصية هدى تتكشف له يوماً فيوماً، وكان مسترخياً في مقعد كوليت ما بين الاستسلام والتوتر. هو لا يفهم تماماً تلك الصبية التي باتت تسكنه، وكضائع في صحراء يلاحق سراباً يعلله بالحقائق من حين لآخر. أن تمتحن قربة الماء فتجدها مليئة لتكتشف بعد قليل أنّها فارغة، وكذلك تتمسك بها وتضمها إلى صدرك خوف الضياع، فتمنحك القربة الأمان تارة وتعذبك بالقلق تارة. هل يظن أنه بات لعبة تقلباتها، أم أنّها تقلبه على نارها لمعرفة درجة احتماله؟ ليتها تأمره بالاستسلام فيفعل، دون أن تكون هناك درجات من الامتحان يتعثر عليها هبوطاً أو صعوداً، ترفعه بابتسامة فيطير الأمل وتسحب الأرض من تحته فيسقط في خندق قلقها، ووجد نفسه يهتف:
«أتراني أسيء التقدير والتصرف؟»
وكان اليوم التالي حافلاً بعمل أثمر عن جمع الكتب عن العطور واللغة الإسبانية وأساليب الإعلان والتسويق، وحصل على قدر كبير من النشرات المتعلقة بالمواد التجميلية والعطور في شركتهم والشركات المنافسة. وبات له حقيبة امتلأت بالمعلومات التي تصور أنه بحاجة إليها في المهمة القادمة. وكان الكتاب الذي قدمته هدى عن المكسيك كتميمة تحميه، فأمضى جانباً من ليلته يقرأ فيه كطالب مجدّ استعداداً لامتحان خطير. وكان خيال هدى يخرج من بين المدن والتلال يجول معه يداً بيد، فكانت تدل على سهل

تناثرت عليه الورود أو تشير إلى زهرة الصبا فيدرك معنى الشوك وهو يحتضن الرائحة الذكية النادرة. وكان الخوف من التجربة التي وضع فيها لا يعادله سوى أسى الابتعاد عن هدى.

وجاء المساء الآخر بظلمة متفتحة عن أريج الفرح، فتسلل صوتها عبر الهاتف ناعماً كقبلة تدغدغ سمعه. كانت كلمات هدى كالبشارة وهي تعلمه أنّها قادمة إليه لتوها وتفضل القهوة الإيرلندية. وتبدد هدوء الدار. كان يقطع المسافة ما بين المطبخ والنافذة المطلة على الممر، يشرف على إعداد القهوة ويعود ليسترق النظر ولا يلبث أن يعود إلى المطبخ، وهكذا مضت الدقائق الثلاثون سنةً من التلهف، فهتف لنفسه:

«وكيف سيكون الحال في الأيام المكسيكية؟»

وعاين ساعة يده فكانت دقائق قلبه تسابق العقارب، وباتت ثواني القلق تتسلل إلى روحه بزمنها المتمهل يمشي على عكازين.

«أهو ضعف الحب، يجرد بقوته الصبر والتعقل؟»

«أليست طويلة تلك الطريق واختناقات الزحام تسدها؟»

وكانت الساعة في نهايتها، عندما توقف التساؤل في عقله، وتناهت إلى أذنيه المتحفزتين نقرات صاخبة على الباب لا تحدثها سوى أصابع هدى، فانطلق كالمحموم تكاد صرخة أن تفلت منه، لكنه تمالك وفتح الباب.

كانت هدى تتوهج بابتسامة دخلت بها لتضع حقيبة سفر أنيقة على الأرض، ومالت على مراد بقبلة الأصدقاء، واتجهت من فورها إلى مقعد مدام كوليت معلنة عن تعبها. هتف مراد:

- هل تعلمين مقدار قلقي عليك. ساعة مرت بقلق لا يوصف!

فقالت بدلال وهي تمد ساقيها طلباً لمزيد من الاسترخاء:

- حسبت أنك ستقول اشتقت إليك!

واضافت وهي تستعيد الجلوس وكأنّها تستعد للإدلاء بتصريح:

- لا تنس بعد غد. موعد الطائرة اقترب.

وأشارت بيدها إلى حقيبة السفر قائلة:

- لا اريدك أن تحمل معك اي ملابس قديمة.

وقالت بمرح طفولي:

- بحثت عن ملابس تناسب مدينة مكسيكالي، فالمكسيك طقسها حار، مدار السرطان يمر فيها. هذه الحقيبة هي زوادتك، ولا أريد أن يلامس جسدك سوى هذه الملابس.

كان مراد يريد أن يعلق بكلمة، لكنها سبقته بقولها:

- ستجد كل ما تحتاجه في هذه الحقيبة. آلة الحلاقة أيضاً. وأتوقع أن لا تكون المسافة البعيدة سبباً في النسيان!

آنذاك هتف مراد بحماسة فياضة:

- لن يكون زادي في الغربة سواك يا هدى!

أطرقت فجأة وهي تتمتم بصوت مسموع:

- غيابك يخلف أثراً كبيراً يا مراد.

ثم هتفت بعتاب مرح:

- أين القهوة بالكونياك أيها البخيل!

ظل مراد يستعيد في المطبخ كل كلمة ملأت بها الفضاء منذ دخولها. أهي رعاية الأصدقاء، أم عناية الأم، أم واحدة من حيل المحبين؟ تتساءل في تصحيحها لقوله إن كنت اشتقت إليها، وهل في ذلك شك! وتقول إنّها لا تريد أن يلامس جسدك سوى هذه الملابس، وهل أجرؤ على استخدام غيرها؟ وتقول عن المسافة قد تكون سبباً في النسيان، ألم يدخل اسمها بين الحروف والكلمات فأصبحت فيها كالنقاط التي تمنحها المعنى، ألم يحتوِ اسمها قوسان يميزانه من كل ماعداها في كل زمان؟

وعاد بطبق القهوة ليجدها قد رمت بمعطفها جانباً وجعلت تمشي في الصالة وكأنّها غارقة في حل مشكلة عويصة، وكان جسدها قد امتشق كجذع شجرة متناسقة يحيط بها الجينز الضيق وقميص يتبرعم فيه ثديان صغيران يسعيان إلى الانفجار وقد تسلق جلد الحذاء إلى الركبتين فبدت كفارسة تستعد للمبارزة. وكان دخول مراد عليها سبباً في توقفها عن التحرك ماشية لتقول:

- هل تعلم أنني لا أحتفظ بصورة لك، وأعتقد أنك كذلك!

وهتفت بحزم:

- غداً ستسجل الكاميرا في غابة بولونيا عدداً من الصور، [illegible] بشيء منها، ويكون معك في الرحلة عدد منها.

قال مراد وهو يدعوها إلى فنجانها قبل أن يبرد:

- اتمنى أن تكون المهمة ليست طويلة.

فهتفت هدى وهي تنهي الرشفة الأولى:

- وهل تعتقد أن مهمتك منفى؟

طلبت منه أن يعيد صب القهوة من جديد، ما لبثت أن رشفت [illegible] مرة واحدة لتنهض واقفة لتستعيد معطفها وهي تقول متساءلة:

- هل تعرف من هو كريم حقاً؟

فأجاب بدهشة:

- والدك، ورئيس المؤسسة، وصاحب الأفضال عليّ.

فقالت وهي تضع المعطف على كتفيها دون أن ترتديه:

- كريم هو الرجل الذي لا يغفر لأحد أن يفشل في مهمة أو عمل!

وأضافت وقد عادت الابتسامة إلى وجهها بعد غياب قصير:

- وهو الذي يكافئ من ينجح بسخاء. وأعتقد يا مراد أن رهانه عليك كان صائباً!

وتساءل مراد وهو يساعدها على ارتداء المعطف:

- وما هو رهانك انت يا هدى؟

فأجابت بدلال وهي تقف في فرجة الباب:

- وهل تسمح لي خبرتي إلا بالانتظار.

ومالت عليه تقبله وهي تتابع:

- والدعاء لك بالنجاح!

وأفلتت هاربة تاركة مراد في جمود طويل.

كانت أنوار مطار (أورلي) تبدد ظلام المساء في السهول المحيطة بباريس. وكانت أضواء الطائرات المغادرة والقادمة تبدو كنجوم متحركة في السماء البلورية وقد تسلل إليها الشفق، فاعتبر مراد أن صفاء السماء ليلة

سفره دليل خير. إلا أن وحشته كانت قد ابتدأت منذ اللحظة التي هتفت فيها هدى مودعة وتتمنى له سفراً سعيداً وتأسف لعدم قدومها إلى المطار، الذي ودعه فيه عدد من أعضاء مجلس الإدارة متمنين له وللسيد (نويل جارو) الكيميائي النجاح، وقد كشف وقارهم عن غيرة ارتدت لباس الابتسام المزيف. وكان له عزاء في صورة (البولورايد) تظهر فيها هدى ترسل بقبلة في الهواء وقد مالت على جذع شجرة هرمة فأضفت بشبابها عليها حيوية مشتهاة.

وملأت المقعد في الطائرة ملامح الخبرة والعلم التي ظهرت في السيد نويل، وكان قد ابتدأ حديثه لحظة الإقلاع:

- أنا سعيد بمعرفتك يا سيد مراد زكريا.

قال مراد وهو يودع بعينيه مشاهد من ريف باريس:

- أتمنى لو أتعلم منك أسرار هذه الصناعة الجميلة!

فعلق الكيميائي قائلاً:

- ما دمت تعتبرها صناعة جميلة، فأنت إداري ناجح يا سيد مراد!

وتابع بقوله:

- أوصى بك الرئيس الكبير، وستجدني دوماً إلى جانبك.

فشعر مراد بزهو غامر، وابتسم في سره يستعيد هدى في تدللها.

20

لبست سلمى ثوب الحيرة، فكانت تراقب زوجها طالما أنه في الدار، صامت مهموم فقَدَ الابتسامة التي توزع السعادة عادة، وإذا ما عاد متأخراً يسد عليها طريق السؤال بعبوس رجل حمل هموم الدنيا على كتفيه، وكانت تتمنى أن تعود النجوم إليها بدلاً من ثقل التفكير عليه. ولم تكن قبلاتها لِتُرد لكنها حملت المرارة. وعندما علمت أثناء حديث عابر بفرصته في العودة إلى الطيران غضبت في سرها لرفضه القاطع. إلا أنّها أشفقت على همه من أن يزيد فقالت وهي تقوم بكيٍّ بنطاله:

- لك حريتك في اختيار ما تشاء، لكن أسرتك التي تقف معك تلزمك باختيار الأفضل.

فهتف بنزق غير مألوف فيه:

- وهل قصرت في شيء تجاه أسرتي؟

فتركت ما بيدها وتقدمت منه تقول بدلال:

- أيام مرت عليك لم تقل فيها كلمة حلوة، والأولاد ينامون من غير حكايات!

فأطرق برأسه وقد أحس بقسوته التي لا تليق بالأسرة التي يحبها بعمق، وهتف بضعف:

- أيام صعبة يا سلمى! ومن لي غيركم؟

واجتذبها إلى صدره بلهفة المحتاج، وهمس مرتعشاً:

- تعلمين أني احبك، واني لم أحب غيرك!

فغفرت لنفسها حيرتها، واستسلمت للحنان المشع من زوجها.

وكانت المدينة في تلك الأيام تتهامس وتغلي، فكان على عزمي أن يبتعد عن اي تجمع أو لقاء قد يكشف الحديث أثناءه عن موقفه الجديد. إلا

أن الاجتماعات السرية مع أفراد فرقته الحزبية لم تنقطع، فوجد نفسه أكثر التزاماً وحماسة، وبات من النشطاء في التخطيط ورسم الخطط.

وفي ساعات الوظيفة لم يغير من عزلته الصامتة، إلا أنه جعل يوحي لزملائه أنه منهمك في إعداد تقرير عن الأسواق كمراقب تمويني، فقد تكون له فرصة كي يمتلك أسرار التجار وهم يجنون الأرباح ليصبح واحداً منهم، فينخرط أهل الغرفة وعدد من الموظفين في ضحك لا يعرف إن كان سخرية أو دهشة. وقد ذهب بعيداً في تحقيق مشروعه الوهمي، وهو يطلب الإذن من مدير التموين في أن يمضي جانباً من عمله في دراسة ميدانية لجمع المعلومات اللازمة لتقريره، فأجيب إلى طلبه.

وابتدأت لقاءاته برجال الأسواق المختلفة من بائعي الخضار واللحوم. ومن ثم توسعت ليقابل أهل (المدينة) وهي أقدم الأسواق في حلب، ممرات وحارات يتجاوز طولها العشرة كيلومترات، وقد تخصص كل فرع فيها من ممر أو حارة بتجارة ما. سوق للقماش وآخر للصاغة وسوق للملابس القديمة والسجاد العتيق وآخر للتوابل وسوق للأحذية الشعبية الحمراء التي تعرف باسم (الصرامي) وسوق للحبال وغيره للصناعات اليدوية من نحاس وخشب مطعم، وأسواق أخرى ودكاكين متعددة البضائع. وكانت مقابلاته الأولى تقابل بفتور وحذر، فكان الصدق غائباً عن المعلومات التي يحصل عليها، فأحس أن لعبته المخادعة قد خدعت، فازداد إصراراً على الوصول إلى الحقائق لإدراكه أن تلك المعلومات التي يسعى إلى جمعها ستكون معيناً له في استكمال الصورة السياسية للبلد التي أحس أنه بات ضمن إطارها شاء أم أبى. وقد لعب الحظ وحده مساعداً له في مهمته، وكان ذلك في بائع مكسرات ما إن رآه يدخل دكانه حتى همّ عليه مرحباً بسيادة المقدم الطيار عزمي، فقد كان الرجل والداً لجندي كانت خدمته العسكرية في المطار، فحمل بعد تسريحه ذكرى الضابط الذي أجمع الكل على حبه واحترامه لسمو في الخلق والانضباط الذي لم يبتعد يوماً عن الرحمة، وقد التقى الرجل به في حفل زواج الابن الذي كان فيه عزمي الوحيد من ضباط القاعدة الجوية. أجلسه البائع على كرسيه القش الوحيد وجلس هو على

كبس مقابل وهو يكرر الترحيب ويتساءل عن علاقة الطيران بالأسعار والمعلومات المتعلقة بمصادر البضائع والتحولات التي تمر بها عملية البيع، فأجابه عزمي ضاحكاً:

- لا تخف يا عم، فأنا أعد رسالة جامعية عن الأسواق.

فلوى الرجل شفته وقال مستنكراً:

- هذا من عمل طلاب المدارس، وأنت قائد كبير!

فهمس بأذن الرجل متخابثاً، وقد بدا عليه أنه سيستجيب للسر، قال عزمي:

- نبقى دوماً كالطلاب ندرس ونتعلم، من أجل الرتب الأعلى!

فهز الرجل برأسه مصدقاً، وقال:

- وأنا أريد أن أقدم لك سراً، فتجار الجملة هم الذين يحددون السعر دوماً، ويتحكمون في السوق، وهم يساعدون على تقديم الفواتير المزدوجة. هذا أمر شائع وهو الذي يحدث يا سيدي. الكذب شريعة السوق الآن، بعد أن كان الصدق والأمانة، فلا تصدق يا سيدي المقدم كل ما يقدم لك من معلومات. وهكذا لعب الحظ والرجل يقدمه إلى جيرانه من أهل السوق كباحث لا علاقة له بالتموين أو الضرائب، فتجمعت لديه معلومات أفضل مما حصل عليه في الفترة السابقة.

وطلب منه في اجتماع فرقة الحزب أن يقدم خلاصة ملاحظاته التي خرج بها من زياراته إلى الأسواق والتجار، فالمدينة تنمو على أرضية التعامل التجاري في معظم نشاطاتها، الباعة الصغار يؤيدون الوحدة، والكبار منهم يرتعشون من كلمات كالوحدة والاشتراكية ويتهمون بالكفر من يروج لها، وإن بعضاً منهم يؤيد الوحدة التي تسهل لهم الأرباح لتتجمع في أيديهم لذا فإنهم سيقفون ضد الانفصال إذا ما كان سيحرمهم من الفائدة، لذا فإن التجار الكبار يمتلكون القرار والصغار يتقنون الهتاف. واستدرك عزمي بقوله:

- هذه ملاحظات جمعتها بالمصادفة، ولكننا يجب أن نأخذها بعين الاعتبار!

وصرخ معلم المدرسة الذي يقود الفرقة:

- ومن يحسب لأعداء الوحدة والعدالة أي حساب!

ثم قال بأناة القائد:

- عمال الوطن، فلاحوه، طلابه ومعلموه وكل مثقف يمتلك قدراً كافيا من الوعي، جنودنا وضباطنا الأبطال، أمهاتنا وبناتنا، تلك هي قاعدتنا أيها الرفاق، وتلك هي جماهير الحزب.

وتوجه إلى عزمي يخصه بالحديث:

- لا نستطيع إلا أن نقدر جهودك في استقصاء الحقائق يا رفيق!

وعهد إلى عزمي أمر الاتصال بالطيارين المبعدين، فاستعاد ثقته بعد أن كاد يفقدها في الاعتراض المبطن على ملاحظاته. وكان يعرف القليل عن منافي بعضهم في دوائر الحكومة ومؤسساتها، ويجهل تناثرهم في المدن الأخرى، فابتدأ في تقصي أخبارهم، وأمسك بالخيط في لقاء أحدهم الذي دلّه على آخر. وابتدأ في إعداد خطوات عملية للاتصال بمن عثر على عنوانه، إلا أنه فوجئ بشابين متجهمين يدخلان الغرفة في التموين، وكانا قد فشلا في إخفاء صفتهما، فدلت عليها المسبحة التي يطقطق بها أحدهما بينما أفصح انتفاخ الخصر عن سلاح. قالا بصوت واحد:

- السيد عزمي الفارس!

وتطلع إليهما عزمي متسائلاً عن الخدمة التي يمكن أن يقدمها، فقال الطويل فيهما:

- مطلوب إلى الإدارة.

وعندما تساءل عزمي عن معنى كلمة مطلوب، فجاءه الجواب على لسان الآخر بسخرية لاذعة:

- مطلوب للفداء!

فأدرك عزمي أن الرجلين كما حسبهما، فهما من طرف الأمن دون ريب، وأن الشر الذي يلوح في وجهيهما لا يقابل إلا بالاستجابة، فأطرق واقفاً دون أن يتبادل أي نظرة مع سامي رفيق الحزب، وتقدم من الرجلين فتأبطا ذراعيه، وكان وقاره يدل على استمرار رتبته في داخله.

كان عزمي في سيارة الجيب المتهلهلة يفكر في الأسئلة التي تطرح

عليه، وهل لها علاقة بتجاهله المتعمد لطلب العودة إلى القاعدة الجوية والتعهد الذي طلب منه أن يوقعه، أم أن أخباراً عن تنظيمه الحزبي قد وصلت إلى المخابرات. وكانت النافذة المشرعة على هواء كانون قد ذكرته بنسيانه للمعطف.

وتساءل إن كانت تلك الخشونة في التعامل معه قد أوضحت له الفرق بين استدعائه الأول وهذا الثاني، فالأمر إذاً يستدعي التفكير فالخطر لا بد قادم! وقال عزمي ممازحاً وقد حشر بين الرجلين:

- هل نحن ذاهبون إلى مبنى المخابرات حقاً؟ السيارة غير لائقة.

فلم يلق رداً وقد اختلط التجهم بالتجاهل. بعد لحظات قال الطويل وكان هو السائق:

- ألا يكفي أن هذه السيارة التي تسخر منها قد تشرفت بصحبتك؟

وتوقفت السيارة في المرآب المجاور للمبنى الرئيسي، فدفع به القصير إلى باب انفتح على ممر ضيق، فاستجاب عزمي ليجد نفسه يهبط درجاً معتماً قاده إلى فسحة صغيرة تتوسط أبواباً حديدية انفتح أحدها عن غرفة بدت كقبر.

وقام عسكري يتباهى بشاربيه اللذين تدليا كالشارة التي تزين ذراعه، بتسلمه كرزمة يؤتمن عليها، طالباً منه الحزام ورباط الحذاء، فعلم عزمي أنَّ مراسم الاعتقال قد انتهت بدفعه إلى الزنزانة.

كانت سلمى ساهمة وقد احتضنت وجهها بكفيها يأكلها القلق تنتظر عودة زوجها. جلست تعدّ الدقائق بعد أن أطعمت الولدين، وكانت ساعتان قد انقضتا فتحول القلق إلى خوف فارتعش قلبها. كانت عقارب الساعة تتقدم وهي تمشي إلى الشرفة الصغيرة تطلّ منها على الشارع لتعود إلى الداخل تنظر إلى الباب الخارجي علّه يفتح فيظهر عزمي. هي تقرأ آيات من القرآن تخفف بها عن الجنون الذي يراودها عن عقلها.

«هل مرَّ على دار أهله؟ وهل حدث شيء هناك أخَّر قدومه؟».

وتتطلع إلى جهاز الهاتف معاتبة أنه لا يحمل صوت زوجها يطمئنها، وتعاود حركة اكتشاف الشارع من جديد.

«أهو حادث طريق لا سمح الله؟».

«حجة الغائب معه، لا تعرف إلا بظهوره!»

ولم تعرف سلمى مثل هذا القلق من قبل. طلعات الطيران لم تسبب لها مثل هذا الشعور. وابتدأت الشمس بالغياب فتحول أفول الصبر إلى ظلمة أغرقت سلمى، فطرقت الباب على جارتها التي استقبلتها بود واستمعت إلى ظنونها، لتعود معها إلى بيتها تصب حكماً شعبية على نار قلقها وقالت لها مودعة:

- المؤمنة تتمسك بحبل الصبر، فتابعي الدعاء يا أم جمال.

وضمت ولديها إلى صدرها تنتحب كضائعة لا أمل لها، فشاركتها الصغيرة البكاء، وهتف ابنها:

- بابا يعود إلى البيت دوماً!

فمنحها إصراره الواثق طمأنينة لم تدم طويلاً.

وكان القرار الذي اتخذته الفرقة الحزبية عصر ذلك اليوم حاسماً، فقد كان إيقاف أي نشاط وإلغاء أي اجتماع هو القرار الذي دفع إليه اعتقال عزمي، وارتهن أي تصرف بمعرفة الأسباب التي أدت إلى ذلك الاعتقال، وكانت تلك المعرفة، كما قال سامي، ستأتيه من سائق أحد المسؤولين في المخابرات تربطه به صداقة قديمة، فبات الخبر الذي سيصل أساساً لأي فعل في المستقبل.

كانت الزنزانة الضيقة لا تختلف عن المرحاض إلا بالفتحة الغائبة، فظهر ضعف الأب والزوج في عزمي وهو يحاول أن ينادي على السجان، الذي سيستجيب لتوسلاته بعد ساعات قاتلة، واعداً إياه باتصال هاتفي مع البيت لقاء مشاركة فعالة لمحتويات محفظة عزمي الذي أكد على الرجل أن يقتصر إعلام زوجته أن التوقيف مؤقت بغرض استجواب روتيني. لم يخيب العسكري الظن متصنعاً الصداقة وهو يجري الاتصال الليلي ليطفئ قليلاً من نيران القلق عند سلمى الزوجة التي كانت تقف على حافة الانهيار.

وتدحرجت كرة الأيام، لا تمييز بين ليل أو نهار، وعزمي في زنزانته تأكله الظنون وتتناهبه الوساوس. هل هناك خيانة من أحد من الفرقة؟ أم

انّها وشاية تقدم بها رفيق سلاح سابق أراد أن يضحي به كي يصل إلى مبتغاه؟ لقد حصّن نفسه بالكتمان، وما من احتمال أنه خرج عن ذلك.

هل يعقل أن يكون في اعتقاله نوع من الترهيب كي يوقع على التعهد الذي طلب منه؟ وكان الظن يتبعه وسواس فلا يهدأ له بال إلا في ساعات نومه يحلم بسلمى والأولاد. وكان الحارس قد منّ عليه ببطانية خشنة استخدمها فراشاً في نومه ومخدة يتكئ عليها وهو يفكر، وكانت لحظات سعادة تظهر على وجهه في السماح له بارتياد الحمام، فيسامر الحارس الذي يرافقه في كل خطوة ويهمس راجياً أن يُزود بكتاب أو جريدة فلا يجد جواباً سوى كلمة «ممنوع» التي باتت شعاراً للمكان الذي يشبه الكهف. وفي اليوم الثامن استدعي إلى غرفة الحارس الذي وقف وراء شاب لبس شخصية المحقق، فاحتل كرسياً قبالته. قال المحقق الذي اختفى وجهه بقناع الجمود:

- هل تعجبك الإقامة هنا، أم أن لك رأياً آخر؟

فحاول عزمي أن يخفف عن وحشته بمرح مصطنع:

- لم أتعود على الإقامة في جناح يستحق خمس نجوم!

فلم يُبدِ المحقق إشارة أو تعليقاً، وتحولت نظراته الباردة إلى السجل الذي كان أمامه، وجعل يسأل بوقار:

- اسمك، عمرك، وضعك العسكري السابق!

وأضاف سائلاً بعد تسجيل الأجوبة:

- انتماؤك الحزبي؟

وعندما استمع المحقق إلى النفي القاطع، قال بسخرية مبطنة:

- أسأل عن الانتماء الذي تخفيه.

فتماسك عزمي وقد خشي من الوقوع في فخ الاستدراج، وهتف متضاحكاً:

- هل سمعت عن حزب الذكورة التي لا تنجب. أنا عضو في ذلك الحزب.

واستمرّ في تهكمه قائلاً:

- الا أبدو لك أني مخصي!

فتجاهل المحقق السخرية وقال وكأنه يقرأ سطوراً في تقرير:

- تجول في الأسواق، أسئلة واستفسارات بحجة كتابة بحث تمويني. هل كنت تستقطب الناس حول أفكار معينة، وما هي تلك الأفكار يا سيد عزمي؟

فهتف عزمي مستمراً في تهكمه:

- وهل أبدو لك مشروع قائد أو زعيم؟ أم أن لحيتي دفعتك إلى ذلك؟

وأضاف بجدية ضابط حقيقي:

- لقد انتقلت فجأة إلى وظيفة مدنية، ويبدو أني سأستمرّ فيها، لذا كانت جولاتي في الأسواق تدريباً لأكون ناجحاً في العمل المدني.

وتساءل المحقق بخبث مكشوف:

- وكيف رأيت الناس هناك؟ أتراهم يؤيدون نظام الحكم القائم؟

فرد عزمي بخبث مبطن:

- ومن كان يجرؤ أمامي على التلفظ بكلمة سوء؟

فباغته الشاب بسؤال محقق عجوز:

- قضيت فترة تدريب في مصر! ما مدى ارتباطك بحركة الناصريين؟

فرمى عزمي بكلمات نزقة:

- وهل تسميهم حركة سياسية حقاً؟ إنهم جزء من حالات عاطفية عرضية كالطفح الجلدي سرعان ما تزول! وأكمل بثقة هادئة:

- النساء سمراوات في القاهرة، وتختزن أجسادهن حرارة تذيب أي تفكير سياسي. قم بزيارة إلى هناك وستكتشف بنفسك ما كنت قد اكتشفته أنا.

فقال المحقق باهتمام:

- وما الذي اكتشفته أنت؟

فرد عزمي متصنعاً التأوه:

- اكتشفت أن شمسنا باردة، وأننا نفتقد إلى الخصوبة التي يأتي بها النيل!

وانفجر بضحكة متألمة استجاب لها المحقق بابتسامة. أحس عزمي وهو يعود إلى زنزانته أنّها قد اتسعت وهو يستعيد الساعة السابقة وكأنّها وقت للتريض وقد روّح الحوار عن نفسه المتشككة. السر لم يكشف، وظنون المخابرات قد أتت في غير محلها، فكانت سعادته تساهم في تجميل المكان، واستعاد سلمى وهو يقول لنفسه:

- أعلم يقيناً أن شمسنا ليست باردة!

واشتعل الشوق إلى دفئها الذي يزداد مع مرور السنين. في اليوم التالي وجد نفسه مسوقاً إلى شاحنة تحمل سجناء جدداً، فالتقى عدداً من الرجال لم يعرف فيهم أحداً، فبادرهم بسلام الألفة. وكانت تدور تساؤلات فيما بينهم عن المصير الذي يتجهون نحوه، فقال واحد:

- الإفراج دون شك، فإطعامنا يرهق ميزانية الدولة!

وقال آخر وكأنه درّب على إعلان الحقيقة:

- ما دام الوقت صباحاً، فنحن نتجه إلى المحكمة.

ولكنه تساءل متعجباً:

- وما هي التهمة؟

وهتف رجل في منتصف العمر:

- تدمر هدفنا يا شباب!

فصاح عزمي مستنكراً:

- تدمر!. الصحراء بعيدة عن حلب.

وكان يقرر لنفسه أنه في قلب المدينة ولم يستطع أن يلتقي بسلمى والأولاد، فماذا لو كانت تدمر هي السجن الجديد! وهتف شاب ظهرت كدمات زرقاء على وجهه وهو يعاين الضيق على وجه عزمي:

- يبدو أن واحداً من رفاق الرحلة لا تعجبه هذه النزهة. صبراً جميلاً يا رفاق!

وشعر عزمي بانعطاف الشاحنة في طريقها، وبدا له أن صعودها البطيء يعني أنهم يتسلقون مرتفعاً. بعد قليل توقفت الشاحنة وأطلت على السجناء بنادق تشيكية من الباب الصغير، وطلب من الجميع

النزول، فاستجاب الكل كمدعوين إلى حفل طال انتظاره لهم. هتف رجل متذمراً:

- الثكنة من جديد!

وتحرك الرتل نحو المبنى القديم من الثكنة العسكرية، فاستقبلتهم فسحة القبو الواسعة برجال آخرين صاح بعض منهم متهللاً وكأن العرس قد اكتمل بالقادمين. قال عزمي لنفسه:

- هناك متسع من الأرض للنوم براحة وللتجول بحرية. يبدو أني سأتكلم إلى بشر بدلاً من الحائط!

وسأل واحد من قدامى النزلاء إن كان يسمح لهم بالخروج أحياناً لاستقبال الهواء والشمس فرد عليه قائلاً:

- قوم لطفاء يسمحون بالتنفس لساعة يومياً.

وأضاف وهو يطوي كتاباً بين يديه:

- الخدمة ممتازة هنا، فلا تقلق يا صاحبي.

وشعر عزمي أنه سيجد وقتاً مناسباً للتفكير في أمور كثيرة.

21 سؤال: هل يتحول مجموع ما ينتجه إنسان اختارته الكتابة عشوائياً ممثلاً في مسرحها، إلى تقرير واحد عن الحياة التي تتابع مسيرتها بلهفة المتطلع إلى معرفة كل شيء؟

سؤال: وهل غاية الكتابة الفنية تهدف إلى تدوين الرؤية المعرفية وملاحقة التفاصيل لاستكمال ما ظن أنه كمالاً؟

سؤال: أم أن الكتابة هي في تشييد بناء بديل للحياة، يمنح العزاء للروح في علميات التخييل التي تحيل الواقع إلى فن، والخيال إلى واقع؟

ويتبين لي بعد نصف قرن من الكتابة، التي كنت أظنها تسلية للروح وأنّها قادرة على تصوير الأسرار التي أضيق بكتمانها أحياناً، وأنّها ترميم للنفس في تآكلها المستمر مع تقدم العمر واستمرار معاينة الحياة من حولنا، وأنّها أشبه بالمضادات الحيوية للقضاء على فيروس اليأس، ولإيقاف التهاب الذات في عجزها عن فعل شيء تجاه القوى الطاغية من قهر وتعسف واضطهاد، فيمر أمام البصر رتل الفقر والحاجة وسرب المستلبين والمغلوب على أمرهم، فلا يستطيع أعزل مثلي أن يفعل شيئاً، فيظن أن العودة إلى الورق لتمزيق حياديته البيضاء بخربشات الكلام المكتوب، هي مسكن الآلام التي تنتظرني في خلوتي المحاصرة بزمن جبار.

الكتابة التي حسبتها في البداية نافذة أطلّ منها على الحياة، باتت الحياة نفسها بكل تناقضاتها وتجاذباتها المثيرة لأمواج القلق والحيرة. تكون أحياناً طوقاً للنجاة وتارة ثقلاً يشد إلى الأعماق فتعود إلى الغرق، وهي أحياناً رحلة بحرية تداعبك فيها النسائم المنعشة وكثيراً ما تكون سفراً فيه مشقة.

الحياة التي كنت أظنها سهلاً يمتد أمام الخطوات تربة طيبة، فإذا هي تضاريس متنوعة فيها الجبال الموحشة والتلال العارية كذلك. يطلّ عليَّ

حفيدي فأتعلّق بالمستقبل لأستقطب الفرح وتميل مخيلتي إلى التفاؤل. وأستعرض صور الراحلين من الأحبة وأنا أستنهض الماضي، فينقبض القلب وتتأزم المخيلة كأن أشعتها تخرج من بؤرة تلد الحزن والهم.

هي دائرة! الحياة دائرة تعود النقطة فيها إلى حيث كانت. الجرم يدور في فلكه كمن يستعيد نقطة انطلاقه. فأي حياة هي الدائرة! وهل نتوقف عن الحلم في تحقيق كتابة ما نعتقد أننا نحيط به ونستوعبه؟ أم أن الوصول إلى معرفة شيء هو بداية لجهل جديد!

اكتشف بعد زمن أن لعبة الغرور هي الأكثر تحققاً في مسيرة الكتابة، إذ أن ما تحسبه على سبيل المثال حديثاً عن الحب في كمال صورته، إنما هو مجرد تنويع متناثر على أغنية الحب لا يساعد على الإمساك بجوهر ذلك الحب، مثله في ذلك مثل القيم والمفاهيم، فهو نسبي ومتعدد الأوجه والتحولات. يعلن بطل لمحبوبته في رواية أنه يمنحها قلبه وعينيه، مستعداً للموت من أجلها، وتمنحه حمى العشق طاقة أسطورية فيكتب الشعر والرسائل المتوهجة بالأحلام، ويصبح الحديث عنها في غيابها غناء واستحضار صورتها طقساً من الحنين والتأوه، وتتحول المحبوبة إلى معبودة. ويحدث اللقاء في وصال ينتهي بزواج، فتتلبد السماء بالغيم ويهطل ثلج الأيام ليطفئ لهيب العشق جمرة فجمرة، ويزحف الاعتياد كجيش مغولي في قسوته، وتتكاثر أعباء الحياة في همّ لا يتقن البطل تقدير حجمها، أو توقيتها، ويتحول الحب إلى كفاح ومعاناة فتذبل الأزهار وتنمو الأشواك، وتنقلب صورة السعادة على قفاها.

ومن النعم التي يغتنمها الكاتب أنه لا يتوسع كثيراً في تخيل خاتمة الأمور في أحداث حكايته، بل تشغله البدايات عادة ليترك بعد ذلك الساحة لاحتمالات النمو والتطور كي تملأ بنفسها فراغ مستقبلها، إذ أنه لو أدرك حقاً ما يمكن أن يصير إليه الحب في روايته تلك، لما استطاع أن يكتب بالحرارة والصدق اللازمين لتصوير شعلة العواطف في تأججها، ولما أدى خياله إلى الكشف عن الحقيقة، فكأنما وهم الحب هو التأكيد عليه، وكأن ذبول شمعته هو تصديق على دورة الحياة. إن أهم ما في كتابة الأدب هو

اقتران المأساة بأهمية القيم النبيلة، فشخصية مثل (جيفارا) أكسبت في اغتيالها العظمة للنضال من أجل المبادئ، وفجيعة موت (روميو وجوليت) منحت للحب ديمومته في التاريخ الإنساني، واستقبال الفلسطيني الموت بشجاعة الحجر هو الذي علق الوسام على صدر البسالة. أليست أهمية الكتابة قد جاءت من عظمة المأساة عند البشر؟

من الحروف تتوالد الكلمات، فيكون في تكاثرها العفوي شكل الحجارة وهي تتوالى كعلامات تدل على الطريق! والطريق له نهاية لكنها لا تدرك، وإذ يظن الكاتب أنه يمتلك البصيرة التي قد تريه النهاية، يكون قد ختم على بصره ومخيلته فيتوقف حصان سباقه ويسجن نفسه في عزلة السكون. الكاتب يحلم بما قد يصل إليه، وشعاع الحلم ينير ظلامه، إلا أنه لا يملك اليقين، ففي اليقين غرور المساكين. وعندما كنت أتخيل حتمية الانتصار في قضية أكتب عنها أو في بطل يحقق ما يريد، كنت أحكم على نفسي بالبلاهة دون أن أدري. الحياة عجيبة في تقلباتها واحتمالات أوجهها، لذا فقد سيطر عليّ الظن بأن الكتابة هي كالحياة، فهل هي نفسها حقاً، أم أنّها أخرى موازية لها تسهل لنا طريق المقارنة بها لأننا لا نجد بديلاً لذاك؟

22 حلقت الطائرة في سماء البعد عن المحبوب. هي تسعى كالسهم يعرف مساره متجهاً إلى قدر التجربة الذي كتب على مراد، فهل أعد القدر استقباله بنجاح متوقع؟. وكان القرب من رفيقه (نويل) يشعره بالراحة التي تتداخل مع مخاوفه، فيستسلم لفوضى المشاعر المتناوبة تلك ويحاول أن يغفو فينجح ولكنه لا يلبث أن يصحو، وليل الأطلسي الذي تسبح الطائرة في فضائه يرسل أحلاماً تتابع تسلسلها في النوم المتقطع. حملته الطائرة لأول مرة فكان عقله آنذاك يحصي ثواني الخطر المتوقع، والآن بات القلق يمتد ما بين نقطتين: هدى المحيّرة، والهدف الذي يتجه إليه وهو لا يملك تصوراً واضحاً للقدرة على تحقيقه.

كانت الطائرة الثانية تتجه من (نيويورك) إلى (فيونيكس)، فكان التعب يمتص القلق، والمسافة تطوى في التوجه إلى الهدف. وأقلتهما السيارة من الأراضي الأمريكية ليصلا مدينة (مكسيكالي) على الحدود. يوم كامل من السفر من ظلام ونور، قضيا بعده يوماً آخر في استعادة التوازن مع الزمن الجديد. وكان المنفى غربة حقيقية بدت له فيها باريس بعد حلب كي تصبح ألفة، أما في المدينة هذه فكانت وحشة يبحث لها عن حل.

وابتدأ استكشاف المدينة الصغيرة والضواحي المحيطة بها، وشغله البحث عن الموقع المقترح لإقامة المشروع عن أي شيء آخر. وكانت السمة السياحية للمدينة تؤكد لمراد أن اختيار مكسيكالي يدل على عبقرية كريم في إدارة مشاريعه، فابتدأ العمل بخطوات واثقة صارمة وكأن رئيسه يتجسد فيه. مساحة كبيرة من الأرض الزراعية يحمي المنشآت فيها سور، فكان المهندس المكلف بالبناء يستلهم طبيعة العمل الرقيقة للمشروع في المباني مسبقة الصنع التي اكتملت في مدة قياسية، وتوج جناح الإدارة بيت

صغير اكسب المدير قوة ساعدته في السهر خطوة خطوة على أعمال شركة التعهد التي أنجزت المشروع في شهر، ليبلغ باريس بإنجاز الخطوة الأولى وقد أصبح المكان جاهزاً للإنتاج، وكانت تقارير مراد تلقى الثناء والدعم من كريم فيزداد حماسة. وعندما ابتدأت مرحلة الإعداد للترويج كانت الاتصالات بالشركات الأمريكية والمكسيكية المتخصصة تكشف له جانباً من أسرار الدعاية التي سيعلم مبكراً أنّها عامل النجاح الأقوى للمشروع ومن دونها لا قيمة للعمل والكيمياء وابتداع أصناف جديدة. وهكذا وقع اختياره على اسم تجاري لأول عطر يطلق في الأسواق، وقد ولد الاسم عندما استنشق مراد العطر المستخلص من زهر الصبار فهتف بنشوة باسم هدى، وقرر أن يكون الاسم (هودالد) تحية يقدمها للمحبوبة. وسيلاقي الاسم والعطر ترحيباً من الشركات التي دعي ممثلوها إلى حفل إطلاق المنتوج الأول للشركة. وأغراه النجاح كما الاسم فجعل يبحث عن اشتقاق آخر لإطلاقه على عطر آخر ومنتج تجميلي، فكان له (هوداسا) و(هوداكسيك)، فشعر مراد أنه استطاع أن يخلط أوراق الحب بالنجاح بمهارة يحسد عليها، وكان (نويل) الذي يكاد لا يفارق مختبره، يبتسم بدهاء كلما استشاره مراد في اسم جديد ويهز برأسه مرحّباً دون أن يعلق بكلمة.

وإذ تصل رسالة من الرئيس مع تفاصيل مختبرات باريس لتحاليل العينات المرسلة، كانت تحمل التهاني بالنجاح وتخص الأسماء التجارية المختارة بالإطراء، فازدادت نشوة مراد وهي تقدم له العزاء في الغربة الثانية. وأصدر كريم أمراً بتوزيع مكافأة مجزية للفرع المكسيكي، فقام مراد بتوزيعها على كافة العاملين، ولم يحتفظ لنفسه بحصة منها وكأنه يتصرف كما يفعل أرباب العمل عادة، وقد زاده ذلك التصرف قوة واثقة لم يعرف مثلها من قبل.

كانت الأشجار التي زرعت كبيرة في نموها على حدود المساحة المنحدرة من التلال، تساهم مع السور في إعطاء المشروع شخصية متألقة تناقل أخبارها أهل المدينة باحترام وإعجاب، وكانوا يتبادلون التحية مع

المدير، فأحب مراد المدينة الجديدة في زيارته إليها. وكانت أشجار (الجاكاراندا) بأزهارها الحمر تحرس طرفي الشوارع العريضة فتشمل حنينه إلى هدى التي لم تفارقه لحظة وتميس قامتها في زجاجات العطور التي تتزايد على الرف الزجاجي فوق سريره، يفتتح يومه برؤيتها ويختتمه. أمنيته كانت في معرفتها للتفاصيل التي مرّ بها المشروع، فقد يغمره رضى هدى بالسعادة ويجعل للمدينة الجميلة نكهة الفردوس الذي يحلم بحوائه إلى جانبه فيه. ويحدث فجأة ودون إنذار مسبق أن دخلت عليه السكرتيرة المكسيكية السمراء كالشوكولاه الحليبية وهي تمد يدها بمغلف وتقول:

- رسالة خاصة يا سيدي على ما يبدو.

مضيفة أنّها لا تحمل شعار المؤسسة في باريس أو أي رمز معتاد، فلم تفتحها كما هو المعتاد. كان المغلف يحمل طابعاً اميركياً دون إشارة إلى المرسل، ففضه ببرود فتطايرت من الرسالة المكتوبة بالعربية رائحة الهودالا التي تسحبه عادة إلى عوالم الحب المقيد. والتصقت عيناه بالسطر الأول:

«عزيزي مراد»

لتنتقل بعد ذلك إلى التوقيع:

«المشتاقة هدى»

ستة أشهر مرت ينتظر فيها مكالمة هاتفية أو رسالة من هدى، وها هي تكتب من (لوس أنجلس) باختصار أنّها قادمة إليه، فتدحرج قلبه أرضاً، وعاد إلى الرسالة يقرأ كل حرف فيها. وترسخ في قلبه الإيمان بالمعجزات.

في اليوم التالي كانت شمس الظهيرة أكثر حناناً والأرض تخرج حشائشها المتراقصة على إيقاع السعادة التي تمددت كبقعة الزيت في كل مكان. وسابق مراد نفسه إلى المطار للوصول إليه قبل موعد الوصول بفترة كافية له لرصد السماء التي ستفتح صدرها الرحيم عن النعمة الموعودة. ويبدو أن انضباط الزمن قد علمه في السنوات الأخيرة معنى الدقة. وكان يرصد الطائرة الصغيرة التي لاحت في الجو لحظة التوقع، فابتدأ جسده

برعشة وكأنه في رهان مع نفسه التي عذبتها تقلبات هدى من قبل. مائة وثمانون يوماً من عمره الجديد مرت من غير هدى، وها هي في هذه اللحظة تبشر بالظهور من ظلمة الغياب، فهل تثبت البشارة على وعدها؟.
وحطت الطائرة على أرض المطار، وتوقف محركاها عن الدوران، وخرج سلم من طرفها فكانت هدى السابعة والأخيرة من الركاب، ولم تخفها عن بصره قبعة القش الكبيرة التي تغطي رأسها، فلوح مراد من وراء الحاجز فالتقطته عيناها الباحثتان لترسل ابتسامة التقطها كبرقية فرح.

دقائق ممضة مرت ظهرت بعدها هدى، فكادت لهفة مراد أن تفجر قلبه. كانت تتقدم نحوه بالشورت الأبيض تبدو فيه كسائحة، فهمّ راكضاً فاتحاً ذراعيه فارتمت عليه ليتعانقا كنصفين التقيا بعد غياب قرون. قالت له وهي تتسلم الأزهار الملونة كالربيع:

- مفاجأة! أليس كذلك؟ إلا أن أزهارك غلبت مفاجأتي لك.

فهمس بخجله المعتاد:

- أزهار مكسيكالي كلها ترحب بهدى!

وقالت بدلع والسيارة تمضي بهما في طريق بين الحقول:

- الآن أعرف من أنساك باريس!

وعلقت متابعة بخبث:

- مدينة جميلة، ولا بد أن نساءها كذلك!

فقال بحزن شفيف:

- باريس هي هدى، فكيف لي أن أنسى؟ جمال الدنيا بأزهارها ونسائها لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بك!

فضغطت ذراعه بكفها، وهمست بجدية لم يألفها من قبل:

- وأنت لا تنسى يا مراد.

وتذكر الأشهر الستة دون أي كلمة منها، لكنه تمالك نفسه وهتف وكأنه يخاطب التلال والسهول:

- ليتني كنت محافظ المدينة لسلمت مفتاحها لأجمل ضيف يزورها. أنت يا هدى من يستحق مفتاح هذه المدينة.

فقالت وهي تلفت نظره إلى قطيع أغنام يرعى:

- وهل أضعت مفتاح قلبك؟

فتمتم وهو يضغط بقدمه على دواسة الوقود:

- ألا تعلمين أنه بات بين يديك منذ زمن طويل؟.

واستجاب العاملون للإنذار الذي انطلق عن بعد، فاصطفوا أمام مبنى الإدارة بالأزهار يلوحون بها ترحيباً بالقادمة. وكان الاستقبال كطقس احتفال بمجيء شخصية بالغة الأهمية، فمرت هدى بهم واحداً فواحداً تصافح بحرارة وقد غلب عليها التأثر وتقول لمراد الذي يرافقها كحرس الشرف:

- مشروع عظيم كهذا لا يضم سوى هؤلاء، عشرة عمال فقط!

فقال نويل وكان آخر المرحبين:

- إدارة السيد مراد بمائة يا سيدتي!

ثم ما لبث أن تقدم محنياً رأسه وهو يقدم صندوقاً صغيراً كشف عن قلادة من أحجار ملونة لمعت كالعقيق، وقال:

- هدية العمال لك يا سيدتي، كان قد جمعها أهلهم من جبال المكسيك وشواطئها.

فتسلمتها هدى باحترام وهي تتأملها بعينين ترقرقت الدهشة فيهما، بينما مراد يعلق قائلاً:

- إنّها تقف في وجه الحسد.

وأضاف معلقاً:

- كانت ستترسل إليك في باريس لولا مفاجأة قدومك.

ومضى مراد بحقيبة السفر يقود هدى إلى الأعلى. قال وهو يدخلها غرفته الوحيدة:

- مسكن متواضع ولكنه أفضل ما عندنا لإقامتك. أرجو أن تكون مناسبة.

جالت عيناها في أرجاء المكان. غطت الأزهار السرير الخشبي، وامتلأت الأركان بأصص الأوراق الخضر، فتحولت الغرفة إلى حديقة صغيرة، وهتفت هدى:

- أين كانت مواهبك مختبئة؟ إداري ناجح وذوق رفيع!
وهمت عليه تعانقه بحرارة العرفان، وقالت:
- من يستطيع مقاومة الإعجاب بك سنيور مراد؟
وقال لها وهو يدلّها على الحمام:
- ومن يجرؤ على مقاومتك سيدتي السنيورة؟
هتفت هدى مشيرة إلى كرسي من الخشب:
- ينقصك مقعد مدام كوليت لتستعيد بيتك الباريسي.
فتمالك ابتسامة حزينة أفلتت منه، وقال وهو يستعد لمغادرة المكان.
- العشاء سيكون مبكراً هذه الليلة، فالجميع بانتظارك في الحديقة للاحتفال بقدومك.

فأرسلت قبلة في الهواء في اللحظة التي التقت عيناها بصورتها في إطار من خشب طبيعي، فعاودت إرسال واحدة أخرى حملها مراد معه والنشوة تصعد به إلى السماء.

وأطلت أشباح التلال على الحديقة، وكان جمر النار يلتمع تحت عجل يدور على إيقاع الجيتار، وانتشر العمال بملابسهم القومية ينصتون إلى امرأة تغني وكأنّها تهدهد طفلاً قبل نومه. الجميع بانتظار الضيفة التي أحدث ظهورها زحفاً ودوداً نحوها. أطلت هدى بعد مغيب الشمس فبدت كقمر يعوض عن العتمة المتساقطة كضباب رقيق. وسحبت أناقتها العيون فاشتعلت الأكف بالتصفيق. وتقدم مراد منها بلباس أهل البلد ليقودها إلى رأس المائدة ويحتل مكاناً بقربها، بينما توافد الجميع الذين هبوا واقفين من جديد يشربون نخب السيدة الجميلة. ويطفح وجه هدى بالسعادة وهي ترفع كأسها نخب النجاح الذي تحقق، وتكرر النخب بالشكر للعقد الحجري الذي طوق عنقها بالمحبة وكأنه السحر المكسيكي الذي يأسر القلب، فاشتعلت الأكف مصفقة عقب قيام السكرتيرة بالترجمة. وطولب مراد بكلمة، فأظهر إلحاح العاملين عليه مدى العلاقة الطيبة التي ساهم مراد في تنميتها، فوقف مرتجلاً يساعده التعثر على لملمة الكلمات. تحدث عن العطور بلسماً للروح وأن من يعدّها ويصنعها

شأنه في ذلك شأن الطبيب يداوي آلام الجسد. وأن العطور التي أخذت اسماً لها من (هدى) الغيمة التي تظللنا أضافت لعطور العالم قيمة لا تنسى.

وكانت ليلة، انقلبت أشياء فيها من حيرة إلى اقتراب من يقين. وحيدان عند أبعد نقطة من السور، وقف مراد يجاور هدى السابحة في صفاء ليل تشارك نجومه لألآء العقد. انفض الحفل وبقيا ساهرين يصغيان إلى الفضاء بصمت النشوة. قالت هدى وكأنّها تخاطب البعيد:

- سأحتفظ بالعقد مدى الحياة، فأنا لا أريد أن أصاب بالحسد وأنت بقربي!

وشجعه تأثير النبيذ، وجدية هدى في كلام الظلام، فقال:

- كنت أتمنى أن أحظى أيضاً بنعمة إبعاد الحسد عني وأنا أحظى باهتمامك.

فانتفضت قائلة:

- لا تقل إنك تحظى باهتمامي، بل قل إن الحب هو ما أملكه نحوك!

وكانت كلماتها تؤكد على السحر المكسيكي الذي أشارت إليه هدى، فتردد في القول إلى أن انتصر عليه وقال:

- هل تقبلين إعلاني عن مشاعر الحب لك؟

فهتفت بنزق وهي تتراجع خطوات إلى الوراء:

- وما الذي يمنعك؟

وقالت معاتبة وهي تعود إليه:

- لقد أوقعتني، فكن واضحاً ولا تتردد.

فوجد الشجاعة ليقول بصوت واثق:

- أحبك. أحبك وأضع حياتي ومستقبلي بين يديك.

فمالت عليه تقبل خدّه وقد نفرت دموع ساخنة من عينيها. قال وقد غلب عليه التأثر أيضاً:

- وهل الحب يستدعي البكاء؟

فقالت بصوت متقطع:

- الا تثير كلمة الحب الصادقة دمع العين يا مراد؟

وأفلتت هاربة باتجاه المبنى، فلحق بها وهو يردد:

- حبك يسبب الجنون يا هدى.

فتسمرت في مكانها مستديرة إليه، فكانت المواجهة بينهما فرصة لقلبين صاخبين. نظرت في عينيه بوله أحس به بالرغم من ظلمة سائدة، وطبعت قبلة على خده وكأنّها امتنان ومسحت على شعره بحنان فسمعها بصعوبة وهي تهمس:

- أحبك يا مراد!

قضى نصف ليله مفكراً، وكانت غرفة (نويل) التي استضافته مسرحاً لأحلام لم تتوقف. وحدثته هدى في اليوم التالي وهما يجولان في أرجاء المعمل أن الرحلة مع رفيقاتها إلى أمريكا كانت بترتيب منها كي تصبح قريبة منه في كاليفورنيا، وستعود إليهن لتطير مباشرة إلى باريس. واستوقفته عند المدخل لتقول له بلهجة آمرة:

- سأكون باستقبالك في أورلي.

فأدهشه الأمر وهتف متسائلاً:

- وهل تتوقعين عودتي؟ إنّها لا بد زيارة!

فضحكت قائلة:

-وهل بتّ مغرماً بالبقاء هنا؟ لا بد أنك تملك أسبابك!

واستكمل استفساره:

-ألم تكن نتائج العمل هنا ناجحة؟

فقالت بروح من يمتلك القرار:

- وهذا هو السبب في عودتك النهائية يا عزيزي مراد.

وأضافت وهي تتأبط ذراعه وهما خارجان إلى الحديقة:

- كريم على ما يبدو يهتم بأن تكون قريباً منه!

ومالت برأسها على كتفه، وقالت وكأنّها تهمس بسر خطير:

- إنه معجب بك!

وعادت إلى مرحها وهي تقول:

- اسابيع قليلة، ويأتيك الطلب من الإدارة.

فقال ممازحاً:

- تستطيعين الآن أن تصدري الأمر بالعودة يا سيدتي.

وقالت هدى وهما يصعدان الدرج:

- لن أسمح لك بعد العودة النهائية أن تغادر باريس من غيري. الا تهمك صحبتي الدائمة؟

واجتذبته من ذراعه ليصبحا في الغرفة، فرمت بجسدها على عرض السرير ومراد يراقبها ودهشته تغلب غليان عواطفه. كانت تتطلع إلى السقف وكأنه سماء السعادة، وقد انحسر الثوب الحريري عن ركبتيها، وبدت ذاهلة وهي تتمتم:

- لماذا كنت أقاوم حبك؟ الم أكن بلهاء حقاً فأضعت الكثير من العمر.

جلس مراد وهو يستجيب لإشارة هدى في الجلوس بقربها، ليختار أقصى زاوية من السرير، فهتفت:

- افعل مثلي، فأنا أريد أن أشاركك التأمل.

فلم يتردد، ليصبحا متجاورين، ساهمين بأنظارهما كطفلين يعدان النجوم. قالت بضعف:

- أريد أن أقضي العمر معك.

فردد كمسحور:

- لا أريد أن يكون لي حياة من غيرك!

فاستوت جالسة فجأة وقالت بتصميم:

- لنتزوج في الحال.

فانتصب واقفاً كالملسوع، وما لبث أن جلس إلى جانبها من جديد:

- وهل أملك حلماً غير هذا، لكن أهلك يا هدى! أنت وحيدتهم فكيف يفرطون بجوهرتهم؟

وعاد إلى الوقوف على قدميه تنتقلان به في المكان الضيق، يدور كالضائع. قال:

- لا تنسي من أكون؟

فهبت واقفة بغضب لبؤة وصاحت:

- أنت مراد وأنا هدى، تحبني وأحبك، وهل هناك من شرط آخر للزواج؟

فقال كسيراً:

- والدك! كريم هو الذي يضع الشروط يا هدى.

هتفت ساخرة:

- حدثتني أمي عن بداية كريم قبل أن أولد. أراهن على أن بدايتك كانت أفضل من بدايته. إنه يحبك يا مراد. أعلم أنه يحبك.

فقال متحسراً:

- يحبني كواحد من موظفيه أثبت نجاحاً في عمله.

فقالت هدى وهي تشده إلى السرير، ليجلسا متقاربين:

- أريدك أن تقسم بقبلتك لحبيبة مشتاقة ان تكون لي.

فمال عليها بشفتين مرتعشتين فانقضت عليهما بشوق نهم، ليستغرقا في قسم طويل.

وخيمت الكآبة على السيارة المتجهة إلى المطار، وبدت هدى وكأنّها ذاهبة إلى عقاب ينتظرها. قالت بتصميم يُفقده الحزن قوته:

- ستطلب يدي من كريم بعد عودتك مباشرة، ولن أغفر لك أي تأخير.

وتساءل مراد وظلال اليأس تخيم على وجهه:

- هل تتصورين ما معنى أن يسخر من طلبي؟ ستكون نهايتي يا حبيبتي.

فقالت وهي تتعلق بذراعه بطفولة:

- ضع أمام عينيك فكرة واحدة ولا شيء غيرها، وهي أن مستقبل هدى قد ارتبط بك مهما كانت العقبات!

وتحول غياب الطائرة المتدرج في السماء إلى نقطة متحركة ابتدأ ذيلها بانفجار الأفكار في أعماق مراد. هل يقدم فعلاً على الطلب من السيد كريم يد ابنته الوحيدة؟ ما مصير طلب كهذا! هدى تكلمت بثقة المدللة التي

لا يرفض لها طلب، والرئيس يختاره لتجربة خطيرة، أهو امتحان.. وما الهدف من هذا الامتحان؟. وكانت التساؤلات تسابق السيارة في طريق العودة، وتجيب عن نفسها بالتشاؤم تارة وبالتفاؤل تارة. وها قد أفصح عن الحب، ليصبح سرّ الاثنين معاً، وبعد أن كان العذاب يأتيه من الحيرة، بات الجحيم يطل بشماتة من احتمال الرفض، وقال لنفسه وهو يدخل حدود المشروع:

- أتراه الرفض وحسب؟ بل إنه الطرد من جنة الطموح.

23

تسلل الذباب عبر النافذة الوحيدة العالية، وكاد القبو أن يمتلئ بالمعتقلين وكان الربيع مبكّراً قد انتشر في التل الذي يستنهض حجارة الثكنة لتقف متماسكة عبر قرن، فتمدد اخضرار الأعشاب البرية على سفوحه، وتسللت الحرارة إلى المقيمين في القبو فتعادلت مع رطوبته، فتهيجت الحشرات لتشارك الرجال أحاديثهم وكسلهم فهبوا لطردها الذي لم يفلح. وكانت الأسابيع التي مضت على عزمي الفارس، تشهد توتراً في ازدياد أعداد الموقوفين من كل لون، فبات لكل منهم رقعة تكفي للنوم، فازداد التقارب واشتعل التعارف فيما بينهم، طلاب وعمال وموظفون وتجار صغار وقرويون وقلة من عسكريين سابقين. منهم من يرسل موالاً مفاجئاً، وفيهم من يكتب على الحائط كلمات يرددها بعضهم، ومن لا ينقطع عن النوم. وكانت الزيارات قد اقتصرت على مرة واحدة في الأسبوع، فلم يفلح عزمي باحتواء سلمى بين ذراعيه فتلامست أصابعهما عبر الفجوة في الأسلاك، وطلب منها راجياً الا تعود إلى زيارته بعد الآن، فهو الذي سيفعل عن قريب، فأمسكت دمعها وقد تهلل قلبها بالفرح فتصديق أقواله كان دوماً جانباً من الحب الذي تحمله لزوجها. وتمر الأيام متباطئة وعزمي يردد لنفسه ما وعد به سلمى:

– ولا بد أن ذلك اليوم قادم عن قريب!

وكانت لغة الشطرنج هي من اللغات القليلة التي يظهرها عزمي، وقد سئل أكثر من مرة عن السبب في اعتقاله، وقد أفصح كثير من أهل القبو عن حكايته، مديح للوحدة العربية ولعبد الناصر أو الإيمان بالاشتراكية كحلٍ وحيد أو تهمة سرقة أو اغتصاب، لكن عزمي ظل على خطته في أن لا ينطق بكلمة قد تدل عليه، واشتد حرصه حين اكتشف أنه يشك في واحد من الموقوفين اندس بغرض الوشاية والتلصص. وكان

الشـاب يتبـاهى بميـول يسـارية أميـل إلـى التطـرف ويتجـرأ علـى العـهد بأوصـاف لا يجـرؤ أحـد علـى التلفـظ بـها، وكـان يظـهر العـداء الشـديد للحكومة القائمة ويظهر تقرباً ملحوظاً من فئة العسكريين المنفيين ويلوّح بقدرة الجيش على التمرد والإطاحة بالانفصال. وكان عزمي يهز برأسه مبتسماً للمشتبه به، ولا يعلق بشيء على أقواله، وقد يدعوه إلى لعبة الشطرنج فيتعلل الشاب بجهله لها. وكان عزمي الذي اشتهر بالصمت والوداعة، يصغي باهتمام إلى من يلجأ إليه فيشاركه بحرارة إذا كانت الأحاديث تدور حول الهموم الشخصية أو عن أمور لا علاقة لها بالسياسة، ولطالما ردد بين فترات صمته إن ليلة واحدة مع الأولاد تساوي عنده سياسة العالم وأهلها.

ولم يحدث طوال أيام الاعتقال أن حدث اتصال مع رفاق الحزب الذين لا شك في معرفتهم ما حدث له، إلا أن ما حدث له ذلك اليوم كان مفاجئاً، فقد لحق به رقيب عسكري من حراس الثكنة خلال فترة (التنفس)، فشدَّه من كمّ سترته ليحاصره في زاوية منعزلة قاده إليها، وجعل يفتش جيوبه بحثاً عن سكين يشك في وجودها بحوزته، فلم يملك عزمي سوى الاستسلام للكفين تتلمسانه، وإذ بالرقيب يهمس أثناء التفتيش بحذر:

– الأمور بخير يا سيدي. الرفاق يرسلون تحياتهم، والفرج قريب.

ثم ما لبث أن دفع به أمامه يعيده إلى مكانه وهو يهدد بأنه سيلقى الجزاء الصارم إذا ما ارتكب مخالفة ما، فقام عزمي بتمثيل دور الغاضب، وراح يلعن الفظاظة التي عومل بها، فأصغى إليه الزملاء وهم يشاركونه الغضب، فقد كان يمثل أكثر المعتقلين تهذيباً ورقة. ولم تتكرر مثل تلك المحاولة مرة أخرى. وكان عزمي قد قلّب كلام الرقيب على كل الوجوه ليتبين له أنه قد انتسب إلى حزب يعمل بكفاءة وأن التعلق بالأمل هو ما يجب أن يفعله في الأيام القادمة. ويفكر طويلاً في سلمى وولديهما، فيجد أنه قد ألحق الظلم بهم، ثم ما يلبث أن يفكر في البلد وفيما وصل إليه من تمزق وفيما آل إليه حاله من إبعاد عن واجبه العسكري والاعتقال الذي لا يستند إلى قانون، فيجد أن الانتظار بصمت هو الحل الأفضل. وتصيبه القناعة بأن

التنظيم الحزبي لم ينسه وأن رجاله مبثوثون في كل مكان والعسكري الرقيب هو الدليل.

وانتشر القمل في القبو، فجاءت فرقة المكافحة من عسكريين مقنّعين، انطلقا في المكان يرشّان الضباب من خرطومين، فيهرب بعض النزلاء من الرائحة ويجدها آخرون فرصته للمرح فيعلق أحدهم على رائحة العطر المازوتي ويدعي واحد أنهم يقتلون البشر لأن حشرات الثكنة لا يقتلها شيء، وجعل بعض منهم يغطي رأسه بالبطانية مرسلاً أصواتاً غريبة. فكان منظر القبو وكأنه ساحة انتشرت فيها فلول مظاهرة طلابية أيام الاستعمار الفرنسي، ولفت نظر عزمي مشهد غريب، فقد اقترب أحد المقنّعين من أستاذ مدرسة، ليدور بينهما حديث قصير، ثم ما لبث أن تابع المقنّع رش المبيد متابعاً عمله. فكانت دهشة الأستاذ واضحة على وجهه بالرغم من الضباب المنتشر، وقد وقف الأستاذ مفكراً لدقائق قليلة ثم اتجه شاب من مجموعة الطلاب يهمس في أذنه. فتحرك الطالب إلى آخر يفعل الشيء نفسه، وكأن منشوراً سرياً يتنقل بسرعة بين آذان الكثيرين، وإذ بأستاذ جامعي تعود على أن يكسب جولات الشطرنج مع عزمي، وأسرّ في أذنه بما سمعه لتوه من أخبار يتداولها بعضهم:

– هناك أخبار تدور حول حدوث انقلاب.

فكادت عادة الحرص أن تفلت من عزمي فلجم صرخة غصت بها حنجرته، وابتسم قائلاً:

- أمر لا علاقة لي به!

وكان تحفظه يرافق تفكيره في احتمال خطأ رجل المكافحة. إلا أن الفرح تمكن من قلبه.

وساد القبو اضطراب نُسي أمر القمل معه، وتحول التهامس إلى جهر تداوله عدد من المعتقلين، فتبادل رجال مع آخرين القبلات، فلم يغير عزمي من ثباته وقد عاد إلى الشطرنج يلاعب نفسه. وما إن انتهت مهمة رجليّ المكافحة حتى فتح الباب الحديدي على مصراعيه لتتدفق منه ثلة من الجنود بلباس الميدان تتقدمهم البنادق السريعة، ويصرخ قائدهم:

- لقد سقط الانفصال يا رجال، وستعود الوحدة.

فتعالت الأصوات مهللة، وساد هرج محموم كنوبة جنون، ثم هيمن الصمت فجأة والأنظار تتعلق برجل مدني شق الطريق بين الجنود ووقف بمهابة يخاطب الحضور بصوت فيه تصميم هادئ:

- يرجى من السادة الهدوء. إننا نعمل على التحقق من أسماء المعتقلين لأسباب سياسية، وسنعمل على الإفراج عنهم بأسرع مما يتوقعون!

وفي تلك الليلة استقبل الحي الضابط البطل الذي خرج من المعتقل ليعيد الوحدة. فرقعة سيف وخبطة الأقدام على الأرض في الدبكة المنعقدة وزغاريد. وكانت حبال الأنوار تمتد من شرفة إلى شرفة لتحيل الليل إلى نور. وبالرغم من انتشار قوات عسكرية في المدينة بأسلحتها وعتادها للحماية من أي مقاومة محتملة، فإن أفراداً من الجيش اختلطوا بالاحتفالات الشعبية التي أقيمت في عدد من الأحياء يشاركون في الرقص والتهليل. وتبين في الساعات الأولى أن انقلاب الجيش على الحكومة الانفصالية قد وجد له إجماعاً في قلوب الناس. واكتشف عزمي بعد زمن من اختلائه بسلمى التي اختلط عندها بكاء الفرح بالشوق، أن أحداً من رفاق فرقته الحزبية لم يكن في استقباله، فتوالدت شكوكه وعاد إلى عزلته يفكر، فحسبت سلمى أن المشقة التي عاناها زوجها في الأيام السابقة سيصعب نسيانها، فقررت أن تبذل ما بوسعها لتنسيه أشهر الاعتقال.

واستدعي المقدم عزمي بعد أيام قليلة للالتحاق بالقاعدة، فعاد إلى بيته من العاصمة برتبة عقيد، وقد تبين له بشائر الأمور، فالحزب له دور فعال في تنظيم آذار الذي بات يوسم بالثورة، وقد تأكد له ذلك من زيارة قام بها سامي وعدد من تنظيم فرقته إلى مكتبه العسكري. وأصبح من أركان الطيران في النظام الجديد، فازداد إصراره على ممارسة عمله العسكري الفني يفضله على أي عمل سياسي عرض عليه، وكان يردد دوماً أن الدفاع عن سماء الوطن هو الأسلوب الذي يتقنه، فكانت رغبته قد لاقت احتراماً لما يحمله ماضيه من تفوق. كان الحزب قد رشحه لمناصب مختلفة، إلا أنه لم يفلح في الضغط عليه مقدراً قدرته على تحمل سرية انتمائه في المعتقل

وفي رفض الإغراء أيام الانفصال في العودة إلى الجيش. كان حالة متفردة، وظلّ عزمي وفياً لعمله الحزبي والعسكري في آن، فتجمعت حوله محبة الجميع من مسؤولين وضباط. وزادته السيارة المرسيدس مهابة بين أهل الحي.

وكان عزمي يقود فريقاً يعمل على تقوية سلاح الطيران بالتدريب في الخارج وبالدورات العملية والعلمية للشباب المنتسبين إلى هذا السلاح. وكان استقبال طائرة مقاتلة حديثة يعادل عنده ولداً يرزق به. وتهمس سلمى أنّها ترغب في أخ لولدهما جمال، لكنه يتعلل بأن خطورة المستقبل تمنعه من أن يفكر في مثل هذا الأمر. فقد بات التفكير في خطر إسرائيل على الوطن شاغله الكبير. فكانت أيامه مليئة بالاهتمام المتزايد بالتقارير والكتب والإشراف على بعثات التدريب، وكأن الحرب ستقع لتوها. ولم يقتصر عمله على إعداد الطيارين بل كان أيضاً في استزادته الدائمة من التاريخ والعلوم والمعارف التي لها علاقة بمستقبل الطيران والبلد. كان يردد دوماً:

- لا بد أن الحرب قادمة، وستكون علاقتها مع السماء أكثر من الأرض، لذا فنحن المسؤولون دون ريب!

وكما حدثت المفاجأة أيام المعتقل، اغبرّ يوم حزيراني بعد سنوات قليلة من آذار عزمي، واشتعلت الحرب التي شنتها إسرائيل، فلم تشلّه المباغتة، فكان أول المحلقين في الفضاء بالرغم من مركزه القيادي. وعلم عزمي أن يومه الحاسم قد جاء، فاستجاب للأوامر في اللحظات المبكرة من العدوان. كانت السماء فُتحت له وتلوّن سديمها بالأمل، فأحس بشفافية تتملك روحه متسللة إليها بعذوبة وكأنّها لحظات الحب مع سلمى، وتختلط تعاليمه لسرب الطيارين من خلفه بوشوشات زوجته وهي تملأ أذنيه بالأشواق، فيزداد تعلقاً بلحظات الانتصار الذي يسعى إليه بجنون العاشق. وكانت المسافة إلى الجنوب تمتد أمامه كشهاب يمتطيه وهو يقطعها بحماسة طاغية.

قال طيار من السرب والدموع تملأ عينيه:

- رأيت طائرة العقيد تهوي قرب الحدود مع لبنان، فأجبرني سرب العدو على التراجع، فلم أملك أي قدرة على فعل شيء لقائدي وحبيبي!

وكان عزمي قد سمع انفجاراً يهزه في مقعده، كأنما الطائرة تصطدم بصخرة فضائية. وكتب الطيار الشاهد «لا بد أن ما لمحته عن بعد كان نقطة تتهاوى في نزولها إلى الأرض، ولا أعلم إن كانت مظلة أو كومة دخان انفصلت من الطائرة».

واحتضنت سلمى ولديها تخفي فجيعتها بقولها إن بابا سيعود وأنه لم يخلف يوماً وعده. وانتهت الأيام الستة للحرب الصاعقة، فلم يطرق باب الدار أو يعلن الهاتف عن خبر، فلم تجرؤ على السؤال أو الاتصال بأي جهة للاستفسار. وتنامى الأمل الذي كانت تغذيه ذكريات الحب بقوة لم تعرف سلمى لها مثيلاً.

«غداً يعود عزمي»

قول يتكرر في اليوم أكثر من مرة، وبات يقين هذه الجملة من نسيج الروح يقودها في البحث عن حقيقة تطلع سلمى إلى وعد من السماء كان يستقر جازماً في الرؤية والرؤيا. مقعد عزمي المفضل، فنجان قهوته، جانب السرير الذي يستلقي عليه، شورت الرياضة المنزلية، البيجاما التي تعبق برائحة جسده المسكرة، جواربه، طيف قامته يجول في الدار كملاك حارس، ابتساماته وهو يضم الولدين إلى صدره، ضحكاته لانكسار صحن أو وعاء الأزهار أو أي شيء ثمين. وتشهق باكية في عزلتها ولا تلبث أن تقول:

- أراهن بحياتي أنه سيعود.

24 هتف كريم مرحّباً وهو يستقبل العائد، وترك كرسيه وقام من وراء المكتب فاتحاً ذراعيه لمراد، فكان شيئاً غير مألوف يحدث في تلك اللحظات. أمسك بذراعه وأجلسه على الأريكة الجلدية بالقرب منه كما يفعل عادة مع كبار العملاء والمسؤولين. وكانت هدى قد تغيبت عن استقباله في المطار كما وعدت فتوجس شراً، إلا أن استقبال الوالد خفف من الوساوس عنده. قال كريم وهو يشدّ على ساقه:

- نتائج عملك أثارت غيرة موظفين هنا.

وأضاف بقوله وهو يعود إلى مكتبه:

- ستة أشهر زمن قياسي لإنجاز مشروع كذاك. إنشاء عمل متكامل يعطيك الحق في المكافأة التي تريدها.

ويقلب أوراقاً بين يديه، ويقول:

- تبين أنك وزعت المكافأة التي أرسلتها إلى مشروع مكسيكالي على العاملين، وحرمت نفسك مما تستحق!

فكان على مراد عند تلك اللحظة أن يصعّد من حرارة اللقاء، فقال وقد منحته متاعب طريق العودة إلى باريس الشجاعة:

- مكافأتي يا سيدي هي في ثقتك بي.

فردّ كريم وهو يقطع طرف السيجار:

- أنت أهل للثقة حقاً يا مراد!

فاستجمع مراد نفسه من جديد وقال:

- أجد مكافأتي في قربي منك يا سيدي.

فهتف كريم وهو ينفث سحابة من دخان:

- أعترف أن نجاحك في المكسيك زادك قرباً.

فقال مراد من خلال ابتلاع ريقه:

- وهل أطمع في مكانة أكثر قرباً؟

وضحك كريم قائلاً:

- وها أنت من جديد في باريس!

فقال مراد بشيء من مرح تجرأ عليه:

- باريس كبيرة كما تعلم يا سيدي.

فنظر إليه الرئيس متفحصاً وكأنه يراه للمرة الأولى، فانخلع قلب مراد وهو يسمعه يقول:

- كنت أفكّر جاداً في أن يكون مكانك هنا في الإدارة المركزية. الا يحقق ذلك قرباً أكبر؟

فردّ مراد بحماسة وقد سحره ذكاء الرئيس:

- وهل أملك إلا ان أنفذ ما تأمر به عادة!

نهض إذاك كريم واقفاً وهو يدخن السيجار بتلذذ أثار غيرة مراد، وتذكر كلمات هدى عن أبيها، فهبَّ واقفاً في مكانه بانتظار كلمة، لكن الرئيس لفَّ دورة كاملة حول مكتبه الزجاجي ليعود إلى مكانه ويمسك بزجاجة العطر المكسيكي التي أخرجها من رف بقربه، وجعل يردد بإعجاب:

- هودالا.. هودالا..

ويعلق بقوله من خلال سحب الدخان:

- لقد مسست قلب هدى بتسمياتك المشتقة من اسمها.

وأكمل بقوله وهو يسترخي على كرسيه الدوار:

- أعلمتني هدى بنتائج زيارتها القصيرة لمكسيكالي. أنّها تدافع عنك، وأظن أن نجاحك هو الذي يشفع لك دوماً، فلا تتخلى عنه.

فقال مراد دون تفكير مسبق:

- وهل تسمح لي سيدي أن أدافع عنها؟

فرفع كريم حاجبيه متسائلاً:

- وهل هدى بحاجة إلى دفاع؟ إنّها كتيبة لوحدها.

وقدم علبة السيجار، فأجاب مراد معتذراً:

- لست في مقام من يدخن السيجار الكوبي مثلك يا سيدي!

فقام كريم بانتزاع واحد من العلبة قدمه لمراد وهو يقول له:

- وما الذي ينقص شاباً ناجحاً وطموحاً مثلك؟

فاحتفظ مراد بالسيجار وقال فجأة بصوت خفيض:

- لا أعلم يا سيدي إن كنت طموحاً بما يكفي لأطلب يد الآنسة هدى؟

فساد صمت أحس به مراد وكأنه يسبق الرعد، وقد لمح وميضاً في عيني الرئيس ليقول لنفسه:

- وقعت الواقعة وانكسر سلم الطموح.

كان الهاتف يرسل رنيناً زاد من مخاوف مراد، فأخذ كريم بالسماعة إلى اذنه، ففُهم من حديثه أنه بانتظار قادم إليه، فلملم خوفه وقرر ان ينطلق خارجاً، إلا أن كريم قال بهدوء مريب:

- لا يليق مكتب العمل بمناقشة مثل هذا الأمر. أنا بانتظارك غداً في التاسعة ليلاً. أما زلت تتذكر عنوان المنزل؟

وعاد إلى ملف على المكتب يقلب في أوراقه. آنذاك انحنى مراد بتحية وكأنّها صلاة.

وأعادته سيارة المؤسسة إلى الدار وهي التي جاءت به من المطار. كان في الطريق يتمنى أن يصرخ بالفرح الذي ما عاد يحتمل أن يحتفظ به في صدره، لكن السائق العجوز بات يسأله عن الفتيات المكسيكيات بخبث، فيشاركه أوهامه بالحديث عن الفتنة المثيرة في سمرة الجسد والتهاب العاطفة، ويضحك في سره لأن السائق يجهل تماماً ما يدور في أعماقه من اشتياق إلى فتنة المحبوبة التي لا تجاريها امرأة في العالم.

واستقبلته عتمة الدار بنور يطفح من الحنين إلى كل شيء فيها، فارتمى على مقعد كوليت وكأنه يعتلي عرش النصر، وتعلقت كل نبضة من قلبه بجهاز الهاتف متوقعاً مكالمة من هدى، ومرت الدقائق كسنين تتسلى بالاستماع إلى خفقات صدره. وكان أن استجاب الجهاز للرجاء فقفز مراد إليه ليسمعها تقول بالفرنسية:

- باريس ترحب بك أيها الفارس المكسيكي.

ولتعقب بالعربية:

- اعذرني حبيبي لغيابي عن استقبالك في المطار.

فهتف مراد:

- كنت موجودة حقاً هناك، ورأيتك في كل شيء وقعت عيناي عليه.

وقالت هدى وكأنّها تتذكر أمراً منسياً:

- لا بد أن الطائرة تأخرت فقد اتصلت بك أكثر من مرة.

فأجاب وهو يحاول أن يخفي تباهياً كاد أن يفلت منه:

- جاءت في موعدها، ولكن الذي أخرني لقاء بالغ الأهمية.

فصاحت غاضبة:

-ومن عندك أهم من هدى؟

فقال ببرود متعمد:

- يؤسفني يا أميرتي أن أقول نعم، فاللقاء مع الوالد كان هو الأمر البالغ الأهمية.

وتساءلت بلهفة:

- أحقاً قابلته؟ وهل حادثته؟ وماذا كان ردّه عليك؟

قال مراد بهدوء يحمل خبث المداعبة:

- رفض أن يُدرس طلبي في مكتب عمل..

وتوقف ثواني ليكمل بعدها وقد سمع شهقة صدرت عن هدى:

- قال إنَّ البيت جُعل للبحث في مثل هذه الأمور، وأعتقد انني سأزوركم مساء الغد.

فلم يسمع منها أي تعليق أو رد فعل، بل قالت بهدوء تحذيري:

- كن مستعداً للحوار مع كريم، فهو مفاوض صعب. الخاسرون معه أكثر مما تتصور!

وهتفت وكأنّها تضع حداً للحديث:

- أنت بحاجة إلى نوم هادئ وطويل. أقبّلك.

وأحس مراد بخوف وهو يتوجه إلى غرفة النوم، وقد ساهم ذلك الخوف في تمزيق نومه فتداخل القلق بين كل إغفاءتين قصيرتين، لتكون ليلة طويلة بعذاباتها.

وها هو يعود من جديد إلى شارع (فوش). وسخر من درج (عقبة الياسمين) وهو يقطع الممر إلى مدخل القصر، وكانت الثقة بنفسه التي احتفظ بها للقاء قد استخلصها من عواصف القلق التي تقاذفته بعد إشارة هدى الهاتفية. وقرر أن يتابع اللعب بأوراقه مهما كانت النتائج، فالموت لا يأتي الإنسان سوى مرة واحدة، ولن يكون الرفض المحتمل أقسى من أيامه الحلبية. وعندما قادته الخادم إلى الغرفة التي تخص سيد الدار وكأنّها امتداد لمكتبه في المؤسسة. وفاجأه كريم يقول وهو يدخل عليه في حيرته من اختيار مقعد:

- تعجبني الدقة في المواعيد!

وانسحب الخادم بعد تقديم (الليكور)، فباتا متقابلين في جلوسهما، وكانت أنوار المكان الخفية قد نشرت الحذر في فضاء المهابة. قال كريم بغتة:

- الآن أستمع إليك يا سيد مراد.

مرت سنوات باريس الأولى أمام عينيه كشريط لا يخفي نظرات سيد الدار المتفحصة. قال مراد:

- أيام قاسية مرَّت عليَّ في متاهة هذه المدينة، فأنقذني منها عطفك علي وإلحاقي بمؤسستك.

وأطرق برأسه يلملم أفكاره، وتابع قائلاً:

- كان إعجابي بك سيدي قد كشف لي عن قدرتك في بناء سليم لكل شيء يخصك، أعمالك.. أسرتك الكريمة. ولا أنكر أنك بت المثل الأعلى لي، وأصبحت الآنسة هدى هي الحلم الذي يعطيني معنى الحياة.

فاجأه كريم بقوله مقاطعاً:

- هل تحب ابنتي هدى حقاً؟

واستقام واقفاً كأب قلق، وتساءل:

- هل تعرف كل شيء عن هدى؟

وتابع وهو يقطع الغرفة ماشياً كأستاذ محاضر:

- لم أنجب كثيراً، وهدى الآن تساوي عندي الدنيا بأسرها. منحتها كل شيء، فهل تستطيع أنت؟

هتف مراد بحرارة بالغة:

- حبي لها يا سيدي قادر على فعل المعجزات.

فقال كريم:

- أعلم أنك شاب طموح ويعرف كيف يكون النجاح..

وما لبث أن هتف بعد توقف قصير:

- هدى فتاة مدللة، وأنت تعلم كيف تعيش. أتراها تستطيع أن تجاريك في حياتك؟

فقال مراد بتصميم:

- إني أبذل ما بوسعي لكي تكون الحياة لائقة بها.

فصمت كريم طويلاً، وما لبث أن قال:

- ليكن الاجتماع إذن كاملاً، فأنا أريد أن أستمع إلى آراء الجميع.

وانضمت هدى وأمها إليهما، فباتت الحلقة رباعية الأطراف. وبدا الأب كرقيب حيادي وهو يتوجه بالكلام إلى هدى:

- أنت تعلمين يا ابنتي أني أحبك، وأنك ستذهبين يوماً إلى بيت الزوجية. ها هو مراد أمامك الآن وهو يطلب يدك، ونحن هنا لنستمع إلى ردك لأنه الأساس.

فقالت هدى وهي تبتعد بعينيها عن مراد:

- أريد أن أسمع رأي ماما.

فقالت الأم بأسى:

- تعلمين يا حبيبة ماما أني لا أتصورك بعيدة عني، ولكني أعتقد أن مثل هذا الأمر يعود إليك وحدك.

فهتفت هدى بصوت خفيض:

- أوافق، فأنا أحب مراد وهو يحبني.

قال كريم بعد لحظات من السكوت المتأمل:

- هل تحققت تماماً من مشاعرك يا ابنتي؟

فقالت هدى بتأثر:

- أيام وشهور.. بل سنوات مرّت وأنا أمتحن عواطفي، لأجد أنني احبه حقاً.

فتساءل كريم:

- وتقبلينه زوجاً بكل الظروف والأحوال!

فهتفت هدى:

- أحببت الرجل الحقيقي في مراد. وهذا ما لن أساوم عليه بأي شيء آخر.

قال كريم متوجهاً إلى مراد:

- وهل تساوم على حبك لهدى بأي شيء؟

فهتف مراد بنشوة محافظة:

- عروش العالم وكنوزه لا تساوي عندي لحظة واحدة من حب هدى.

آنذاك تقدم كريم منه يمد يده مصافحاً ويقول:

- أباركك، لكنني أحذرك من أي إساءة إلى محبوبتي.

واستدار إلى هدى فارتمت عليه تحتضنه، كانت الأم تكفكف دموعها، وهتف كريم بمرح:

- ألا تستحق هذه المناسبة عشاء في مطعم لائق. ما رايكم بمكسيم؟

وهمت الأم على مراد تقبله فتختلط الكلمات المخنوقة بالدموع:

- ستكون مسؤولاً يا ولدي عن جوهرتي الغالية.

هل ما يحدث هو الخيال أم أنه الحقيقة؟ أتراها بدايات السماء فتحت عليك يا مراد؟ وهل كنت تحلم بأيامك الحلبية بمثل هذه النعم التي تتساقط عليك من غير حساب؟. واستجر خيط الأيام، مدام كوليت والبداية، ليالي الأرق وأيام العمل. هدى المنال الصعب. والآن في هذه اللحظات العجائبية يتحقق كل شيء! أهي الأسطورة الحديثة التي تروج لمثلها الأفلام والروايات؟ وهل وقع الخيار عليك يا مراد لتنال المستحيل من دون ملايين الشباب الذين يسعون إلى فرجة ضيقة في جدار أحلامهم؟. وشعر بالخوف بعد أن عاد إلى داره يتقوقع في فراشه مفكراً. هل صحيح ان التعاسة تأتي عادة بعد السعادة المباغتة؟

25

عاد ممثل المؤسسة من سورية، وكان يتابع أعمال صفقة محتملة مع الحكومة لتوريد آليات مختلفة، وقد استطاع أن يحصل على معلومات كان مراد قد طلبها عن أهله. قال إنهم لم يعودوا من سكان عقبة الياسمين، وقد أفاده الجيران المشاركين في الدار أن البنات الثلاث قد انتقلن بعد الزواج، وإنه يأسف لإعلام مراد بوفاة أمه التي انتقلت إلى مثواها الأخير بعد مرض عضال. وقال الممثل إنه لم يستطع العثور على عناوين الأخوات. واصيب مراد بجرح في قلبه، وكان قد قرر بعد سنوات الغياب الطويلة أن يستدعي أهله كي يعاينوا النجاح الذي أصابه، فيكسب الرهان مع نفسه. أهي الخسارة الأولى؟

وابتدأت صحوته الحلبية مع بداية الاستعدادات الجادة لحفل الزفاف الذي أصرّ كريم على إقامته في دارته. ونزفت جراح مراد قبل أيام من إعلان الانتساب الحقيقي لإمبراطورية الانتعاش الأوروبي. وكان قد أقسم ألا يقدم نفسه لأهله إلا بعد أن يمسك براية الانتصار، وعندما رفعها عالية، تملكه شعور بأن جحوده وإهماله قد أخطآ حساب الأقدار، فانزوى في داخله غارقاً في طين الخجل ولوم النفس.

- ما مقدار ما عانته أمه؟ وهل ذكرته في دعواتها وهي تقبل على الموت؟

- ما مصير البنات في زواج لا يعرف عنه شيئاً؟

وفاضت الآلام من جسد الذكريات المستيقظة بشراسة، فتخبط في سيلها المتدفق.

قالت هدى له في جلسة مع الأم، وكانوا يستعرضون لائحة الدعوات:

- لم توجه أي دعوة لأهلك أو لأحد من حلب!

وتساءلت مستغربة:

- لم تحدثني عن أهلك. الن تقدمني إليهم؟

فداری مراد ارتباكه بقوله:

- تعلمين أن حرب الأيام الستة قد أفسدت أموراً كثيرة. وأعتقد أن الأوضاع لن تسمح لنا بحضور أحد. سادعو أهلي إلى زيارة خاصة بعد هدوء كل شيء.

واضاف بحنان مصطنع:

- وسنذهب ذات يوم إلى حلب.

فصاحت هدى معترضة:

- وأريد أن نزور لبنان، فأنا أريد أن أعرف الكثير عن أقاربي. أريد أن أرى شجرة الأرز وتنور الخبز القروي، وأتمنى أن أركب حماراً يصعد بي الجبل.

وتوجهت إلى أمها باللوم لأنّها لم تذهب بها مرة إلى هناك، فكان الرد تغنياً بالأيام اللبنانية، وخففت من غضب ابنتها بقولها إن الوالد يفكر جدياً بإحداث عمل في لبنان، المشكلة هي في الظروف المواتية.

واحتشد مئات الضيوف في صالات القصر وحديقته الخلفية، واشتركت سلال الزهور مع أناقة الرجال وتبرج النسوة، في تشكيل لوحة لمعرض من البذخ والمجوهرات. رجال مصارف وأصحاب شركات ومصانع من كل أنحاء أوروبا. سياسيون بارزون وسفراء وفنانون ورؤساء تحرير. فظهرت في تلك الليلة المكانة الحقيقية لكريم الذي توسط العروسين وهو يقدمهما إلى ضيوفه، وانبسطت أمام ساحة المجتمع الهائلة فلم يستطع مراد في غمرة النشوة أن يستوعب خطورتها آنذاك على المستقبل الذي أعدّ له. فرقتان للموسيقا تناوبتا العزف، الأولى غربية لمتعة الضيوف والراقصين، والأخرى اختتمت بألوان شرقية وأدعية دينية استجاب لإيقاعها الأوروبيون يتمايلون على إيقاعها وعلى شراب الكؤوس التي لم تعرف سوى الامتلاء. وكانت هدى تصغي باهتمام إلى إعجاب صديقاتها بمراد، فيزيدها الفخر تألقاً. قال مراد وهو يراقصها:

- كان يليق بك اسم أميرة، ولكنك أعطيت لاسم هدى معنى الإمارة فعلاً.

وقالت أم هدى وهي تقدم له بنفسها طبق الكافيار:

- ادخلت الفرح إلينا، فحافظ على أن تقدمه دوماً لزوجتك.

وتساءل في سره:

- أصحيح أن ما يجري الآن هو احتفال حقيقي، أم أنه فيلم أميركي؟

لقد اكتشف مراد بعد الموافقة على طلب يد هدى انه قد فقد أمه الحبيبة، فما الذي يحتمل أن يحدث بعد هذا الطقس التاريخي الذي لا ينسى؟

عاد الزوجان بالسعادة المختزنة والسمرة اللامعة من جزيرة (مايوركا)، فكانا ممتلئين بالبهجة وحيوية العشاق، وكأنهما اتخذا قراراً في استمرار شهر العسل إلى آخر العمر. وكان كريم في استقبالهما في المطار وغابت الأم بسبب آلام الروماتيزم. وبادرهما الأب في طريق العودة بقوله:

- الآن لديكم ثلاثة خيارات. أن نعود إلى بيت العائلة الكبير، أو أن نتجه إلى دار مراد، وخياركم الثالث هو شقة أعدت لكما في الحي السادس عشر.

هتف مراد وهو يشدّ هدى إليه:

- الرأي لصاحب الشأن.

فقالت هدى تخاطب زوجها:

- الم نتفق على الإقامة حيث أنت تقيم؟

فتساءل كريم بتعاطف أبوي واضح:

- ترى أيتسع ذلك البيت لزوجين مثلكما؟

فهتفت هدى بحرارة:

- أحن إلى العشّ الصغير.

فضم كريم ابنته إلى صدره وهو يتمتم بعاطفة مؤثرة:

- سأفتقد شغبك يا حبيبتي.

فقالت وهي تقبله:

- من قال إني لن أكون كل يوم معكم!

والتفت إلى مراد ممازحاً:

- هل تعلم أن الخصم قد احتل مكتبك في المؤسسة، وأعتقد أنك لن تستطيع العودة إليه.

وأضاف بجدية بالغة:

- منذ الغد، سيكون مقرك في الطابق الثالث. غرفتك تعلو غرفتي يا سيادة المستشار العام.

فخفق قلب مراد للمفاجأة، وهتفت هدى:

- وهل يتسع مكتبه الجديد لاثنين؟

فقال كريم بلهجة تقريرية:

- أعمال مراد الجديدة لن تسمح له بالتفرغ لك أثناء العمل يا حبوبتي.

فبدت وكأنّها غاضبة حقاً وهي تقول:

- هل ابتدأت الخطة في إبعاد الزوج عن محبوبته؟

فمسح الأب بكفيه على رأسيهما بحنان وهو يطلب من مراد أن يدل السائق على عنوان داره.

واستعادت الليلة الأولى في الدار الصغيرة حرارة الوجد الإسبانية التي زادت منها رمال الشاطئ في الجزيرة. وشهدت ظلمة الدار شموعاً وزعتها هدى في كل ركن لتميس على نورها المتراقص بشفافية ثوبها وأنوثتها، فتستمر ليالي مايوركا بصخب الوصال الذي لا ينقطع. وكانت هدى تنتقل من أحضان مراد إلى البيانو تعزف عليه لتنتقل من جديد إلى الأريكة لتشرب من كأس حبيبها، ثم لا تلبث أن تقوده إلى الفراش، وكأنّها تعلن عن رغبة متحرقة في التأكيد على أن الزواج قد حدث. يقول لها:

- أحبك.. أحبك.

وتقول له:

- ليس كمثلك رجل.

ويطلع النهار، ويدخل الضوء من شق الستار ليكشف عن استسلام الجسدين لنوم عميق.

وقام كريم بتقديم مستشار المؤسسة إلى ممثلي مجالس الشركات

والفروع، فلمعت عيون بالحسد وتهللت وجوه بالترحيب. واستفاض الرئيس في توضيح دور مراد في الاطلاع على كل خطوة من أعمال المؤسسة وأن التعاون معه هو دعم لتقدم المؤسسة والتزام بخطتها. وكان مراد هو الأصغر سناً من بين الجميع، فرد على تقديمه بخطبة مختصرة، أوجز خاتمتها بقوله:

- نحن جميعاً مكلفون بمساندة خيال الرئيس كي يستمر نجاحه في قيادة الأعمال. شكراً لكم، وتسعدني صداقتكم. فرمقه كريم بنظرة إعجاب سيعمل على إثارتها بشكل دائم. وفتحت لمراد الوظيفة الجديدة الفرص ليطلع على أرجاء الإمبراطورية التي بناها كريم، فأدهشته تلك القدرة على الإمساك بكل الخيوط وإدارة الفروع التي انتشرت في أرجاء من العالم، فلم تكن عبقريته لتقتصر على التجارة بل انسحبت على مشاريع صناعية تجلت فيها روح الخلق والابتكار، وأما جانبه المالي فكان يتمثل في استيعاب لحركة البورصات والأسواق في العالم، فكأنه لم يكن متأثراً بها بل مؤثراً أيضاً، فأدرك مراد أن مثل هذا العمل يحتاج إلى أكثر من عمر واحد ليصل إلى ما اكتسبه كريم من خبرة هائلة.

قالت هدى بعد أسبوع من الإقامة في بيتهما الصغير، أنّها تواجه مشكلة في العثور على مكان مناسب لسيارتها وبخاصة أن سيارة مراد باتت كبيرة أيضاً، فما المانع من تفحص الشقة في الحي السادس عشر. ولم يسمح له وقته المليء بمشاركتها فترك لها القرار، فحملت إليه رغبتها بعد ذلك في الانتقال إلى البيت الجديد شريطة التردد على دار كوليت التي شهدت لحظات ولادة الحب، فلم يبدِ مراد أي معارضة.

كان البيت الجديد يحتل مساحة كبيرة، وقد أعد بما يليق بزوجين مقدمين على حياة الرفاهية. النباتات المعلقة تحيط بأطراف البناء الحديث الذي اختصت به عائلات ثلاث، ممثل شهير، ومدير مصرف كبير والمستشار العام في المؤسسة الاقتصادية الكبرى. وكان قبو العمارة قد خصص لأغراض متعددة منها المرآب الذي يتسع لجيش من السيارات. وأثار انتباه مراد أن اسمه الشخصي كان يدل على البيت بلوحة مرمرية، وأن بواب

العمارة رحب بهدى على أنّها السيدة زكريا، فتوسع صدره بمشاعر الفخر وأدرك أن له مكانة حقيقية في قلب عمه ورئيسه كريم فلا خوف عليه من شكوكه في احتمال انكسار خط السعادة. وكان الصباح على الشرفة المطلة على الحديقة اليابانية، أو في غرفة المكتب التي تشرف على امتداد تلك الحديقة الساحرة، يصبح بداية يومية لمواصلة الحب بالصمت أو تبادل الود في الكلام عن أحداث يوم سابق. هتفت هدى بعد أسابيع مرت على استقرارهما في الشقة الفسيحة:

- أتمنى لو أننا نقضي فترة في قرية جبلية.

فأجاب مراد وهو يتصفح اللوموند جريدته المفضلة:

- الأيام القادمة كثيرة، وفترة الإجازة السنوية لم تحن بعد.

وهتف بعد قليل:

- لم لا تشاركيني صباح كل أحد لعب التنس؟

صاحت هدى ذات يوم، وكانت الخادم الآسيوية تصب الحليب على القهوة فارتعشت يدها للصوت وانسكب الحليب على السجادة الصينية:

- أنت لا تستمع إليّ أبداً.

وطردت الخادم معنفة، وتابعت صراخها:

- لا يهمك في الحياة سوى أخبار البورصة.

آنذاك رمى بالجريدة جانباً، وقام إليها ليضمها إلى صدره، ويقول:

- أخفت المسكينة، لم يكن لها ذنب، ثم إني لا أهتم بشيء سواك يا حبيبتي.

فقالت هدى باكية:

- أحبك، وأريدك أن تكون معي دوماً وأن تظل لي وحدي.

فتمتم مراد كمن يهدهد صغيرته:

- وتريدين أن نترك بابا كريم وحده يعمل! إنني كما تعلمين موظف في مؤسسته.

وهدأت أيامهما بعد حوادث متفرقة، اكتشف فيها مراد القلق الداخلي الذي تعانيه زوجته، فبات يمتص أي نزق أو ثورة تظهر في كلام أو

تصرف لها، ويحاول أن يكثر من السهر الليلي خلال الأيام التي لا تلزمه فيها أعمال المؤسسة التي تزايدت فيها أعباؤه. وأعلن الطبيب الخاص بالعائلة بعد أقل من سنة أن على السيدة ملازمة الفراش حماية لها من الإجهاض، فطارت العائلة فرحاً بينما خيمت الكآبة على هدى التي أجبرت على الراحة المستمرة إلى لحظة وضع مولودها. ومنحت سعادة مراد قدرته على تحمل دلالها في الأسابيع القليلة الأولى، ثم بات الضيق ينضح به جلده وهو يستمع إلى هدى في شكاواها المتناثرة على سطح الصباحات والمساءات المتعاقبة تؤكد أنه السبب المباشر في سجنها هذا، فلولا الحب لما حملت منه، وأنه يجب أن يكفّر عن ذنبه بالبقاء إلى جانبها طوال فترة الحمل. وكان لا يغفل عن امتصاص نقمتها ويغمرها بالأزهار كل مساء ويعدها برحلة طويلة إلى المكسيك وجزر الكاريبي بعد الولادة وأن شهر العسل الجديد سيكون بانتظارهما، فتهدأ، وإذا ما عصف بها الغضب اهتمت المرضة المقيمة بتهدئتها بكل الوسائل.

قدمٌ له في أرض التفوق والنجاح، وقدمٌ في مستنقع التأفف المتوالد تجيد زوجته صنعه. أهي نبوءة التعاقب في الحياة تتحقق! السعادة تلاحقها التعاسة، ولا شيء يدوم. لقد انقضى عقد من الزمن، فوجد مراد نفسه وقد خرج من بين الركام ضائعاً ليقوده دليل ملائكي إلى النعيم، وها هي الآن حبيبة القلب تقود حياتهما إلى جحيم. كان لا ينفك عن البقاء بقربها عندما يعود منهكاً من العمل، فيروي لها كل الأخبار السارة والمخترعة، ويسمعها أناشيد حب كمن يسلّي ابنته قبل النوم، وكانت تحتضن كفه بشوق فتعلن عن سعادتها لأنّها ستصبح أماً لولده، وتهب أحياناً بنزق يسمم الأجواء. ويدعو مراد الله في سره أن تنتهي أيام الحمل التي نُسبت إليها حالة التقلب التي تمر بها هدى، ويحلم بولد يأتيه، صبياً كان أم بنتاً، يساعده أكثر على امتلاك قلب عمه. وكان كريم لا ينفك يظهر محبته له يوماً بعد يوم، فيظن مراد أن تعاطف الأب يعوض عن تأفف الابنة الذي يقود إلى الجنون.

وفي أسفاره المتقطعة لمتابعة المهام التي يحددها كريم، كان لا ينقطع عن الحديث مع هدى في مكالمات هاتفية مطولة، فتتمنى له التوفيق أحياناً،

وتنعته بالخيانة حيناً آخر. تبكي متوسلة أن يحفظه الله لها، وتصرخ إذا ما تأخر لساعة في إعلامها عن نفسه، وتستفسر عن الفتيات اللواتي يقابلهن، وتسأله إن كان قابل امرأة أجمل منها. وكانت خطته دوماً تتعلق بإحضار أزهار الموسم من بائع قرب البيت، فيسمع التعليق الذي لا يتغير «محظوظة المرأة التي تحبها يا سيدي». وكانت هدى تتقبل الأزهار أو الهدايا بشغف العاشقة، أو ترمي بها بعيداً وتتهم زوجها بأنه يتستر على خياناته، فيعود مراد إلى كأسه يشرب منه بسعادة أو يبتلعه دفعة واحدة ليخفف من يأسه المتنامي.

واحتفل جناح الولادة في المشفى الأمريكي بخروج المولودة الباكية إلى الحياة، وبسلامة الأم التي تجاوزت خطراً أصاب كريم وزوجه بالجنون ودفع بمراد إلى بكاء حار، ثم تحولت الأحزان والمخاوف إلى فرح غامر. وتدفقت سلال الزهور، وقد استطاع مراد أن يميز أكثرها وقد جاءت إليه شخصياً، فأدرك لأول مرة في حياته الباريسية أنه أصبح ذا شأن حقيقي. وكان احتضان كريم له مهنئاً وشاكراً له أنه منحه الفرصة كي يكون جداً لمولودة جميلة، وفاجأه بعد أيام بمنصب نائب له بالإضافة إلى كونه المستشار العام، وقال له:

– كنت أظنك متفوقاً في أي عمل يعهد إليك، لكنك أثبت أنك قادر على إدخال السعادة الحقيقية إلى قلبي.

واكتشف مراد لأول مرة أن الرجل قد فقد ولداً له من قبل في حادث قدر ظالم. كانت الطفلة هدى في العاشرة وتحب أخاها الأصغر الذي غرق بين يديها بعد أن أصابت رأسه ضربة مجداف خاطئة من أخته، وكانا يسبحان في حوض الماء المخصص للعائلة في (سانت تروبيز). وهتف كريم بتأثر وكأن الحادثة قد عادت إلى الذاكرة بحيوية:

– الله يأخذ.. الله يعطي!

فكانت الدموع تختفي وراء المنديل الذي يمسح به عرقه ويتابع بمرح متكلف:

– لن أنسى أبداً هذه الهبة يا بني، فابنتك تخصني أيضاً.

قالت هدى وهي تحمل الرضيعة لأول مرة، وقد قررت أن تبقى في قصر أهلها لفترة:

- عيون مراد، وأنف بابا. جبين ماما، وحلاوة هدى!

وهتفت الأم:

- والآن جاء دور الاسم.

فهب مراد بنشوة وهو يقول:

- لنسمها هدية! هدية بنت هدى.

وهتف كريم مؤكداً:

- ليكن اسمها هدية، فهي أثمن هدية قدمت لنا.

وقال بتأثر انسحب على الجميع:

- لقد قبلنا الهدية بكل احترام.

واحتضن ابنته مقرّباً قامة مراد منه، فأصبحا ثلاثياً متعاطفاً راقبته الأم عن بعد بحنان وهي التي لجأت في أيامها الأخيرة إلى كرسي متحرك تستخدمه بين حين وآخر، وقالت معاتبة:

- أليس لجدة هدية مكان بين الأحبة؟

ويتغلغل حب الصغيرة في قلب الجد، فيترك المكتب أحياناً ليهرب إلى حفيدته يلاعبها، وقد باتت كعصفور مدرب تركض بدراجتها في أرجاء القصر. ويلتزم مراد بمتابعة أكثر الأعمال، فلا يستطيع أن يغادر مكتبه قبل انتصاف الليل، وكثيراً ما كان يعود إلى البيت ليجد رسالة من هدى تقول إن هدية ترفض ترك جدّيها، فقررت أن تلحق بها، فيجد مراد نفسه وحيداً في الفراش.

26 جاء المشروع متأخراً بعد سنوات عديدة، إلا أن افتتاح فرع للمؤسسة في سورية كانت حلب مقراً لها، بات حقيقة دون فعالية كبيرة ودون زيارة خاصة من مدير المؤسسة في باريس، فقد أجّلت (حرب الخليج) مجيء مراد شخصياً. وهكذا كانت الزيارة متوافقة مع بداية وضوح الأمور السياسية والاقتصادية. وعندما تحركت الطائرة السورية في طريقها من باريس إلى مطار حلب، أحس مراد أنه يهرب حقيقة من حياته الباريسية. الشعور نفسه يتكرر بعد عقود من السنين وهو يهرب من حياته الحلبية. أكان الحنين الجارف إلى حلب هو الغطاء لكل خطوة في إحداث الفرع فيها، أم أنه محاولة للبرهان على دورة النجاح التي رسمها مراد؟

واستيقظ على رنين الهاتف، وكان العميد المتقاعد «حسن الأحمد» يبلغه تحية الصباح، فتذكر مراد أن مدير مكتبه ينتظر تعليماته كما أشار له يوم أمس وهو يستقبله في المطار. وكان صديق له هو رجل أعمال سوري في بلجيكا قد دله على ذلك العميد، فأوكل إليه تمثيله في تأسيس المكتب والموظفين وفي اختيار الدار المناسبة لإقاماته المؤقتة. وجاءت التقارير لتفيد بأن حسن الأحمد، الذي خبر البلد في وظيفة الشرطة ومن بعدها الأمن، يتمتع بخبرة واسعة في أمور كثيرة. وكان العميد المتقاعد قد بدا له في المطار لأول مرة أنه من الرجال الذين يعتمد عليهم حقاً.

وحضر العميد لتوه، مصطحباً معه امرأة قدّمها له على أنّها ستقوم على رعايته في الفترة التي سيقيم فيها (مراد بيك)، كما أنّها ترعى البيت في غيابه حتى لا تحتله الوحشة أبداً. أثنى مراد على الرجل وقال وهما يشربان الشاي في ركن الصالة التي تطل على الحديقة العامة:

– زيارتي قصيرة، وسنترك الحديث عن الأعمال إلى المكتب، إلا أنني

الآن أريد خبرتك في البحث عن أشخاص فقدت الصلة بهم منذ أن غادرت حلب.

وسهم بعينيه بعيداً في قمم أشجار الحديقة، وقال:

– ست وثلاثون سنة مضت في الغربة!

وكان العميد يصغي بانتباه كجندي مثالي، وتابع مراد وهو يسلمه ورقة مكتوبة:

– هنا تجد أسماء أخواتي الثلاث. كنا نسكن في عقبة الياسمين وعلمت أنهن غادرن الحي بعد زواجهن. أريدك أن تأتيني بكل التفاصيل عن إقامتهن وأي شيء يدل عليهن.

تساءل العميد وهو يقرأ الأسماء:

– أليس هناك من إشارة إلى أسماء الأزواج؟

فقال مراد بلهجة رب العمل الآمر:

– هذا شأنك، ولا أظنك تعجز.

ثم ما لبث أن سلمه ورقة أخرى ويقول:

– تجد فيها اسمين لأصدقاء قدامى. عزمي الفارس، ضابط في الطيران. رضا الدسوقي، ولا أعلم ماذا يفعل بعد عودته من الأزهر.

فعلق العميد قائلاً:

– هذا أمر سهل يا سيدي. أوامرك نافذة في الأحوال كلها.

وقال لمراد وهو يقدم له مفتاحاً:

– السيارة في انتظارك أمام مدخل العمارة، وإذا كنت تطلب سائقاً فأنا في خدمتك.

فابتسم مراد قائلاً:

– لا تنسى أنني ابن المدينة، وأعرف كيف أتنقل فيها.

– لقد تغيرت المدينة سيدي.

فضحك مراد وهو ينفث دخان سيجاره الصباحي:

– ولكنها مازالت في القلب يا عميد حسن!

كان يقود السيارة للاستكشاف، فوجد أنه يواجه صعوبة لم يتوقعها،

فالمرور بين السيارات المتراكضة يشبه الاشتراك في سباق للجنون، وأثارته أصوات الزمامير فكان يقود سيارته بحذر المراقب للائحة البورصة. وبحث عن (الترامواي) فوجد أنّها اختفت تماماً فتذكر أيام الطفولة يوم كانت الحافلة وسيلة للتسلية والهرب ببراعة قبل دفع ثمن التذكرة. المدينة اتسعت كبقعة زيت انتشرت على سطح ماء، ورأى أن غرب المدينة قد بات نموذجاً لعمران حديث اختلطت فيه أشكال متباينة فاكتسبت الحجارة عشرات الشخصيات المتنافرة، وتذكر مراد صلابة التماثيل القديمة في عمارة المدينة. وتوجه إلى المدينة القديمة ليجد الفوضى وكثافة السكان كنمش يغطي جمال الأبنية العتيقة الباقية. ومضى بعيداً إلى شرق المدينة ليجد أن الصحراء قد زحفت بفطرتها وقد زيفتها الأبنية المتهالكة، وكأن فقر الريف القاحل قد انتشر في أحياء ذلك الشرق. ولم يجد نفسه إلا وهو يعود من جديد متجهاً إلى عقبة الياسمين مع نهاية النهار.

كانت منطقة خان الحرير تحفل بالمخازن التجارية تعرض الأقمشة والملابس الجاهزة، واختفت المكتبة وانتشر بائعون متجولون بعرباتهم، وتسلق عدد منهم ببضائعه درج عقبة الياسمين فتعرقل صعود مراد عند أول المدخل وقد تكسرت معظم أحجار الدرج الملتوي، فكانت خطواته محسوبة بحرص شديد متجهاً إلى البيت القديم، فافتقد النظافة التي كانت من علامات الاستقبال في العقبة. وتوقف عند دار البلدية وأيام الذكريات التي لا تغيب عن الخاطر. كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ويسد طرفاً منه عجوز يحتويه كرسي قش بمساند فكان كحارس لا يرف له جفن. تجاعيد وجهه الجامد بدت كستار يغطي نصف عينيه، ويحوّل العتمة الشفيفة من حوله إلى سكون متحف يضم مومياء وحيدة. توقف مراد أمام العجوز يحاول أن يحرك المشهد بتحية، فلم يتحرك في الرجل عضلة، فمال عليه يهتف في أذنه بعد أن اكتشف صممه:

– مساء الخير يا عم.

فهز الرجل برأسه دون أن تتحرك شفتاه. وخيل لمراد أن العجوز الساكن يشبه أحداً يعرفه. بل إنه يعرفه تماماً، أليس هو والد زهرة؟

- آه يا زهرة!

هكذا تردد في صدره الذي اشتعلت فيه جمرة الذكرى المختبئة في رماد السنين.

- ماذا تفعل الأيام بالرجال الفقراء؟

وكأن الزمن الذي خلفه مراد وراءه، لم يفعل شيئاً في عقبة الياسمين سوى الخطوط الغليظة على وجه هذا الرجل، مال عليه من جديد ورفع صوته في أذنه مخاطباً:

- أنا مراد.. جاركم مراد يا عم.

قال العجوز ليسمع صوته للمرة الأولى:

- من مراد؟

فكرر صياحه من جديد:

- أنا مراد. ألا تذكرني؟ كنت فتى أسكن مع أهلي في هذه الدار.

فرفع الرجل رأسه متطلعاً بنصف عينيه، وقال بصوت خفيض يكاد لا يفهم:

- لا أذكر أحداً بهذا الاسم.

- هل مسح النسيان كل ما يتعلق بأيام عقبة الياسمين؟ وهل يذوب الماضي حقاً في ماء الزمن؟

هكذا كان مراد يقول لنفسه. الطفولة الشقية والحب المعذب، أصبحا تراباً تدوسه أقدام الغياب. وأصبح العجوز حارساً لا يسمح لأحد بالدخول، فوجد مراد نفسه غريباً حقيقياً عن الماضي الصامت، وهو الذي شارك فيه بحيوية. وأطل رجل الأعمال من أعماقه ليتمتم:

- أستطيع شراء الدار، فأنقب فيها كما أشاء على هواي.

ثم ما لبث أن سخر من أفكاره وقال مخاطباً فضاء الزقاق:

- وما ذنب هذا العجوز؟ وما ذنبي أنا أيضاً؟

وخرجت من ظلمة المدخل الطويل صبية، ما إن لمحت غريباً حتى التحفت بغطاء أبيض يغطي شعرها. واقتربت الفتاة من العجوز لتمسك بذراعه تساعده على النهوض وهي تقول:

- وقت المغرب، ويجب أن تدخل.

وأضاء عمود الكهرباء فجأة، فانكشف لمراد وجه الصبية، ولمعت نظرات التفحص في وجه الغريب الذي لونت الدهشة قسماته. قالت الصبية وهي تبذل جهداً في مساعدة العجوز على الوقوف:

- هيا يا جدي، ستبرد إذا بقيت هنا.

- زهرة.. هي زهرة، فهل توقف الزمن عندها؟

فتساءلت الصبية وقد لمحت عينيه تتحدّثان:

- هل تريد أن تقول شيئاً يا عم؟

آنذاك هتف مراد:

- ما اسمك يا صبية؟

فرددت الفتاة بفظاظة:

وما دخلك أنت باسمي؟

- يا إلهي، وكأنّها عصبية زهرة ذاتها، ولكن الفتاة لم تتجاوز الخامسة أو السادسة عشرة، فهل دخل السحر إلى عقبة الياسمين ليعيد الزمن إلى الوراء؟ ماذا يحدث لتهيؤاتك يا مراد المتعب!

وتابع الحديث لنفسه قائلاً في محاولة لإدخال الطمأنينة إلى قلب الفتاة:

- كنت شاباً في مثل سنك، وكنت أسكن مع أهلي في هذه الدار.

فهدأت أعصاب الفتاة وتساءلت:

- نحن نسكن هنا منذ زمن، ولا أعرفك.

فقال مراد بابتسامة حزينة:

- كان هذا منذ زمن بعيد يا صبية، وكانت هناك أسر عديدة طالما اشتركنا معها في طعام واحد. وكانت هناك صبية اسمها زهرة..

فهتفت الفتاة قبل أن يكمل:

- ولكن اسمي هو زهرة!

ونظرت إليه بتشكك كمن يلمح في الغريب جنوناً، وقالت من جديد:

- أنا أدعى زهرة منذ ولدت.

ثم ما لبثت أن هتفت بعد أن أعادت العجوز إلى مكانه:

- تقصد جدتي المرحومة زهرة!

وعلقت بمرح فيه الدلع نفسه الذي كان لجدتها:

- يقولون إني أشبهها. هل هذا صحيح فأنت لا بد تذكرها؟

- ألم أقل لك يا مراد إن الماضي يموت، وأنك لن تراه من جديد!

وعاود متابعة الحديث في سره:

- ولكن يخرج من بين الأنقاض مرة أخرى، زهرة تموت فتعيش زهرة، فهل اقترب موتك يا مراد؟

وكانت الصبية تراقب سكونه بانتظار أن يقول شيئاً، وما لبثت أن نادت على أمها التي هرعت من الداخل لتقابل الغريب، فتقول لها الابنة:

- يقول إنه كان من أهل الدار!

فتطلعت الأم إليه بحذر، وتساءلت:

- من أنت يا عم؟

وهتفت الأم بعد سماعها لشرح مراد المختصر:

- سمعت المرحومة تتكلم عن شاب كان يعيش مع أهله في الدار، ثم سمعت أنه هاجر إلى بلاد بعيدة.

فقال مراد وقد بدى أكثر ارتياحاً:

- هو أنا مراد زكريا!

فهتفت المرأة باستنكار:

- وغبت كل تلك السنين، ونسيت أهلك يا عيني.

قال مراد وكأنه عاد إلى عشيرته:

- إذاً فأنت ابنة زهرة!

فقالت المرأة مؤكدة:

- نعم أنا ابنتها وردة، وهذه هي ابنتي زهره، الا ترى أنّها طبق الأصل من المرحومة أمي؟

واضافت وردة برقة واضحة:

- ليتني أستطيع دعوتك إلى البيت، لكن زوجي لم يحضر بعد.

شكر لها مراد كرمها وقال:

- أريد أن أعرف شيئاً عن أخواتي الثلاث.

فردت وردة وهي تساعد ابنتها على إنهاض العجوز:

- يجب أن يدخل قبل ان يصاب بالبرد، ولا أعرف شيئاً عن (عيشة) وأختيها، ولم أر أياً منهن منذ الزواج.

ثم تساءلت باستغراب:

- طرق الباب ظهر اليوم رجل وسأل عن أهلك!

فعلم مراد أن العميد سريع التصرف وقد ابتدأ بحثه. وقال مودعاً:

- يسرني أن أتعرف يوماً على زوجك يا سيدتي.

فتبادلت الأم مع ابنتها نظرات التعجب، وابتسمتا بخبث وكأن كلمة (سيدتي) كانت غير مفهومة.

ولبث وحيداً في البيت الموحش مع كأس لم يتركه فارغاً لحظة واحدة.

- هل ارتبط الماضي بالموت؟ وهل طرزت سجادة الزمن بغياب الأحبة؟ رحلت أمي دون أن ترى بعينيها النجاح الذي حصدته، وتموت زهرة دون أن يتحقق لها الوعد الذي قطعته على نفسي. وتقضي زوجتي هدى معظم أيامها في المصحات النفسية، فأعيش في قصر (فوش) وحيداً بعد أن تمردت (هدية) على النعمة التي هي فيها لتلحق بشاب هولندي سحرها بهيبته الكريهة وهو يتنقل بها بين معابد الهند والتيبت ضائعين في سياحة يقولون إنّها روحية. ماذا ترك لي غيابك يا كريم؟

وتساءل مراد من جديد:

- ماذا يحدث لصرح المجد، الذي أتربع عليه، بعد الغياب؟

وصرخ بوحشة قاتلة:

- تباً لك أيها الطموح!

27 أعلمه العميد حسن أن غرفة التجارة تعتزم الاحتفال بقدومه، كما أن غرفة الصناعة تطلب موعداً لتكريمه، فأفاد مراد أن يقبل العميد نيابة عنه، شريطة أن تكون الدعوة مشتركة، فيستقبل الغرفتين معاً كي يكون العشاء للعمل والاحتفال معاً، فوقته لا يسمح له بتعدد الدعوات. وفي المكتب الذي يزوره للمرة الأولى أعلن العميد عن عدم توصله إلى نتائج بحث نهائية، فالأخوات مازالت الأخبار عنهن لا تشي بيقين، وأما رفاق الصبا فقد وُعد بأن يحصل على أخبارهم في وقت قصير.

لم تكن أعمال المكتب الحلبي لتشكّل وزناً لمراد،وقد اعتبر إحداثه نقطة وصل مع الوطن الذي استيقظ فيه منذ سنوات قليلة. وقد استطاع رجال المكتب على قلتهم أن يحصلوا على مناقصة لتوريد مقاسم الهاتف لعدد من البلدات، وقبل بها مراد على علاتها كي يضع قدماً ثابتة في السوق السورية، بعد أن قرأ التقارير العالمية عنها وهي تشير إلى انتعاش قادم. وكان الموظفان الآخران من الخريجين الجامعيين الجدد، يتقن أحدهما لغتين والآخر اقتصادي، فاستمع مراد إلى ملاحظات رجاله، وشعر باهتمامهم بأداء جيد بالرغم من الخبرات الضيقة، وقال متوجهاً إلى العميد:

- المكتب يتسع لعشرة موظفين آخرين، وهذا يعني أننا يجب أن نجد من يشغله في المستقبل.

وكان العشاء في «نادي حلب» الذي يدخله مراد كملك غير متوج، بالرغم من أن بناءه العريق لم يكن ليسمح لأمثاله أيام شبابه في دخوله. وقد استقبلته وفود التجار والصناعيين بود لا مثيل له وهم يطلبون القرب من رجل الأعمال المغترب. وناب رئيس غرفة التجارة عن المضيفين في إلقاء كلمة الترحيب التي اختلطت فيها الثناءات على النجاح العظيم في احتلال مراد مكانة رفيعة في الاقتصاد، بالاستعداد الكامل لأبناء المدينة للتعاون معه

في اي مجال يريد. وكان تناول الطعام بطيئاً تداخلت فيه الأحاديث عن المشاريع المقترحة. المياه الغازية والملابس الجاهزة، ومن التعليب إلى صناعة الدواء، ومن التعهدات الكبرى إلى إنشاء القرى السياحية ومراكز الترفيه، ومن إحداث سلسلة من السوبر ماركت إلى مطاعم الوجبات السريعة، كانت الأفكار المكتوبة تتجمع عند العميد حسن الذي يتسلمها بإشارة موافقة من رأس مراد. وكادت حلب أن تضع الكثير من أحلامها بين يدي العائد.

قال مراد للعميد وهما يمشيان على الأقدام في الشارع الخالي باتجاه البيت القريب:

- ما رأيك أنت فيما سمعت هذه الليلة؟

فكان الرد سريعاً:

- لست حكيماً مثلك يا سيدي، ولكني أجد أن الأرض عطشى والزمن القادم هو للريح!

فضحك مراد وهو يقول:

- ألم أقل لكم إن المكتب يتسع لموظفين آخرين!

فقال العميد فرحاً:

- دع العجلة تدور يا سيدي، وستجد مئات من الجامعيين يقفون على باب المكتب، آنذاك نختار الأفضل.

وأمضى مراد جانباً من الليل في دراسة الأوراق، وقد استيقظ رجل الأعمال قوياً بداخله، يقلب الراي في مشروع، ويبتسم ساخراً من آخر، ويوازن بين اقتراحين متشابهين. هل كانت المدينة بانتظاره حقاً، وهو الكفيل بإنعاشها. وشعر بإحساس الصياد أن الغابة تعج بالطيور، وما عليه إلا أن يتقن التصويب. فهل كتب عليه دوماً أن يلاحق الطرائد؟

وأمضى بقية الليل متقلّباً في فراشه. يفكّر في أيام الصبا. هل كانت هجرته خروجاً من رماد الموت ليعود من جديد إلى مدينته القادمة رمزاً لحياة جديدة؟. وهل خرجت زهرة الحبيبة من موتها لتظهر في زهرة الحفيدة؟. أهو قدر العودة مكتوب على الماضي في دورة الزمن المغلقة؟ وتساءل تاركاً الفراش وهو يعود إلى الصالة:

- وهل الزمن دائرة، أم أنه نهر متدفق الجريان؟

واخترقت مخيلته زهرة، جسدها ينضح بحيوية تستدعي براعم الفل كي تتفتح بنظرة واحدة منها. كهرباء الحياة تشع من وجهها، ويشف الثوب القطني عن ثنايا بركان الأنوثة وهو يعلن عن تأهب الطبيعة للإعلان عن الفتنة. وجعل يقطع المسافة أمام زجاج الشرفة كحيوان حبيس يحاسب نفسه على شطط الذهاب بعيداً في الأفكار. هل يفكر حقاً في الصغيرة؟ بل هي التي تفرض جسدها المتكامل على أرضه العطشى. وحدث نفسه:

- نساء كثيرات من أرجاء العالم متاحة لك يا مراد!

وجعل يتمتم وكأنه يردد محفوظة شعرية:

- أنا مدين لزهرة. زهرة تعود من جديد تطالب بالدين. لا يمكن لك أن تحنث بوعد!

ويعود لنفسه يقول لها:

- قدرتك على الحب ليست أقل من نشاطك الذي لا يتوقف. ألا يحق لزهرة أن تشاركك ما جنيت من نجاح؟ وكان الزجاج يعكس صورته، فتأمل حيويته بإعجاب يقترب من الستين ومازال ينبض بقوة الحياة. ولمح بوادر الفجر تتسلل إلى الحديقة العامة، فقرر أن يعود إلى غرفة النوم يبحث فيها عن أحلام جديدة في إغفاء مستيقظ.

وقضى مراد يوميه القادمين في مناقشة المشاريع المقدمة له مع أصحابها فرداً فرداً. وتحول المكتب إلى خلية نحل. وجاءه العميد في نهاية النهار متهللاً يبشر بأنباء جديدة، فقد عثر مصادفة على اسم (عيشة زكريا) في سجلات معمل للأسنان يديره ابن صديق له، وقد وعده بلقائها ساعة تسلمها لأسنانها الاصطناعية. أما عن الأصدقاء القدامى فقد وضع أمامه عنوان العقيد المتقاعد عزمي الفارس، فلم يتمالك مراد نفسه من الفرح طالباً منه أن يقوده إليه فوراً.

وكان مساء الخريف معتماً بالغيوم التي تجمعت في السماء لتحجب أشعة المغيب،وكان العميد حسن قد عاد لتوه من الطابق الثاني للعمارة التي قصداها، ليعلمه أن صديقه بانتظاره، فقطع مراد الدرجات بلهفة. وقد

حاول أن يلجمها وهو يطرق الباب فتفتح له سيدة محجبة لتدعوه إلى الدخول وكأنه واحد من أهل البيت. وتوقف مراد يجتذبه صوت لم يفقد بحته «مراد!»، وكان عزمي الذي فقد شعره، يتحرك باتجاهه على كرسي وهو يدفع العجلتين بذراعيه، يهتف بفرح غامر:

- مراد! أيعقل هذا؟ مراد زكريا بعد كل تلك السنين!

تسمرت أقدام مراد في مكانه، وكان يبحث عن كلمات تعادل الصدمة التي ابتلعت أحاسيسه.

واقتربت العجلات منه، فأذابت المسافة الصغيرة بين الصديقين حيرة مراد الذي قال:

- تقابل العجوزان أخيراً.

ومال على الكرسي يحتضن رفيق الصبا، فشده عزمي إليه بقوة الذكريات المتفجرة، فاختلطت الدموع، ومالبثت سلمى أن خرجت من المشهد بعينين دامعتين كي تترك لعواطف الصديقين أن تشق بحرية مجراها وتقارب المحمومان بالشوق، فازدادت الحرارة مع الشاي الذي قدمته الزوجة وعزمي يشير إليها قائلاً:

- ها هي سلمى التي عرفتم كل شيء عنها دون أن تروها!

وقال لسلمى:

- ها هو مراد الذي أذكره دوماً!

فشدت سلمى على كتف زوجها بحرارة حضرت في قلب مراد، ومالبثت أن غادرت. وابتدأت صفحات التاريخ تتوالى واحدة بعد أخرى، وكأن الصديقين يعيدان كتابتها من جديد.

«حرب حزيران تركت ذكرى لا تنسى كما ترى يا عزيزي مراد، وكان موتي محققاً لولا لطف الله. التقطني مزارعون لبنانيون وأنا مرمي مع حطام الطائرة كقطعة منها. كان الحقل الكبير يستقبل الطائرة المصابة التي قادتها غريزتي الخبيرة في الهبوط، إلا أنّها لم تسلم. وعندما عدت إلى الوطن بعد غياب، تولتني عناية رئيس البلاد فتمّ إيفادي إلى الخارج للمداواة، لكن الطب الألماني فشل في أن تكون لي ساقان مناسبتان فكانت

لي تلك الوسيلة في الحركة، فالكرسي هذا يفي بالغرض. وهاأنذا كما تراني مازلت أحظى بحب سلمى وأنعم برعاية ابني جمال، وهو الآن ضابط مرموق، ولا تبخل علي ابنتي خولة بشيء وهي المنهمكة في عملها أستاذة في الجامعة، والأحفاد لا ينقطعون عني وهم العزاء».

هكذا اختصر عزمي عشرات السنين بتقرير موجز شرحته كلمات تحمل الرضى مسّت قلب مراد بالرعشة كأنما تنبش في روحه بحثاً عن الألم. اي حب ينعم به مراد! وهل تحولت مياه بحيرته إلى أوراق مالية وسندات وأسهم؟. وتساءل مراد هاتفاً:

- وما هي أخبار شيخنا رضا؟

فقال عزمي وقد خيم حزن شفيف على عينيه:

- حوالي عشر سنوات مرت على آخر لقاء كان بيننا. كنا نتزاور وقد علمت بعد انقطاعه عني بفترة أنه رجل مصاب حقاً. فقد أولاده الثلاثة، أحدهم مازال هارباً، والآخران قتلا في وكر. لا بد أنك سمعت عن الأحداث الدامية التي كادت تدمر البلاد. جماعة أصولية متطرفة تحمل السلاح، ابتلعت أولاد صديقنا رضا. وهو يدفع الثمن الآن باعتكافه في مسجد صغير يبحث عن العزاء.

وقال عزمي في محاولة لتجاوز الأخبار المحزنة:

- لا بد أنك حققت شيئاً من طموحك.

ومالبث أن تفحص صديقه معايناً ملابسه وهيئته التي انتصرت في حفاظها على حيوية شاب يقترب من الستين، وقال بمرح:

- بل يبدو أنك حققت ما تريد يا عزيزي مراد!

فابتسم مراد ليقول بسخرية مبطنة:

- نحن نريد، والله يفعل ما يريد.

وقام عزمي بالنداء على سلمى لإعداد العشاء، إلا أن مراد نهض معلناً أنه سيعود مرة أخرى، متعللاً بمشاغل كثيرة.

واستجاب العميد حسن لطلب مراد في المضي بالسيارة إلى أي مكان بعيد، إلا أن مراد مالبث بعد دقائق أن قرر العودة إلى البيت. كان الاختلاء

بنفسه هو الوسيلة الوحيدة في ذلك اليوم لمراجعة حسابات كثيرة، فلم يحاول العميد أن يعكّر صمت رئيسه باستفسار ما. واحتوته وحشة، فتجاهل مراد الرسائل المتراكمة عند الفاكس وقد أرسلها مكتبه في باريس، وغطس في مقعده ينفث الدخان، فهذا وقت التأمل.

زهرة تدق صدره بعينيها الصارختين، فينفتح لها كل باب مغلق. وتنظر إليه هدى بذبول عينيها معاتبة، فيشيح عنها محاولاً نسيان قنوطه. وأغمض مراد لتنهال عليه حجارة الماضي فلا تحميه منها سوى نظرات زهرة المشعة وكانت تحتل ركناً مظلماً، فتقدم منها يريد أن يزيح عنها الغلالة القاتمة، فإذا هي تبتسم بدلال وترسل كلمات أثيرية:

- زهرة قد عادت من جديد، وها أنت تعود إليها!

وتحولت ذكريات الزمن الغائب إلى زهور تتساقط من فضاء الحلم الكبير. هتف بنشوة حركت السكون:

- ولم لا؟ فأنا أريد استعادة الماضي. وأنا قادر!

وشرب نخب كيانه الذي استيقظت حيوية شبابه الكامنة في السنوات المتراكمة عليه، وضرب الأرض الخشبية بكعبه كراقص يفتتح احتفالاً بانتصار معلن وهو يردد «لم لا.. لم لا؟»، وهتف من جديد:

- لزهرة الحق في أن تحتفل بأنوثتها، التي لا تموت، بما يليق بها وتستحق من وعد قديم. هذا زمن زهرة!

وامتدت يده إلى الهاتف يطلب مدير مكتبه في بيته. أعلمه أن يتجه إلى عقبة الياسمين غداً لدعوة رجل يعرف بأنه زوج لامرأة اسمها وردة وأب لفتاة تدعى زهرة. وكان العميد حسن على الطرف الآخر يسجل الملاحظات ويؤكد أنه سيكون في حضرته مع الرجل المطلوب. فرمى مراد بالسيجار ليشعل آخر بقشرة الصنوبر الرقيقة وهو ينفث دخان الرضى وكأنه يدخن للمرة الأولى في حياته بمتعة لا تعادلها متعة. وتحولت جميع اللوحات الفنية في الصالة الكبيرة إلى بقع من نور تخرج منها صور زهرة الملونة بشوق دفين.

28 وكان لقاؤه مع «عيشة» كغريبين يتقاربان عند مفترق طرق لا تدل عليها علامة. وبدت العجوز كلوحة رسم الزمن على وجهها طيف الهمّ، وتحول إلى تفحص عينيها، للرجل الذي وقف مستسلماً، إلى دهشة سجين لم ير الدنيا منذ عقود. وعادت إلى أرجاء الصالة تستوثق منها علاقة الرجل بها، ثم تقدمت خطوة نحوه وقد باتا وحيدين بعد انصراف العميد حسن، فاقترب مراد خطوتين فاتحاً ذراعيه، فإذا بها تهتف باسمه، ولا تلبث أن تسمح للدموع في مآقيها أن تدفع بذراعيها إلى احتضانه وهي تنشج:

- حبيبي مراد.. حبيبي الصغير مراد!

فكان يقبل كفيها على وجهيهما ويعجز عن قول شيء سوى أن يردد (عيشة) ولا يتوقف.

وضمتهما إليها (الكنبة) تمنح الأشواق والعتاب فرصة لتبادل الحنان. هتف مراد:

- ماذا حدث للجميلة عيشة؟ ماذا حدث لنا؟

فقالت وهي تلتصق به خوفاً على ابن قد يضيع:

- من أنساك أهلك يا مراد؟

واستمرّت الدموع، وكأنّها كأس يشربان منه نخب زمن أفلت من عقاله فما عاد يعرف كيف يعود. هتفت عيشة وهي تتحسس جسده:

- مازلت رجلاً جميلاً يا مراد.

وانقلبت إلى امرأة غاضبة، وكأنّها تكلم نفسها بصوت مرتجف، قالت:

- كانت آخر أقوال أمنا، اسألوا عن مراد، فقد يكون بحاجة إلى أحد يقف إلى جانبه، يا عيني!

قال مراد بعد صمت طويل يغذيه إحساس بالإثم كاد أن يفقده النطق:

- كيف يمكن لي أن أكفر عن ذنب لا يغتفر؟

فشدته إلى صدرها بحنان حب هبّ مستيقظاً من ركام، ورددت:

- كن معي فالعمر قصير!

«زوجي أحمد عامل بيتون، يعمل أسبوعاً ويتوقف شهراً. فالأحوال صعبة والرجل صار عجوزاً ولكن لا راحة لمن كتب عليه الشقاء. والولدان يعملان أيضاً في البناء، مهنة تعيسة لا تعرف لها استقراراً. وثالثهم يا عيني كان قد خرج يوماً من الدار واختفى، وعلمنا أنه التحق بالفدائيين، ونحن في انتظاره دوماً كما كان حالنا ونحن ننتظر أخبارك يا حبيبي مراد. عودتك الآن تبشر بشيء عنه. وآخر العنقود تزوجت من سائق شاحنة يسافر معظم أوقاته خارج البلاد، وقد تعلمت الصبر مثل المرحومة أمنا. تلك هي حكايتي».

وتساءل عن أختيهما وأحوالهما، فقالت إن (فاطمة) تزوجت من يوسف وهو ميكانيكي مازال يعمل في السعودية، وكان نصيب ابنتها البكر من لبناني يعمل في دبي، والتحق ابنها ببلد يقولون إنه (كندا) وأنّها بعيدة، وتوفي لها توأم بنات في عمر الورد بمرض لم نسمع عنه. وأما (زينب) فكان زوجها فهد يعمل في مطعم جنوب لبنان، فترملّت بعد قنبلة مسحت المطعم والناس فيه، وتزوجت ابنتها من سعودي كان يعمل حارساً في السفارة فعاد بها إلى بلده، وأما الثانية فتقيم مع زوجها المزارع وأولادها في (البقاع) وتأمل أن يطلق سراح ابنها من السجن في بيروت فقد طال حبسه يا كبدي. وتقضي زينب بعض أيامها هنا. المدللة تتعذب يا حسرتي عليها يا مراد فالضنا أغلى من العين.

أهي حكاية العمر تختزل في كلمات؟. تفرقت العائلة ما بين القبر والهجرة، وما بين الحزن والانتظار كانت القسمة لا تقبل النقاش. أي طريق يسلكه البشر دون إرادة؟ وقالت عيشة:

- وأنت! لم تحدثني بعد عن نفسك. وأولادك، زوجتك، وظيفتك!

فهتف مراد وهو يحاول أن يضفي شيئاً من المرح على اللقاء المشبع بالحزن:

- ليس لي وظيفة كما تظنين يا أمنا، الست الآن أمنا جميعاً!
وقال بجد حازم:
-أعتقد أن وظيفتي هي أن أجمع الشمل يا عيشة.
فقالت الحسرة في وجه عيشة:
- ما ذهب لن يعود، وما تفرق لن يجمع!
وتابعت وهي تهتف برجاء:
- ما دمت قد عدت إليّ يا حبيبي، فالروح تعود.
وقال الألم في أعماقه:
- هل يستطيع المال أن يعيد الراحلين إلينا، بينما هو عاجز عن إعادة الأحياء إلى أصولهم!
وقالت عيشة وهي تتحسس بكفها الخشنة القماش الحريري للكنبة:
- لا بد أن ذوق زوجتك جميل مثلها!
فما لبث مراد أن ابتسم وهب واقفاً، قال:
- اقيم وحدي هنا بشكل مؤقت.
فصرخت المرأة بذعر نضح به وجهها:
- هل يعني أنك قد تسافر وتتركني؟
فقال مراد وهو يحاول أن يدخل الطمأنينة إلى قلب أخته الكبرى:
- عملي يستوجب مني السفر دوماً يا عيشة، ومثل أي سائق شاحنة سأعود.
فهتفت بتساؤل:
- ولكنك لم تحدثني عن زوجتك وأسرتك!
- الأيام القادمة كثيرة، وحديثك عن العائلة لم يترك لي المجال.
وأضاف بمرح مفتعل:
- وهل تريدين أن يكون هذا اللقاء هو الأخير؟
فقامت إليه تقبل جبينه بحرص الأم على الابن المرشح للغياب.
وهكذا بات عند مراد شركاء لزهرة في مشاريعه التي يفكر فيها.

وهكذا وجد مبرراً للاستمرار مدة أطول للبقاء في حلب. وعاد إلى المكتب بصحبة العميد حسن بعدما أوصلا عيشة إلى دارها في حي شعبي ينتشر فيه صخب الأولاد وبقايا النفايات. وكانت تعليماته الأولى تتعلق بيت لائق ليقدم هدية إلى أخته فيه كل ما تشتهي وتطلب. وقال لنفسه وهو يلف حولها على الكرسي الدوار:

- صحيح كما يقولون إن الحياة خط بياني متعرج. حزن يعقبه فرج.

وتساءل متمتماً بصوت خفيض:

- وهل يعقب الموت حياة؟

وكان في تلك اللحظات يستحضر زهرة ليمتلئ فضاء الخيال بعطر ساحر.

كان مراد يستقبل الزائر في داره، وقد خشي الرجل على سجادة الممر من حذائه فحاول أن تكون خطواته محسوبة، ولكنه ازداد دهشة عندما شاهد السيجار في فم صاحب الدعوة، واستسلم له وهو يقوده من ذراعه الذي اختفى تحت قميص ملطخ ببقع سود وكأنه خارج لتوه من مستنقع. وكرر مراد الترحيب بالرجل الذي قاوم الكهولة بهيكل عظمي متماسك، ودعاه إلى الجلوس على المقعد الأنيق، فاحتل الرجل حافته بخجل وهو يقول كمن يقدم أوراق اعتماد اعتذاره عن ذنب لم يقترفه:

- حضرت من السوق مباشرة، وسوق الخضار كما تعلم يا سيدي غبار ونفايات. لو أني أعلم أني سأزور مثل هذا المكان..

فقاطعه مراد بود وهو يدعوه إلى اعتبار نفسه في بيته، فدارت عينا الرجل في المكان وهي تمسحه بدهشة المفزوع.

تحدث مراد عن طفولته في عقبة الياسمين، وعن علاقته بأهل الدار الذين كانوا مع أهله عائلة واحدة. وجعل يصف لوالد زهرة فكرة المشروع الذي ينوي إقامته على مساحة من تل العقبة. سيقوم باستملاك كافة عقارات عقبة الياسمين من أجل هذا المشروع. فقال الرجل وقد سحرته الصور التي لم يوفق بتركيبها في مخيلته:

- نحن ساكنون بالأجرة يا سيدي، ولا نملك حجرة واحد في العقبة.

فتابع مراد حديثه متجاوزاً ملاحظة الرجل الذي يحاول الإصغاء بكل جوارحه كي يفهم ما يقال. بناء كبير يرتفع فوق التل المشرف على كل الأحياء المجاورة، فيه سوبر ماركت هو الأول من نوعه في حلب. فتساءل الرجل مقاطعاً:

- وما هو السوبر ماركت يا سيدي؟

فجعل مراد يفصل الفكرة بقوله:

- مكان يدخل إليه الإنسان فيجد ما يحتاج إليه من الملابس إلى التلفزيون، ومن الطعام إلى غرف النوم.

فأفلت التعجب من فم الرجل وهو يقول:

- كل هذا في دكان واحدة!

فضحك مراد طويلاً، وجعل يشرح للرجل:

- السوبر ماركت ليس دكاناً، يا أخ، تبيع فيه الخضار والفواكه، بل هو بناء كبير يضم في طبقاته المتعددة عشرات الأقسام المتخصصة، كي يقدم للزبائن ما يحتاجونه، بل قل ما يمكن لهم أن يتخيلوه.

وأضاف بقوله:

- مصاعد وسيور كهربائية تنقل الزائر من أرض الشارع إلى الفرع الذي يبحث عنه في السوبر ماركت.

وتساءل الرجل وهو يشرب الشاي من فنجان صيني يمسكه بحذر وهو يخشى عليه من كفه المتشقق:

- وأين سنقيم إذا ذهبت الدار؟

فأجابه مراد بلهجة مطمئنة:

- سيعوض أهل العقبة، مستأجرين ومالكين. لن أبخل على أحد، فكل سيأخذ حقه وأكثر.

وأضاف والابتسامة المبهمة ترتسم على وجهه:

- وسيكون لك أنت على وجه التحديد عمل له قيمة في البناء الجديد. وسيجد كل من يلوذ بك فرصة لا مثيل لها!

وطفح الذهول على وجه الرجل، فعالجه مراد بطرح سؤال قاطع:

- ماذا تقول في ذلك يا سيد؟

ولم يستطع الرجل أن ينطق بكلمة، فتابع مراد:

- وابنتك زهرة سيكون لها نصيب.

فأفلتت من الرجل مرارة في ابتسامة وهو يقول:

- وما شأن زهرة بكل ذلك يا سيدي؟ هي لا تنفع لأي وظيفة في سوبر ماركك.

فوجد مراد أن الوقت بات مناسباً لتوجيه ضربته:

- لأنّها ستكون زوجة صاحب المشروع!

لم ينل الكلام من الرجل، فقد صاح بصوت كسير:

- يكفي ما تقوله يا سيدي. نحن قوم بسطاء، ولا نحتمل أي سخرية!

فقام مراد من مكانه ليقدم صحن حلويات خطفت البصر قطعه المرصوصة كمجوهرات حقيقية، وقال للرجل:

- مراد زكريا لا يسخر من أحد، ولم يفعل ذلك من قبل، وأنا لا أقول شيئاً لا يمكن تحقيقه.

وأشار له بذراعه يدل على أرجاء الصالة الفسيحة، يقول:

- ما تراه أمامك هو أفخر منزل أملكه في أكثر من بلد.

وصاح بحزم:

- لا تضع الفرصة على ابنتك يا رجل. اسألها أولاً عن رأيها قبل أن تقول شيئاً. اترك الحكم للصبية إن كانت تقبل الزواج من مراد زكريا.

وأشعل سيجاره ليدعه جانباً بعد لحظة، وقال ناصحاً:

- لا تضع فرصة العمر. هي فرصة لا تعوض!

وكادت قطعة الحلوى أن تفلت من أصابع الرجل، فتماسك وهو يتمتم بصوت مسموع:

- لكن زهرة مخطوبة يا سيدي!

وأضاف كمن يلوذ بأحد يحميه:

- خطيبها مساعد أول في الشرطة العسكرية.

هوى البناء، وتناثر الزجاج، فهجم التراب يسد على الضوء مروره. وتشعبت أفعى الخيبة فالتفت فروعها على صدره وعقله وعينيه، فكان الظلام والاختناق والتحسر كمجرفة تنتزعه من هيبته لترمي به في عمق بئر ليس لها قرار. واستعاد جمر سيجاره بنار كادت تحرق أصابعه، وقال في محاولة لاستجماع هدوئه:

- ولكن هذا لا يمنع من أن تسأل ابنتك!

فقال الرجل باستكانة محزنة:

- سيكون الزواج في الأسبوع المقبل، ويسرنا حضورك يا سيدي.

وأردف بقوله:

- هو قريب لي، والفاتحة قد قرأت منذ سنين.

وقال متحسراً:

- لم نتوقع رجلاً مثلك أن يكون لنا شرف مصاهرته يا سيدي. الزواج نصيب.

فصرت أسنان روحه ومراد يردد لنفسه:

- مراد زكريا لا يفشل في تحقيق ما يريد!

من أين جاءت تلك الكلمة؟ الفاتحة ليست النهاية. وهل كانت حياة مراد في مسيرته خاضعة للنصيب. المال نصيب والحب نصيب، والفراق والموت والخيبة أيضاً! كلمة تتلاعب بها الوقائع فهي الحظ تارة وهي الفشل أحياناً. وهي الحيلة وهي الخداع، وهي الأوثان وهي المتاهة التي وقعت في فخها يا مراد زكريا.

وستتوالى على المكتب الطلبات والمواعيد، ينقلها إليه العميد حسن. جمعيات خيرية ومؤسسات ترعى الأيتام والعاطلين والمعوقين، ومرضى يطلبون العلاج في الخارج، وصحافيون يتطلعون الى مقابلة يجرونها مع المغترب المحسن الكبير. هدى تعيش في قفص أوهامها وهلوساتها، وهدية تنشد الأمان في معبد بوذي، والأخوات الثلاث يمضين قدماً في الاستسلام

للواقع، والشيخ رضا قد رمى بنفسه في بحيرة العزاء اليائس، ووحده عزمي فارس يبتسم للحياة من حوله. وزهرة تعود من جديد إلى لعبة البقاء القانعة. وتحدث مراد في المرآة الكبيرة وهي تعكس صورة حلب القديمة من خلفه:

- مشاريع ناجحة.. وأخرى خاسرة! فكيف هو مشروع عمرك الآن؟

وامتدت يده، وقد استقرّ على المكتب كرجل أعمال، لتمسك بالقلم في محاولة لكتابة شيء. واكتشف بعد زمن أنه يخربش على الورقة البيضاء كطفل مشوش البال.

29 كنت أحسب اني قادر على الاستمرار في الكتابة كي تكون هناك نهاية معقولة للرواية، لكنني قلت لنفسي «وهل يمكن لي أن أعرف نهاية للحكاية التي حفرت لنفسها مجراها كالنهر فتتدفق مياهه على هواها». وقضيت أياماً أتأمل بياض الأوراق الباقية، فلا يجد القلم وسيلة تمهد للمخيلة استمرارها. وأقيم سدٌّ بيني وبين الورق، فكانت رغبتي في المتابعة تصطدم به فترتد خائبة.

اقرأ بنهم علَّ بطاريتي تشحن بفكرة أو إشارة. وأستمع إلى شريط موسيقى أحبه عسى تنشط المخيلة، فإذا بمعنى الحياة عندي بات بلا معنى. وتساءلت إن كانت الفترة التي تتدفق فيها الكتابة هي التي تحسب من حياتي وماعداها لا قيمة له، وبهذا تكون القراءات واستمرار معاينة ما يدور من حولي ونشاط التفكير الذي لا يهدأ كلازمة ترافق نبض الزمن، هي كلها الوعاء الحيوي الذي يحتضن فعل الكتابة، وهي نسيج الرحم الذي يمدها بأسباب البقاء والنمو. وأعلم أنه ما من فترة في العمر يمكن أن تكون ميتة، وأن أحداث رواية ما في تصوير انكسارات أحلام شخوصها وآمالهم وسعيهم إلى السعادة، تسابقهم إلى الأفق الذي لن يصل إليه أحد، هي التي تعطي القدرة على فهم الحياة واستعادتها قبل أن تفلت من بين أصابعك، كالماء في محاولة للقبض عليه.

أهو العزاء في أن تجد للحياة معنى، فتجمع تفاصيل مسيرة الناس الذين تختارهم، في الكتابة، بعشوائية، فلا خيار لك في انتقائهم وهم يهبطون عليك وفق قواعد لا تعرف لها تفسيراً. أم أن العزاء هو في أن تعيد سيرة الحياة، فتكون الكتابة خطاً على التوازي معها. أم أن تجد نفسك في الذين يعيشون في سطورك كنوتة موسيقية تتراقص حزناً او فرحاً، فتعلم ان

لحن الحياة ليس نغمة واحدة ترغب في أن تعزف على هواك. ووقعت عيناي على سطور للحكيم (لاوتسي)، فقرأت بصوت خفيض زلزل الأوراق أمامي:

«من كان إلى الأبد بغير شهوة
فسوف يرى سر الأسرار.
من كان إلى الأبد محكوماً بالشهوات
فلن يرى إلا طرف ثوبه».

وعادت الأصوات التي لاحقتني منذ البداية تنادي فأسمعها مطيعاً، وكأن الماضي كلما ابتعد عن لحظاتنا الحاضرة، ارتفعت أصواته هاتفة تجبرنا على الإصغاء إليها، فتزداد وضوحاً كلما ابتعدت المسافة. ورجعت إلى الرواية التي لم تنته، لكنني لم أستطع شيئاً سوى:

«وقال مراد: فيجمد القلم عند الاسم الذي بات وكأنه توقيعي الشخصي على تعهد لا أستطيع أن ألتزم به».

فعدت إلى كتاب الحكيم:

«العودة إلى الأصل معناها: أن أجد السكون.
أن تجد السكون معناه: أن تعود إلى القدر.
أن تعود إلى القدر معناه: أن تكون أبدياً.
أن تعرف الأبد معناه: أن تكون متجلياً».

فاندفعت إلى الورق، ووجدتني أسجل..

«وقال مراد بثقة: ولكني عجزت عن إضافة حرف على ذلك»

فعدت إلى تقليب كتاب الحكيم:

«من يرى نفسه، لا يتجلى بنور المعرفة.
من يعطي نفسه الحق، لا يُعترف به.
من يدّعي، لا يثق به أحد.
من يغتر بنفسه لا يعلو في نظر الناس».

فطويت الكتاب أعيده إلى مكانه على الرف. وضقت ذرعاً بالنصائح التي قد تكشف عيوبي او أنّها تعري أبطال الرواية الذين صادقتهم. وجلست أتابع الفراغ الذي تشعب أمامي كمتاهات ابتلعت كل كلمة سطرتها، فما

عدت أذكر أحداً من أبطال الرواية وشخوصها، فامّحت الصور وغامت الأسماء وتبعثر الزمن وتناثر هيكل الرواية أوراقاً متشابهة في طيرانها، وكأن عاصفة مجنونة تطيح بكل شيء.

وسمعت صوتاً هاتفاً، وكأنه قادم من وراء ما هو محسوس ومرئي، وكان يقول:

– انس ما كتبت، واطوِ صفحة الماضي، وتوجه نحو تلك النقطة المضيئة فهي المدخل إلى الزمن الآتي.

فامسكت بالقلم وجعلت أكتب على ورقة منفصلة:

– انتهيت من كتابة حكاية من زمن مضى، وكان ذلك في السابع عشر من أيلول من العام الأول من الألفية الثالثة، وهو يوافق العام السادس والستين من عمري وفق التقويم الحلبي، كما هو يتلاءم مع اليوم الأول من ولادة الخوف الحقيقي من المستقبل الذي أدعو الله أن يسمح لي بالكتابة من جديد، فأتابع مسيرة تقديم العزاء لنفسي وللآخرين.

وها أنذا أتذكر قول الحكيم لاوتسي الذي حفر في صخرتي:

«الناس جميعاً عندهم فوق ما يكفيهم

أنا وحدي تعريت من كل شيء».

حلب

2001 / 12 / 2

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23

صدر عن دار كنعان 2000 – 2001 – 2002 – 2003

عنوان الكتاب	المؤلف / المترجم
قضايا وشهادات / سعد الله ونوس (بحث)	مجموعة باحثين
الجنرال (رواية)	آلان سيلتو
العقلانية العملية (فلسفة)	بيير بورديو
بابل والكتاب المقدس (تراث)	جان بوتيرو
الرقص مع الذئاب (سينما)	نك يانغ
البحث عن السيد جلجامش (مسرح)	محمد سيف
السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 (فلسفة)	خالد آغة القلعة
السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج2 (فلسفة)	خالد آغة القلعة
السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج3 (فلسفة)	خالد آغة القلعة
وعليك تتكئ الحياة (شعر)	ممدوح عدوان
وحوش العاطفة (شعر)	لقمان ديركي
بيان ضد الأبارتايد (سياسة)	د.محمد حافظ يعقوب
القيمة والمعيار (نقد)	يوسف سامي اليوسف
من دولة الإكراه إلى الديمقراطية (سياسة)	عماد شعيبي
القلم والسيف (سياسة)	إدوارد سعيد
عباس كياروستامي/فاكهة السينما الممنوعة «سينما»	فجر يعقوب
جماليات اللفظة «نقد»	د. علي نجيب إبراهيم
بين الإسلام والغرب (فلسفة)	مكسيم رودنسون
من قريب من بعيد (فلسفة)	كلود ليفي شتراوس
صعود وأفول فلسطين (سياسة)	نورمان ج. فنكلستين
اعترافات عربي طيب (رواية)	يورام كانيوك
ومض الأعماق «مقالات في علم الجمال والنقد»	ت د.علي نجيب إبراهيم
رائحة الأنثى (رواية)	أمين الزاوي

24	مواعيد (شعر)	محمد صارم
25	موكب البط البري (قصص قصيرة)	علي الكردي
26	ضباب البخور (قصص قصيرة)	عمار قدور
27	بؤس العالم (ثلاثة أجزاء) (علم اجتماع)	بيير بورديو
28	المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة)	د. برهان زريق
29	الخيال والحرية	يوسف سامي اليوسف
30	شرك الدم	مصطفى الولي
31	جنجر وفريد (سينما)	فيدريكو فيلليني
32	ياءٌ.. وعد على شفة مغلقة (شعر)	إسماعيل الرفاعي
33	ساعي البريد	انطونيو سكارميتا
34	اسقِ العطاش (شعر)	محمود كفى
35	هيروشيما (شعر)	وفيق خنسة
36	الدعابة المرة (حوارات)	محمد القيسي
37	الضغينة والهوى (رواية)	فواز حداد
38	على غفلة من يديك (شعر)	هنادي زرقه
39	بوح في المتاح (حوارات)	إلياس شوفاني
40	التباس (قصص)	ماهر منزلجي
41	سيكلوجية الحب والعلاقات الأسرية (علم اجتماع)	سيرغي كوفالوف
42	استمرارية التاريخ (رد على نظرية نهاية التاريخ)	عمانوئيل فاليرشتاين
43	حوارات المنفيين (حوارات)	برتولد بريشت
44	الخديعة المرعبة «سياسة»	تيري ميسان
45	مقال في الرواية «نقد»	يوسف سامي اليوسف
46	اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان «إحصاء»	نبيل السهلي
47	متى يصبح الإنسان شجرة «قصص قصيرة»	ماهر منزلجي
48	باب الحيّرة «رواية»	انيسة عبود
49	صفر واحد «قصص قصيرة للغاية»	رفيق عنيني
50	التدريب على الرعب «مقالات»	خيري الذهبي

51	مداريات حزينة «علم اجتماع»	كلود ليفي شتراوس
52	جزيرة الهدهد «شعر»	صبري هاشم
53	أطياف الندى «شعر»	صبري هاشم
54	الحصار «سياسة»	مازن النقيب
55	نساء في الحرب «مسرح»	جواد الأسدي
56	فلامنكو البحث عن كارمن «مسرح»	جواد الأسدي
57	الام ناهدة الرمّاح «مسرح»	جواد الأسدي
58	دلمونيات «شعر»	علي الجلاوي
59	قبلة في مهب النسيان «شعر»	سوسن دهنيم
60	طقوس حافية «شعر»	نجيب عوض
61	محطات الانتظار «سينما»	محمد توفيق
62	عام مضى والانتفاضة تتجذر «سياسة»	تيسير قبعة
63	الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار	كلود ليفي شتراوس
64	الريح والملح «قصص قصيرة»	الفارس الذهبي
65	حنين العناصر «شعر»	عائشة أرناؤوط
66	الاتجاهات النقدية الحديثة «دراسة»	عمر كوش
67	اليوم الأخير لبيت دمشقي «قصص»	طه حسين حسن
86	الغاوي «رواية»	بهيجة مصري إدلبي

سمعت صوتاً هاتفاً

تمدّدت تجربة وليد إخلاصي على مساحة غطت حوالي نصف قرن، كانت الكتابة امتحاناً لأسلوبه ولطموحه في أن يمضي قُدماً في التجريب، بحثاً عن صيغ يتطابق فيها المعنى مع المبنى في أعماله الروائية والقصصية والمسرحية. لذا فإن ما يمكن أن يطلق على نصوصه هو المغامرات الروحية المنطلقة إلى الخيال في الواقع المعاش، وإلى التخييل في واقع الحياة الواسعة الأرجاء. وبالرغم من قلقله التجريبي الملحّ فإنه لم ينقطع عن اجتذاب لغة صالحة للبناء المعماري الجاهز لسكنى أفكاره وصوره الحيوية، وكأنه لم يتطلع بإعجاب إلى نصّ كان قد انتهى منه، لذا فإن آخر عماراته يجيء على الدوام متحرراً من قواعد وخطوط ما سبقه من بناء.

وفي روايته الأخيرة «سمعت صوتاً هاتفاً»، تبتدئ الحكاية فيها بخدعة من يحاول أن يسجل وثيقة عن جانب من حياته الشخصية، فلا تلبث المخيلة أن تستدعي من كهف الذكريات مجموعة من رفاق الطفولة يقدمون شهادة على مرحلة من حياة مدينة حلب وهي تخرج من عباءة الاستعمار. تلاميذ في مدرسة واحدة يحلمون ويتطلعون إلى المستقبل من أعين متباينة، فيعمل واحد منهم على استكمال دراسته الدينية في الأزهر، ويحقق الآخر حلمه في أن يكون طياراً حربياً، ويهاجر الثالث إلى فرنسا بعد أن انقطع مبكراً عن الدراسة لفقره، فيحقق في الغربة مجداً مالياً ويعود بعد ذلك إلى أحضان مدينته، يصغي، كما الكاتب يفعل، إلى الصوت الذي ينبعث من رحم زمنٍ مضى. وهكذا تصبح الحكاية صدى يعبر عن إيقاع التحولات الاجتماعية التي ما زالت تتراكض كحصان سباق يجاري الإنسان فيسبقه أو يتخلف عنه.

إنها رواية الزمن الهارب.



